روايـــــة
نســـاء وجيـــاد

خيـــرى حـــداد

الرواية الخامسة للمؤلف

الطبعة الأولى

سبتمبر ١٩٩٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهـــــداء

إلى كل الذين يدركون أن الزمان الردئ قد إنتهى..

وأن الزمان الردئ الردئ .. .. قد بدأ..

الفصـــل الأول

كان سلامة يجرى فى شوارع المدينة باكياً لايعرف أين يذهب .. ووجد إمرأة فى منتصف العمر منكوشة الشعر ممزَّقة الثياب تجوب الطرقات وتصرخ قائلة:

– أيها الناس ناموا فى بيوتكم .. ناموا إلى الأبد .. إنكم لاتستحقون إلا النوم .. وإن يقظتكم عبث .. إن نومتكم طويلة ولن تعرفوا اليقظة أبداً ..

وكان هناك أطفال يتسكعون فى الشوارع فالتفوا حول المرأة فصرخت فيهم قائلة :

– ادخلوا هذه البيوت .. خذوا ماشئتم منها .. لاتنتظروا صدقاتهم .. وكانت تشير إلى قصور الأغنياء ..

لكن الأطفال المساكين ضحكوا منها وجروا فى شارع يؤدى إلى واد فى الجبل . ووصلت عربة الشرطة وصرخ الضابط فى المرأة :

إذهبى يا قحـ .. ثم ضربها على رأسها بعصا فى يده وأمرها :

– عودى إلى الجبل .. المجاهدون يحتاجون إليك .. ستجدين نفسك يالبؤة .. وانصرفت باكية تولول .. وجرت نحو الوادى ..

واقترب سلامة من الضابط يسأله :

– من هذه المرأة ؟

– إنها راقصة قديمة كانت متزوجة من كانى وهجرها .. ولما جُنَّ جنونها ذهبت تعيش مع رجال الجبل .. وابتليت بلوثة فى عقلها ..

– الغريب أنها تدعو الناس وكأنها حكيم .

– كثيراً ما تأتى الحكمة من المرضى ..

– وكيف يكون جهاد هؤلاء مثمراً .. إذا كانوا يعيشون مع هذه المرأة وغيرها .. هزَّ الضابط رأسه :

– مثمراً .. إنهم يعاشرون المئات غيرها ..

– الجهاد لايخرج من الرذيلة .

– إنهم يجاهدون ولكنهم لم ينتصروا أبداً .. والله أنا لا أعرف ماذا يحدث فى هذه الأرض ؟ هل أصحاب القصور على حق ؟ أم أهل الحى الفقير ؟

– لقد تاه من يعرف الحق فى تلك البلاد ..

وحدّق سلامة فى وجه الضابط الذى انصرف بعربته .. ومشى يتخيل أين يجد الحقيقة .. وفجأة وجد مجموعة من النساء تصرخ خلف بناية قديمة .. يرتدين ثياباً ممزقة وقالت إحداهن تخبرهن .. انصرف الضابط .. انصرف .. وامرولت واحدة بعد الأخرى نحو الوادى .. وأيقن سلامة حقيقة واقعة هى أن مئات من النساء يذهبن إلى هؤلاء المجاهدين ..

وكان سلامة مندهشاً ومشى خلفهن .. لكن المجهول هناك جعله يقف وينقلب إلى بيوت المدينة .. إن رؤى الواقع الغريب جعلته يدرك أن فى عودته إلى بيته خيراً كبيراً .. ولّما دخل البيت شعر بأنه لم يكن قوياً فى تركه داره .. وبدا له أنه لو كان قوياً لذهب مع النساء إلى تلك الأودية .. كان يعتقد أنه سيحطم تلك القصور وكل مايقلقه فى هذه المدينة .. وشدّته نيروز من ذراعه ودعته إلى الفراش وجسدها يرتعش فأوى إليها وحاول أن ينسى آلامه... وشعر وهو يلقاها أنها إمرأة تنسى العالم كله همومه .. وفى اليوم التالى حاول أن يندمج ويعيش كما يعيش السادة .. وشجعته نيروز على أن تجعله سيّدا كما يكون السادة .. وأن يكون لها عبدا ينسى الدنيا من حوله فى وجودها .. ومرّت أيام أخرى عاش معها واندمج كأنه تزوّجها من جديد .. وكان العبيد الذين يعيشون فى بدروم القصر قد نفد صبرهم وسعدية بنت منصور إنتفخت أحشاؤها .. وأخبر دحروج سيدته بأنها مريضة مرضاً شديداً حتى لاتطلبها فى قضاء شئ ويفتضح أمرها.. وكان أهل البدروم وخاصة السيدة ريما كثيرى الإلحاح على سلامة فى أن يجد لهم حلاً حتى ولو كان الخروج من المدينة إلى بلدة أخرى .. وكان سلامة يريد أن يخرج معهم لكن بعد أن انبهر بما تفعله نيروز من حب له، شعر بأنه

عبد عاشق فى محرابها فأصبح أمر الهجرة صعباً عليه ..

وكانت تقول له دائماً وهو بين ذراعيها:

– أنت مفترى .. هل يتمرد رجل وهو يرتع فى جمال إمرأة مثلى ..

فيقول لها :

– لا .. إن شيئاً كالموج فى رأسى يدفعنى دون أن أدرى .. إنها حالات من الجنون ..

– ولماذا لاتكون مجنوناً بى وحدى .. تأكد أن تلك الأفكار .. أفكار شيطانية ومرّت الأيام والمدينة تعيش بأهلها ساكنة آمنة كما عاشت منذ أمد بعيد.. الناس فيها كالأنعام.. واندمج فى قصره مع ابنه وإمرأته .. وأصبحت زياراته لأهل البدروم قليلة .. وفى ليلة من الليالى كانت السماء قاتمة بلا نجوم حتى طلع الناس إلى الأسطح والشرفات وإلى الشوارع والميادين ينظرون إلى قبتها فى ذهول .. أين النجوم والسحب المضيئة فالقبة سوداء وأرجاؤها الرحبة كأن غباراً رمادياً قد اكتساها .. وضباب مظلم يتحرّك هنا وهناك .. ونامت المدينة بعد منتصف الليل .. حتى أن الأطفال كانوا ينامون وهم يصرخون .. وعوت الكلاب حتى أسكتها آذان الفجر وعند إنبلاج الصبح كانت أجراس الكنيسة القديمة تدق فى الحى الفقير .. ثم سكن كل شئ .. وفجأة إستيقظ الناس مذعورين على صوت انفجارات هزّت المدينة عن بكرة أبيها .. ولما هلعوا إلى الشوارع والأسطح كانت نيران عالية اللهب تحيط بالمدينة .. وكانوا يعتقدون أن المجاهدين أشعلوا النيران فى الجبال أو أن النظام يدك البلدة بقنابله الحارقة كما أبادوا قرى من قبل .. ولّما أشرقت الشمس خلف الجبل اكتشفوا أنه لايوجد أى شئ حول الجبل الشرقى أو فى الوديان المنتشرة حوله .. ثم دوت انفجارات شديدة فى داخل المدينة .. واتجهت أنظار الناس نحو السماء فوجدوا لهباً وكتلاً من النار تنزل ثم تتفجر .. طائرات تملأ السماء وتقصف البلدة بلا رحمة .. أجسام تلقى وقنابل وبارود ونار .. وانبطح الناس فى كل مكان وهرعت النساء

والأطفال إلى بدرومات القصور، والناس في الحي الفقير لاذوا بالمساجد والكنائس .. ومرَّ وقت قصير كانت المدينة فيه كتلة من النار، وتهدَّمت بيوت الحي الفقير واحدة بعد أخرى .. وهرع أهلها إلى الجبال والوديان فاختلط الفقراء بالمجاهدين في خيامهم وناموا في فراشهم .. وسطعت أنوار وهاجة في أبراج السماء لا تنطفئ .وتردَّدت نيروز كثيراً وسلامة يشدها بيد وبالأخرى يحمل ابنه محمد لينزلوا إلى بدروم القصر .. وقالت وهو يجذبها :

– الدولاب .. الأغراض الفلوس يا سلامة ..

– ننجو بأنفسنا أولاً ..

– البدروم ليس نظيفاً ..

– الأمان يانيروز .. وهل نبقى هنا حتى ننظفه .. ننجو أولاً ثم ننظفه ..

واكتسى صوته بمسحة من خشوع ورجاء، وقعدوا في صالة البدروم على الأرض، وكان يحتضن ولده ويضعه في حجره وتكاد الدموع تنهمر من مقلتيه .. وحاول أن يحبسها حتى لايفزع الصغير الذي كان يمسك برقبته ويقول .. بابا .. بابا .. وجاءهم دحروج بالماء بعد أن أخبر أهل البدروم بأن السيدة نيروز قد شرفت .. فاختبأ كل في مكانه غير أن سعدية بنت منصور لم تكن تستطيع أن تحبس صراخها كانت آلامها قوية .. إنه المخاض .. وماكان من سلامة إلا أن قال :

– إنها مريضة بالتيفود ودرجة حرارتها عالية ويبدو أن أصوات الحرب جعلتها تصرخ ..

– إنه صوت إمرأة تلد ..

– إنها ليست متزوجة فكيف تلد ..

– أخبرها أني هنا وعليها أن تسكت ..

– لن أخبر أحداً بشئ .. دعينا نطلب النجاة فهذه أشياء تافهة الآن .. وهزَّت كتفها مندهشة .. ثم بدأ صوت الانفجارات يهدأ قليلاً فجرى دحروج إلى

أعلى فرّأى الشوارع تمتلئ بالناس والسماء خالية من الطائرات فانقلب إليهم فرحاً ليخبرهم :

– ليس فى السماء أية طائرة والناس تملأ الشوارع ..

فقام سلامة ممسكاً بيد نيروز وصعدا إلى القصر .. وانتشر بين الناس أن الطائرات قد ضربت محطات ومخازن الوقود ومرفق المياه وشبكة الكهرباء .. ولما غربت الشمس كانت المدينة مظلمة كالحة خربة فنزل الناس الشوارع باحثين عن الماء والخبز والأرز .. ولم يكن فى بيوت الحى الفقير أية مؤن .. إن قوتهم يومى وما يحصلون عليه من القصور تلتهمه بطونهم فور وصوله إلى بيوتهم .. وهرع الأطفال والنساء والرجال إلى القصور يستجدونهم العشاء .. وكثير منهم ذهب إلى الجبال والوديان يسأل المجاهدين فلماً انصرف الرجال والأطفال بعد أن زودوهم بقدر من الطعام .. أبقوا النساء وأطعموهن بسخاء ثم أعطوا لكل واحدة زاداً بقدر ماتكرّمت كل واحدة منهن ..

وقامت السيدة ريما من مرقدها وأوقدت شمعة فى حجرة سعدية .. وأمسكتها من رأسها بيد وأخذت تدعك صدرها بيدها الأخرى .. ومرَّ بعض الوقت حضر بعده الطبيب الذى أعدَّ عُدَّته وهيأ يديه باحثاً عن رأس الطفل .. وبعد قليل انتزع الطفل الذى صرخ مرتين وهو يدخل المدينة زمن الحرب .. وسجد يرهوم وبحروج لله ..

وكانت ليلة غريبة ثقيلة لم ينم الناس فيها .. ولماً طلع القمر فيها طعن الظلام البغيض وتمنى الناس ألا يعود النهار .. ولكن كيف لايعود .. إن العالم المتردّى لم يذهب بعد .. ولايمكن أن تولد إنسانية جديدة فى ظل إنسانية متهرئة .. وكان ضوء القمر ينير الطرق والساحات ويضئ مخارج المدينة .. وكانت العربات خائفة وهى تزحف إلى مخارج المدينة نحو الجنوب محملة بالأمتعة والأثاث .. إنهم أهل القصور القادرون على الهجرة إلى الضواحى أو إلى مدن أخرى .. وكان رجل حكيم يُدعى حداد الحاج على قد ملأ الناس نصحاً بأن من

يرحل فليذهب إلى الجنوب لأن الشمال ملبُّد بالغيوم فسمعه الناس وأطاعوه .. وظل الفقراء بين عششهم وخرائبهم يذهبون تارة إلى القصور الخربة وأخرى إلى خيام بقية من المجاهدين فى الوديان وكان معظمهم من الفتيات والنساء .. هل كان هذا العالم قوياً والمدينة فى كل أرجائها كذلك .. جاءت الحرب لتحطم كل شئ .. وقتل الإنسان أخاه وصرخ الأطفال وماتوا وسقطت النساء والعبيد مازالوا عبيداً .. ماذا يريد هؤلاء الذين جاءوا بالحرب ؟ أهى ظلمة تتلقف الناس جميعاً وهذا العالم يبقى ؟

وكان فى الساحة المستديرة التى تفصل حى الأغنياء عن الفقراء .. قبة عالية من أثر قديم تساءل الناس واندهشوا عنها لماذا لم تتهدم ؟ وتهدمت القصور .. وكان لصوت نيروز بعد الحرب نبرة محطمة قلقة وقالت لسلامة ذات يوم :

– إننا سنخسر كل شئ .. المال والقصور والأمان ..

– الأغنياء فى أى حرب يخسرون .. لكن الفقراء لا يخسرون أى شئ .. لقد خسروا كل شئ بدون الحرب حتى الأمان .. إنهم لا يأمنون حتى يومهم لأن أرزاقهم يومية وفى أيدى غيرهم .. حتى الأرزاق اليومية ليست حرة .. منتهى العبودية وهذا حال هذه المدينة .. إن مدناً أخرى لايوجد بها فقراء لأن الأرزاق حرة ..

– ولأن هذا حالهم فأنت تبرر نهبهم للقصور بهذا المعنى ..

– أنا لا أبرر أى عمل عدوانى ولكن هذا حالهم .. لقد انقضوا على القصور بشراسة ..

– إنهم يتمنون الحرب أبداً ..

– لاتفرق معهم .. أكيد يفضلون الحرب على الأمن ..

كانت قبضات عاتية تعصر قلب سلامة .. فلم يعد لشركته أى نشاط وأصبح هو وأسرته أول من تضرر بالحرب فما الذى يبقيه فى المدينة .. وكانت

نيروز تدفن وجهها الباكى فى كفيها وتظل فترات طويلة من الليل والنهار تبكى وتعتصر .. دموعها كالشئ الحى يرتعش ويضطرب وقالت له فى يوم .. يجب أن نترك كل شئ ونرحل حتى لانموت تحت الأنقاض .. وكان سلامة يسكت ويتمنى أن تذهب الحرب ويعود كل ماكان .. وكان فى بدروم القصر كل الحياة .. ربما تلوذ ببرهوم وتحتمى فيه وتحبه أكثر وهو يبعل منها فى عنف وحب شديدين .. كان خوفها من الحرب والموت يجعلها حريصة أن تستغل كل أوقات الليل والنهار فى عشقه، وكان يتلذذ بخوفها وضعفها ينهل منها وكأنه يعيش آخر حياته .. والمطر حزين يروى الموتى والخرائب .. والجوع ينتشر فيبرر كل أعمال السلب والسرقة .. الخبل الذى أصاب الرؤوس جعل العنف والانحراف يجريان فى دماء الناس كما يجرى الماء القذر فى الأرض السبخة .. إنساق الناس جميعاً إلى مسالك لم تكن موجودة من قبل .. إنتشرت الأمراض والأوبئة فمات كثير من الأطفال فتغيرت صفحة الحياة، وأصبحت مفزعة بلا أطفال يلعبون ويضحكون .. وبدأ كل ماهو حقير ينتشر .. وفى غيبة من سلطان صديق يحى استولت قيادة القوات المعادية على قصره ليكون مقراً للعمليات .. ولهث الرجل هنا وهناك ليبعدهم عن قصره حتى استقر الأمر بهم فى الطابق العلوى للقصر وكانوا يصعدون إليه من باب خلفى وسلم حديدى حلزونى معلق خارج المبنى .. وكانت الأيام كلها مهينة سوداء مرت كأنها الموت ينفذ إلى صدور الأحياء ويستشرى كالمرض اللعين .. وفى يوم قلت أعمال الحرب فذهبت نيروز تصحب ولدها لتزور أهلها .. فوجدت باب القصر مفتوحاً على غير العادة فنادت :

– بابا .. يابا .. وعبرت الحديقة إلى درج جانبى وجدت بابه مفتوحاً وهناك فى داخل الباب وجدت جنديين يهزران فزعقت فيهما قائلة:

– ماذا تعملان هنا ..

وكان أحدهما يعرف العربية فردَّ بلكنة غير مألوفة وهو يضحك :

– لقد أخذنا جناحاً هنا .. وأشار بيده إلى أعلى ..

وأرادت أن تضربه على رأسه ولكن الأخير فاجأها ومد يده إلى صدرها فصرخت وبصقت فى وجهه وشدها من شعرها وطوحها يمنة ويسرة .. وانكفأت إلى الأرض وتناولت خشبة لم تستطع أن تحملها بيد واحدة .. وطوحتها باليدين نحوهما فأصابت رأس أحدهما وسالت منه الدماء .. وكان الطفل يصرخ ويطوح بقبضة يديه نحوهما محاولاً الدفاع عن أمه .. وانهارت منزعجة نحوهما تبصق وتشتم .. وجاءتها الأم وفى يدهافرع من شجرة الصفصاف واندفعت بشجاعة نحوهما وظلت تضربهما بقوة حتى تكسر الفرع فى يدها .. وهرعا الجنديان إلى أعلى ولاذ الطفل بصدر جدته فحملته ودخلت به إلى الدور الأول فى القصر .. وكان الفزع قد حملهم جميعاً إلى البكاء فتجمع الخدم والعبيد يتوعدون ماذا يفعلون بالجند الذين تجرأوا وأصابوا أهل القصر بالأذى .. ولم تعرف نيروز كم قضت من الوقت فى بيت أهلها وحزنت كما لم تحزن من قبل، وعادت إلى قصرها مهمومة نكدة .. وأخبر الطفل والده بما جرى وكذلك علم سيد القصر ..

وفى صباح اليوم التالى عرض صديق يحى قصراً قديماً يملكه قرب الحى الفقير على قائد العسكر مقابل أن يتم إخلاء قصره حتى من نقطة الإشارة .. وأخذ الرجل يفكر فى هدوء كيف ينتقم لإبنته .. ومضت أيام قليلة ثم فوجئ أهل المدينة وصديق يحى نفسه بصدور قرار من العاصمة بتعيين صديق يحى عبدالمنعم الخالدى محافظاً للبلدة وسعد المحافظ بالمنصب وكذلك سعدت أسرته وقال المحافظ لإبنته وهو يحتضنها :

– ألا يكفى هذا لرد كرامتك ..

– لا يكفينى .. استدع الجنديين لأجلدهم بنفسى فى ميدان عام ..

وكان القائد قد اعتذر للمحافظ قبل تعيينه .. وفى خلال يومين تم تجهيز الساحة وصُلب الجنديان بالحبال الغليظة على قاعدة خشبية ثبتوها فى الأرض وقامت نيروز بجلدهما بالسوط .. وكان الناس فى ذهول حتى أنهم قالوا كثيراً بعد إنفضاض المشهد :

تضرب الجند هكذا هذا يعنى أن أباها أقوى من الحرب..

إنها ابنة صديق يحى القادر الفاجر .. مثل أبيها ..

لقد ولدت السيدة حميدة فودة بنتا بهذه القوة فهكذا تنتقم .. إن معنى هذا أنها تعيد بعض كرامة البلدة المهانة ..

ربما يكون القائد قد عشقها فكان رد كرامتها على هذا المستوى...

إنها تمثيلية .. ولماذا لا تكون الحرب أصلاً قد أتت بأمر صديق ..

إذا كانت ابنة صديق حقاً فعليها أن تأمر بعودة العسكر من حيث جاءوا ..

وكان قائد الجيش قد ألقى كلمة بالعربية بعد انتهاء الموقف فى الساحة قال فيها :

أيها الشعب العزيز جئنا إليكم أصلاً من أجل إعلاء كلمة الحق والخير .. نحن لا نقبل الإهانة لأحد .. وكل مواطن حطَّت عليه إهانة فليتقدم بطلب إلى المحافظ .. وسوف تقوم السيدة الفاضلة التى تم تعيينها رئيسة للمدينة بالانتصاف له ..

وقاطعته الأصوات صائحة .. نحيا العدل .. عاش القائد .. عاش المحافظ . تحيا رئيسة المدينة ..

ثم تابع القائد خطبته قائلاً:

نريد منكم أن تضعوا أيديكم فى أيدينا .. تعاونوا معنا وكونوا خير شعب نكن خير الحكام.. وتعالت الأصوات مرَة أخرى وكأنها تهتف ..

نريد الخبز واللحم .. بيوتنا خربة أقيموا لنا بيوتاً ..

وردَّ القائد بثقة :

– تعاونوا معنا حتى نهزم الأعداء ..

فقالوا فى صوت واحد :

– من هم الأعداء ياسيدى .. هل أصبحتم صديقاً لنا بعد التعيينات ..

وتهاوى القائد على مقعده وهمس فى أذن المحافظ .. وأرسلت نيروز جندياً إلى سلامة يقول له .. خذ الناس واذهبوا .. عودوا إلى بيوتكم ..

وقاد سلامة الناس إلى بيوتهم .. وكان يقول لهم واحداً بعد الآخر :

– فليرفعوا أيديهم عن المدينة إذا كانوا أصدقاء ..

فقال صديق له يدعى سيد أبو عاطف :

– ربما يكون هناك تحالف مع المحافظ

– تحالف على ماذا ؟

– تحالف .. أى نوع من التحالف لصالح الناس ..

– كل شئ جائز ..

وكانت السيدة الكبيرة تجلس فى عربة مرسيدس فاخرة مع بناتها سميرة وبسنت على جانب من الساحة .. وكن يشاهدن كل ماحدث ولكن الحديث الذى دار من الناس والمسئولين لم تكن تسمعه جيداً .. غير أن دحروج كان يهرول بين وقت وآخر إلى سيدته ليزف إليها كل ماهو مفرح .. وكانت دهشة السيدة كبيرة لدرجة أنها كانت تقول بصوت عال بين فينة وأخرى ..

وزوجها وابنها وهل يوافق سلامة أن تساير هؤلاء الرجال الغرباء ..

وماذا يعنى أن تكون رئيسة للمدينة .. عوضى عليك يارب ..

أنت خائن ياصديق .. ماذا يريد هؤلاء الغازون من ابنتى ؟

ولم تنطق كل من سميرة وبسنت ببنت شفة وكن جميعاً فى حالة ذهول .. ومرَّت الأيام .. هجرت فيها رئيسة المدينة قصرها وزوجها وولدها .. ولم يكن سلامة يستطيع أن يأمرها بشئ حتى ولو كانت بجواره .. وكان يطمئن عليها من والدتها التى دائما ماتشعر بالحرج كلما سألها .. وتقول له .. لاتخف عليها .. مع أبيها .. إنها رئيسة المدينة يابنى ..

مبنى المدينة بجوار مبنى المحافظة .. الجميع هناك فى حراسة .. فيقول لها دائما :

- ولماذا لاتحكم المدينة من هنا ؟

- كيف ؟ وهل تحكم المدينة من فراشها ..

- إتصلت بها كثيراً ورغم أننى أخبرهم بأنى زوج رئيسة المدينة فإنهم يقولون لى فى عبارة محفوظة .. لدينا أوامر بعدم الرد على أحد .. إنها مشغولة..

وشاع فى المدينة أن نيروز أصبحت ملكة المنطقة الشمالية بأسرها .. وأنها هناك تسيطر على كل شئ حتى القادة الغزاة تأمرهم بضرب المدينة أو برفع أيديهم عنها ..

وامتلأت المستشفى بأكثر من مائة مصاب ومات العشرات من الأطفال والنساء والرجال .. وانتشرت الأمراض وحل الجوع بالناس وكانت النساء يفعلن أى شئ من أجل العودة بطعام للأطفال الذين يصرخون من العرى والجوع واليتم .. وفى يوم تجمعت النساء فى ساحة واسعة بالحى الفقير وسرت فى ثياب ممزقة حفاة الأقدام يصرخن ويضربن صدورهن العارية ويلطمن الخدود .. من شارع إلى ساحة إلى زقاق حتى أن كل نسوة المدينة تقريباً قد خرجن من كل بيت وانضممن إلى هذه المظاهرة البائسة التى سارت إلى القصر القديم، وكأن هذا القصر هو المسئول عن كل ماحدث أو أن هذا القصر كما يعتقد البعض الآخر منهن هو الذى يستطيع أن ينقل مطالبهن إلى المسئولين فى مبنى المدينة والمحافظة .. إمتلأت الساحة التى تحيط بالقصر بهن وأخذت مجموعات منهن تنادى بصوت عال ومعهن أصوات بعض الرجال الذين انحشروا معهن :

- ياسلامة .. ياسيدة المدينة .. نريد طعاماً وشراباً .. بيوتنا خربة .. ياصاحبة القلب الكبير هل تنامين والمدينة جائعة .. أغيثينا فأنت أملنا الوحيد ..

وكانت السيدة تسمع كل شئ .. ولما خرجت اليهن .. صاح الجميع ورفعن أيديهن .. وكان صراخهن شديداً فرفعت لهن يدها وقالت :

- تردن الطعام والدقيق والحطب القديم للدفء ..

– ونريد أطفالنا ورجالنا الذين ماتوا ..

– من مات مات .. ولكن أدعونى فقط بالمستطاع ..

– نحن نموت من الجوع ياسيدتى ..

وامتلأت الشرفة بأهل القصر ريما وبرهوم ودحروج .. حتى سعدية بنت منصور .. وهمس محمد سلامة فى أذن جدته :

– المخزن مملوء بالطعام ياجدتى لا تتركيهن يذهبن دون طعام ..

والتفتت السيدة إلى سلامة قائلة :

– خذ العبيد واخرج كل مافى المخزن من دقيق وأرز وسمن فى أوعية عند الباب.. إذهبى معهم يا ريما ..

وسبقهم محمد يجرى إلى مخزن القصر .. وكانوا خلفه يتبعونه ويضحكون .. وتم تعبئة المؤن فى أجولة ومواعين كبيرة حملها العبيد حتى باب القصر .. وبصعوبة استطاع سلامة أن يُصف النساء والأطفال والرجال فى طوابير طويلة أمام الباب .. واستطاعت ريما أن تفض كثيرا من المعارك التى دارت بين السائلين .. كانوا يدفعون بعضهم بعضاً فتقع إمرأة أو يندفع رجل ويصرخ طفل ثم يتنابذون بألفاظ وقحة مما جَعل أهل القصر يلجأون لبعض العسكر للحفاظ على النظام وفض المشاجرات .. حتى نفد مخزون القصر من الطعام وكان عدد الجائعين فى الشوارع المحيطة أضعاف الذين أخذوا نصيبهم وانصرفوا .. وطلع سلامة إلى شرفة القصر ولحقت به ريما ورفع يده إلى الكتل البشرية الهائجة أمام القصر صائحا:

– اسمعونى .. أنصتوا حتى تسمعوا .. هل أنتم جائعون حقاً .. وليس فى بيوتكم بلغة خبز ..

وجاءته الأصوات من كل ناحية :

– نتضور جوعاً ياسيدى .. ليس فى بيوتنا أى شئ .. سنموت من الجوع.. سنموت ..

- سأخرج اليكم لنذهب إلى رئيسة المدينة.

وفغر الكثيرون أفواههم دهشين .. إلى رئيسة المدينة ؟ :

- ومن يضمن حياتنا ياسيدى .. ألن تضجر وتغضب علينا ويبيدنا عسكرها .. إنها تحكم قائدهم ياسيدى ..

وخجل سلامة لكلماتهم .. ونزل إليهم ممسكاً بيده ولده وسارت بجواره ريما بضع خطوات والتف الناس حولهم غير مصدِّقين .. وزعق سلامة فيهم يرجوهم قائلاً :

- اتبعونى جميعاً ولا تنسحبوا من حولى ..

وتقدم سلامة وولده وريما وعبيد القصر جميعاً، والتف حولهم بعض العسكر لحمايتهم من العامة .. وفى الطريق إلى مبنى المدينة انضم إليهم الكثير.. وكانوا يهتفون بأصوات واهنة من حين لآخر .. عاش سلامة .. عاشت الأميرة ريما ..

وكان الميدان حول مبنى رئاسة المدينة فسيحا .. اتسع لكل الجائعين، غير أنه كان يهتز من الصراخ الشديد .. وأزت بعض الرصاصات فوق الرؤوس العارية فانبطح كثير منهم على الأرض وفرَّ البعض إلى قلب المدينة حيث جاء .. وخرجت رئيسة المدينة إليهم فى شرفة المبنى تحاول أن تسمعهم أو تتأملهم وحولها كارولين والقائد وثلاثة من الجنود .. ورفع سلامة بوليده ووليدها .. وصرخ محمد بأعلى صوته حتى تسمعه :

- ماما .. ماما .. فسكت الناس جميعاً وكأن سهماً نزل عليهم ..

- أنا ابنك ماما .. ليس فى القصر أى طعام .. لقد وزعنا عليهم كل ما فى المخزن يا أمى .. أليس هذا صحيحاً ؟ لقد اشتركت فى توزيع الخبز عليهم.. ماما .. ماما ..

كانت مذهولة ولم تستطع أن تقاوم وفرت الدموع من عينيها .. لقد رأت الناس جميعاً فى لحظة كأنهم وليدها.. وابتسمت إليه ومدَّت إليه ذراعها كأنه

يستطيع أن يقفز إليها.. ونزل من فوق أكتاف والده وتركه يجرى إلى باب المبنى وحده ليذهب إلى الرئيسة بمطالب الشعب الجائع وأفسح الناس له طريقاً واسعاً.. كانوا يصفقون له ويهتفون :

– عاش الملك الصغير.. عاش الملك ..

وتآخى الناس جميعاً وتعانقوا على غير معرفة.. متأكدين أن الرئيسة لن ترفض للملك الصغير طلباً.. إن طلب الملك هو طلب الرعاع جميعاً.. واستبقت ولدها وطلبت من القائد أن يرسل الجند ليقبض على سلامة وريما حتى يكون ذلك عبرة أمام الجميع.. وصهلت الخيل ودارت حول الناس مرتين.. كانت عشرة خيول مدربة يمتطيها جنود تدربوا تماماً على تفريق التجمعات.. وأمسك جنديان بسلامة وجروه فى عنف إلى الداخل وكذلك فعل آخران بريما.. وعلت همهمات بين الناس وصرخ بعضهم وحدث هرج ومرج وهلع.. واخترقت الخيل جماعات الناس فسقط العشرات على الأرض.. كانت الخيل قوية تقفز فى الهواء وتسقط بحافرها على الرجل أو المرأة أو الطفل كأنها مقذوف تسقط من طائرة.. كانت هذه خيول القصور استطاع الغزاة الاستيلاء على بعضها لاستخدامها فى مثل هذه الأغراض، ولو كانت هذه الخيل تعرف قليلاً من الوطنية لما فعلت.. ولكن كيف يعرف الحيوان ذلك وقد تعلم من صاحب القصر القهر والاستعباد.. وكان القائد يصرخ من الشرفة كأن مساً أصابه : اضربوهم بالعصى.. وهجم العسكر بالعصى الغليظة فسقط كثير منهم متضرجاً فى دمائه.. ولم يمض كثير من الوقت حتى خلا الميدان منهم.. والذين تضرجت دماؤهم حملهم أهلوهم وأصحابهم إلى خيامهم ودورهم.. وباتت المدينة تلك الليلة حزينة بائسة.. ولم يخرج الناس من بيوتهم أياماً.. كان العسكر يتعقبون أى مجموعة من الناس تقف فى أى مكان وتضربها فى عنف.. وكانوا يبرزون فرادى فى الشوارع بحثاً عن الطعام والمياه.. حتى أن بعض النساء لجأن إلى فتح بيوتهن للجند ليستطعن أن يحصلن على الطعام.. كان كل واحد أو واحدة يبحث عن مخرج يحصل منه

على قوت يومه.. وانتشرت السوق السوداء فى كل ركن من البلدة.. لبيع أقوات الناس بأسعار فاحشة.. وأجبرت نساء كثيرات على الزنا حتى يستطعن الحصول على بعض الطعام لأطفالهن.. وقام بعض الجنود بلصق مطبوعات على الحيطان فى أرجاء المدينة تحذر من التجمهر فى أى مكان إذ سيكون العقاب شديداً.. وقضى سلامة وريما أياماً وليال فى معتقل المدينة وكان قد تم إرسال الطفل إلى جدته فى نفس يوم مظاهرة الجوع.. وكانت السيدة الكبيرة توبخ ابنتها بشدة أثناء اعتقال سلامة وريما وكانت رئيسة المدينة ترد فى برود شديد على أمها:

– قليل من الصبر.. أنا لم أتغير سوف يكون فى ذلك خير للمدينة كلها..

وكانت السيدة تقول لها فى عصبية:

– كيف.. وبعد هذا العمل المهين أن تنتظر منك المدينة خيراً.

وبعد كل مكالمة معها كانت السيدة الكبيرة تطوح بشال فوق رأسها وتمسك بشعرها الأبيض وتدعو الله أن ينتقم منها ومن أبيها.. وتحمل الطفل وتحضنه بذراعيها وتهمس قائلة:

– لأنك ابن سلامة.. ثم تبكى وتتمنى الموت لنفسها..

ومضى سلامة وريما أسبوعاً فى غرفة الحجز تعرَّضا فيها للتهديد والوعيد إذا قاما مرة ثانية بهذه الأفعال.. وكان ضابط برتبة رائد يدخل إليهما من يوم لآخر، وعادة يدور بينهما حوار كهذا :

– لو حدث ذلك فى بلدنا لكان مصير زعيم المظاهرة الإعدام حتى لايجرؤ العامة على مواجهة الحكام..

– معنى هذا أن البؤساء يواجهون البؤس فقط وليس لهم أن يطلبوا من الحاكم لقمة خبز..

– ياسيد سلامة هناك أصول وقواعد.. كيف يحق لهؤلاء الأوباش أن يرفعوا أصواتهم فى وجه الرئيسة..

– هل تعلم أيها القائد الهمام أن نساء مثلى ومثلها فتحن بيوتهن للغرباء حتى يستطعن شراء الطعام لأطفالهن..

– نحن ياسيدتى لسنا غرباء وعندنا قانون فى الحرب إذا غزونا بلداً فإنه شرف لكل إمرأة أن تفتح بيتها لأى جندى لأنه بطل..

وترد عليه فى تحد قائلة:

– ياله من أسف.. الآثم المعتدى بطل.. فى أى عيون بطل.. فى عيونكم أنتم.. إن من النذالة والخسة أن تدخلوا مدينة أهلها عزّل من أى سلاح.. وبطولتكم هذه التى تحكى عنها لغرور كبير..

ويكمل سلامة قائلا:

– لقد فرقتم بين رئيسة المدينة وبين أهلها فى أيام قليلة.. ودمرتم مدينة كبيرة وقتلتم الأطفال وحولتم النساء الشريفات إلى عاهرات.. لو كان فى هذا العالم مسئول عن حقوق الإنسان لذهبت إليه أنا وأهل المدينة جميعاً.. لكن هذه الإدارة تذهب إلى الإنسان بعد أن ينتهك كل شئ فيه وتكتفى بأن تدين.. والله إن هذا العالم كله يدار بالكذب والتضليل وبطولة هذا العالم الحقيقية أن تنتهك كل حقوق الإنسان.. أنتم فعلاً أبطال أيها الضابط.. والمعرة كلها لمدينة مثل مدينتى أن تبقى عزلاء من أى سلاح تدافع به عن نفسها..

ويرد الضابط فى ثقة:

– كل الذى تكلمت عنه لاشئ ويذهب فى الهواء.. أنت لاتعرف كيف يدار هذا العالم.. إن غزوا مثل هذا كما تسميه أو طلقة رصاصة واحدة فيه تساوى أى قيم هابطة تكلمت عنها.. قل هذا الكلام لرئيس بلادك.. لقد دفع الملايين لرئيس بلادنا حتى نأتى هنا لمدينة نسكتها وندمرها حتى لاتكون خطراً على رئيسكم فى يوم.. هذه هى القيم والإدارة التى تحكم تلك البلاد جميعاً.. نحن جئنا هنا بناء على اتفاق وبروتوكلات وملايين نحن قبضنا حفنة منها ونحن عساكر ننفذ أوامر حكام.. أليست هذه قيماً.. أى قيم أقوى ؟ .. أعتقد أن الذى

يملك المال والسلاح هو صاحب القيم.. أنتم فى غفلة ياسيد سلامة..

وتقول ريما محاولة أن تمسك بتلابيب نفسها وهى تسمع كلماته..

– أليس الدين يقول إذا كان الجار جائعاً ذهبت إليه بالطعام ؟ .. وإذا كان حزيناً ذهبت لأسرى عنه.. أم أننا لانعيش وفق ديننا..

ويرد الضابط فى ثقة وكبرياء:

– إن هذا العالم شئ والدين شئ آخر.. لقد جاء الدين ليصلح.. وهذا العالم غير صالح لأن الدين جاء ليصلح والعالم لايريد أن يصبح صالحاً.. العالم فى ناحية والدين فى ناحية أخرى.. ويهز سلامة رأسه قائلاً وكأنه يوبخه:

– هذا رأى الذين يبطشون ويبررون لأنفسهم كل أعمالهم السيئة التى يقومون بها.. ويستطيع هذا العالم أن ينطلق من الدين.. كل أديان العالم دين.. وهى جميعاً الدين الكبير.. هو النظام الكبير والمتين الذى يحكم هذا العالم إذا اهتدى.. إن قيمة واحدة فى الدين تسعد البشر جميعاً إذا عمل بها هذا العالم..

وينهى الضابط حديثه قائلا:

– لو لم تكونوا من أهل رئيسة المدينة لقمت بتعذيبكم عذاباً أليماً..

وينصرف .. ويأتى فى يوم آخر أو يأتى غيره.. ويدور نفس الحديث أو مثله بمرارة.. وكانت ريما مذهولة.. كيف تعتقلها نيروز مع زوجها فى غرفة واحدة.. ألم تعد تبقى عليه.. أذهبت إلى قائد العسكر وأصبحت لاتدرى بشئ.. وكان سلامة يقول لها كل يوم:

– أفخر الطعام يقدم لنا والناس جوعى وعرايا..

– ليس الغريب فى الطعام ولكن لم ينل أى منا أية إهانات.. فلماذا إذاً الاعتقال..

– لقد أرادت إسكات الناس وتخويفهم ليس إلا.. يبدو أنه درس للمدينة..

– نيروز تلك الصغيرة بدأت تعرف لعب الحياة..

– أخاف أن تكون أداة فى يد العسكر ولاتستطيع أن تفصل بين الخير

والشر لأهلها وذويها..

– قد أتعلم أن هناك طرقاً أخرى للجهاد مع العرايا.

– وكيف كنا سنفعل غير ذلك .. ألم يكن من حق الناس جميعاً أن تطالب بالطعام والكساء..

– إن الناس من شدة الجوع قد تخرج فى جماعات أكثر وأشد لتطالب بالحياة..

وفى صباح أحد الأيام كانت الشمس ساطعة ولما توسطت كبد السماء خرج الناس جميعاً من بيوتهم وتوجهوا إلى مبنى المدينة.. وكان برهوم قد دخل وسطهم يسألهم عن مقصدهم فحملوه عنوة ليطالب معهم بمطلبهم والإفراج عن زوجته وقال واحد من الناس لبرهوم وهو مندهش لرغبته فى النزول عن اكتاف الناس:

– أليست هذه زوجتك.. أتتركها فى أحضان العسكر.. نحن جميعاً نطالب بمطالب عادلة.. إذا كنت شبعاناً لأنك تقيم فى القصر فلا تنزل عن أكتاف الناس باعبد.. ألا تغار على زوجتك ؟!..

ودفعه برهوم بقوة حتى وقع الرجل جاثياً على ركبتيه وقال وهو يحاول الفرار من الناس:

– حتى أنت.. كفانى منكم مطالب..

وانقلب يدفع الناس بيديه القويتين مخترقاً الجموع عائداً إلى القصر.. ومرة ثانية كانت هتافات الناس وصرخاتهم أشد وأقوى مما كانت فى المرة الأولى.. الطعام.. الخبز.. سلامة .. ريما.. وخرجت إليهم الرئيسة فى أحلى زينة تطل عليهم من شرفتها العالية يحيط بها الحرس من كل جانب والقائد يقف خلفها مندهشاً.. ولوحت بيدها وكأنها تحييهم.. ثم قالت بصوت عال:

– ماذا تريدون..

– سلامة ريما.. الطعام والملابس.. نحن لا ننام من الجوع وأطفالنا

ستموت.. فهزّت لهم رأسها وكأنها توافق على مطالبهم.. وسكتت الجموع قليلاً ثم حملوا رجلاً له صوت قوى شديد يدعى صابر طاجن فقال:

– إن لم يصل الطعام بيوتنا اليوم فإننا سنموت بالفعل ياسيدتى.. ثم بكى فى انفعال شديد فوضعوه على الأرض ولما جفف دموعه طلب أن يحملوه مرة ثانية فقال:

– إن هناك بيوتا أكلت الكلاب والقطط حتى أنه لم يعد فى المدينة كلب أو قطة.. الأوبئة ياسيدتى تنتشر وكل ماهو سئ يسرى فى المدينة..

فقالت له الرئيسة:

– ما اسمك..

– صابر صابر طاجن..

– طاجن.. ألم يجدوا لك إسماً آخر..

– كنت أصنع طواجن الطعام وأبيعها فى السوق قبل الحرب.. فأطلق الناس علىَّ هذا الاسم..

وضحكت رئيسة المدينة كما لم تضحك منذ قدوم الحرب وقالت له:

– سوف تمتلئ كل طواجن المدينة قبل غروب الشمس..

فانحنى لها شاكراً وانحنى الناس جميعاً.. وفى سرعة البرق تعالت صيحاتهم كأنهم يتغنون بملء طواجنهم ولكن سرعان ماخبت تلك الاستغاثات.. والتفت الخيل التى يركبها جند الغزو حول الجموع مرَّة أخرى ولكن هذه المرة دون أن تدوس أقدام الجياد هؤلاء العرايا.. فتفرق الناس جميعاً يهرولون إلى بيوتهم وكانوا جميعاً حريصين على غسل طواجنهم وأطباقهم قبل المساء..

وكانت الرئيسة سعيدة للجاه والسلطان فهى أخيراً ستطعم المدينة، وتطلق سراح سلامة وريما.. فأمرت القائد بفك سراحهما فانحنى ملبياً طلبها فى الحال.. وأرسلت ساعياً إلى سلامة بأن يذهبا إلى القصر وفى خلال وقت قصير سيكون الطعام الوفير قد ملأ القصر.. وسرت فى جسده رعدة خوف من تلاحق

الحداث.. ولما كانا يخرجان من الباب الكبير كانت هناك جماعة من الناس تحتم باباً صغيراً للمبنى وقال الجندى لسلامة:

– خذهم معك ياسيدى وأخبرهم بشأن الطعام..

وناداهم سلامة:

– تعالوا معنا لايوجد أى شئ خلف الباب.. ستملأ طواجنكم قبل المساء..

وبسخر وهو يقول لهم.. ألم تسمعوا حديث صابر طاجن مع رئيسة المدينة..

وردوا عليه جميعاً فى صرخة واحدة:

– إننا وأطفالنا لن نستطيع أن نصبر حتى هذا المساء..

– اتبعونى وسوف أبحث لكم عن أى لقيمات فى القصر..

وتبعوه.. كانوا يثقون فيه فمشوا خلفه.. وتبعتهم جماعات أخرى تلهث من شدة الجوع.. فوصل سلامة وريما إلى القصر وكأن جمهرة من الناس تزفهما..

وقابلتهما سعدية بنت منصور عند الباب تزغرد وكأنها تصرخ.. كان أهل المدينة وأهل هذا الخليج كله لايعرفون كيف يعبرون عن أفراحهم أو أحزانهم وكأن نصف ألسنتهم قد خرس.وكانت سعادة السيدة الكبيرة بالغة وكذلك كانت سميرة وبسنت ومرت دقائق ودق جرس الهاتف وذهبت إليه سعدية:

– ألو.. ألو.. بصوت خشن..

ثم تلعثمت ووقعت سماعة الهاتف من يدها فجرى إليها برهوم قائلا:

– ألو.. آه آه.. نعم ياسيدتى..

– هات ستك ياحمار..

– حاضر ياستى ستين حمار ياستى.. عبدك المطيع ياستى..

وقامت إليه ريما: ودفعته من صدره وتناولت السماعة قائلة:

– من يتكلم..

– أنا الحاكمة..

– ربنا يحرسك ويخليك.. خير ماعملت.. ألف حسرة عليك تعتقلين أختك

يامجرمة..

– هات أمك يازوجة العبد.. ياسليلة العبيد.. أكيد أبوك كان عبداً..

– عبد حر خير من حاكمة تعشق قائداً غزا ودمرً بلادها..

– سوف أعدمك ياحقيرة.. ستكونين عبرة لكل إمرأة عشقت العبيد هات أمك ياسافلة..

– ياخائنة يازانية لو كنت حقاً رئيسة هذه المدينة افعلى مانبحتِ به..

والتقط سلامة يد الهاتف من ريما قائلا وهو يسخر..

– أهلا يارئيسة المدينة..

– هل سمعت ماقالته الفاجرة..

– أظن أن لها الحق فى أن تقول لك أشياء أخرى.. ألم تعتقليها وتهينيهـــا ؟..

– ألم أعتقل زوجى ؟..

– وكيف هذا ؟ ودون مراعاة حتى لطفلك الصغير..

– وهل حدث لك أية إهانة.. لقد عشت فى غرفة مكيفة فيها أثاث قصر.. ياسلامة افهمنى.. لقد أردت تخويف الناس وأن يحسب كل واحد منهم ألف حساب لرئيسة المدينة.. إن فى اعتقالك أنت وريما قوة لى.. اصبر قليلاً وسوف ترى نتائج مافعلته..

– كيف تعيشين فى هذا المبنى.. وهذا الضابط يتبعك فى كل مكان ؟ ..

– هذا الضابط هو قائد الجيش.. وأنا الذى أمنعه عن ضرب المدينة..

– صارحينى يانيروز.. بماذا تمنعينه ؟

– وهل تعتقد أننى أفرط فى أى شئ من نفسى.. إننى أتعامل معه بالعقل الكبير.. لاتخف علىَّ.. إنه ينحنى أمامى.. وإذا أراد هذا الضابط شيئاً من إمرأة فإن لدى فى المدينة نساءً كثيرات أستطيع أن آت له بواحدة منهن.. ولكنه لم يصل معى إلى هذا الطلب.. إنه ضابط تائه ولا يعرف ماذا يعمل غداً.. ثق تماماً

سيد أقوله لك.. وسوف ترى نتائج هائلة فيما بعد..

– أتمنى أن تكونى كذلك فهذا أملى وأمل الناس جميعاً..

– أعرف أمل كل المدينة.. سوف أقيم بيوتاً جديدة ولن يكون فى المدينة جائع أو مريض..

– المهم ألاَّ يفعل أى منا خطيئة من أجل السلام أو الطعام..

– أعرف تماماً إن الله لن يقيم سلاماً صنعته الخطيئة.. وإذا كنت تشك فى لحظة طلقنى حتى أكون حرّه.. لايرانى فى تلك الحرية غير الله..

– استمرى فى عملك وأنا راض عنك مادمت فى أمان وتحفظين عهد الأزواج.. والمدينة أمانة فى عنقك.. ولكن المشكلة ماذا يريد هؤلاء العسكر ومتى سوف يظلون يخيمون فوق صدورنا..

– هذا ما أعمل على استيعابه.. وسكتت برهة ثم أخبرته:

– ستصلكم عربة نقل محملة بكل أنواع الطعام لكم وللمدينة..

وكان القائد الذى يفهم العربية قليلاً يسمعها وقال وهو ينحنى قليلاً برأسه:

– أهناك شئ يقلقك ياسيدتى..

– لا.. لاشئ.. أرسل عربة الطعام فوراً إلى القصر..

وانصرف القائد قائلا:

– سأذهب لينتهوا من إعدادها .. وسوف أرسلها حالاً .. لا تقلقى ..

وكان الحديث بينهما يدور ببعض كلمات اللغة الشوركية وقليل من الانجليزية ومرات بالعربية الركيكة.. وكانت هناك سيدة طاعنة فى السن تدعى حسنية أمين تجيد الشوركية استدعتها رئيسة المدينة من الحدود لتقوم بوظيفة المترجم بينها وبين الضباط وقائد الغزو..

– وكان المحافظ لايفعل شيئا محدداً من مبنى المحافظ.. ولكنه كان يفكر فيما حدث.. من الذى أتى به إلى هذا المنصب.. ولماذا اختارته الرئاسة فى

العاصمة.. وكان دائما ينتظر ما تأمره به القيادة.. وكانت التعليمات تصله كل يومين أو ثلاثة:

– أنت محافظ مثالى.. دع رئيسة المدينة تفعل كل شئ.. أنت حارسها ورمز القوة.. لابد أن تنال المدينة كلها درساً لاتنساه حتى لا تأوى مجاهداً ولا تلده ثانية.. لقد قام مجاهدوهم فى الجبال بتفجير قيادة الشمال العسكرية.. إننا لن نتركهم الآن.. سوف نجعلهم يموتون أحياء.. لاطعام يدخل الجبال أو الوديان لأننا فى طريقنا للقضاء عليهم واحداً بعد الآخر.. وكانت طائرات النظام تدك الجبال المتاخمة للمدينة بضراوة شديدة كل يوم.. وعندما يفر مجاهد إلى المدينة كان يمسك به جند الغزو ويقتلونه علناً فى شارع أو ميدان.. حتى أن أسرهم كانت ترى رجلها يقتل بشراسة بشعة أمام أعينهم ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لانقاذه.. وكان أمل كل أسرة مجاهد ألاّ تذبح أو تقتل من بعدّه.. كانوا يهربون وينزوون ويغيروا أسماءهم وأسماء أطفالهم.. وفى يوم سألهم المحافظ:

– لماذا هذا الغزو ؟

– لاتسأل الآن..

– كان يكفى أن يقوم النظام صاحب المقام الرفيع بهذا الدور.. لأن الغزاة ياسيدى دمروا المدينة تدميراً شاملاً بلا رحمة..

وكان المسئول يرد عليه دائماً:

– إن فى ذلك حكمة بالغة .. أنتم أيها المحافظ ورئيسة المدينة ستخلصون تلك المدينة من الغزو.. وسوف تفعلون كثيراً من أجلها ونحن معكم.. إن فكر النظام فى العاصمة كبير ولك أن تفكر كل يوم فى هذا الفكر.. كان لابد من هذا الغزو يدخل المدينة أرضا ليساعدنا مرة واحدة فى القضاء على كل المجاهدين فى الجبال والوديان والجحور المتاخمة للمدينة.. وهناك أشياء كثيرة سوف تعرفها أيها المحافظ.. إنك مازلت فى السياسة تلميذا فى المرحلة الإبتدائية.

وكان المحافظ يسمع ويسكت.. ولم يكن يستطيع غير أن يفكر فى الأحوال

التى تحدث خاصة حال أهل المدينة، وكان يطمئن دائماً من الرئيسة بوصول عربة الطعام إلى القصر كل يوم حتى تنام المدينة شبعانة..

وكانت ريما تقوم بتنظيم النساء والرجال خارج فناء القصر وداخله حتى ينال كل منهم نصيبه ويذهب.. وكان برهوم ودحروج وسعدية بنت منصور وعبد الله آخر جلبته السيدة الكبيرة من أحد القصور يدعى سعيد متولى، كانوا هؤلاء جميعاً أداة مع سلامة فى توزيع المؤن على الجموع الحاشدة التى تصل القصر كل مساء.. وفى يوم لم تصل العربة فأخرجت السيدة الكبيرة كل مافى مخزنها من دقيق ولحم وأرز ووزعته على الناس.. وكان أهل القصر جميعاً سادة وعبيداً يندهشون.. كيف يأكل الناس فى المدينة وينام أهل القصر بلا طعام.. ومنذ هذا اليوم قررت السيدة أن تقيم هى وبناتها فى القصر القديم بصفة دائمة حتى يكفيهم أقل طعام، وليمكن توفير بعضاً منه لمن هم أوْلى به ؟!، ولما نبهتها ريما بأن العسكر سينهبون القصر.. ذهبت هى وبناتها وبرهوم لإحضار الحلى والمال وكل ماهو ثمين وقفلت أبواب الغرف وأتت بكل طعام فى المخزن.. وملابس قديمة وجديدة لتوزعها على الفقراء.. وبطاطين والحفة زيادة عَن حاجة القصر حتى تكون غطاءً لأسر كثيرة بلا غطاء..

وتم تجهيز الطابق الأخير فى القصر لتقيم فيه السيدة الكبيرة مع بناتها.. ونامت فى تخت واحد معهن وكانت تحضنهن حتى الصباح.. ونام برهوم هذه الليلة مع الخدم.. كان شديد الخجل أن ينام مع ريما والسيدة الكبيرة موجودة.. وكان دحروج وبرهوم وسلامة يخرجون إلى المدينة كل صباح ليأتوا بأخبارها وحال الناس فيها.. وكانوا يعودون إلى القصر بعد الظهر كل يمتطى صهوة جواده.. وكانت هذه الخيل قد جلب برهوم منها أربعة من قصور المدينة المهجورة.. وكان قصر صديق يحى هو القصر الوحيد الذى لايقتنى الخيل وكانت هذه رغبة السيدة الكبيرة خوفاً على نساء قصرها.. ومن الغريب أن هناك كثيراً من النسوة قد أخذن أطفالهن وذهبن إلى الجبال والوديان التى تكتنف المدينة

حيث كان هناك بقية من المجاهدين لم يموتوا أو يفروا بعد إلى جبال أخرى بعيدة.. ومرت الأيام يأتى فيها الطعام إلى القصر من رئيسة المدينة حيث يقوم أهل القصر بتوزيعه.. وهكذا ظل سلامة والسيدة الكبيرة وربما حتى برهوم أسياد المدينة فى نظر هؤلاء الجائعين.. ومرت أيام أخرى تعذر الاتصال بالأبنة فى رئاسة المدينة وفى مبنى المحافظة مع المحافظ.. حيث كانت تلك القيادة المحلية مشغولة بصفة دائمة فى اجتماعات مستمرة مع القيادة السياسية والعسكرية الجديدة.. وفى يوم طلبت الرئيسة أمها وقالت لها:

– أعرف أنه لايروق لك ما أقوم به..

– أنا خائفة عليك يابنتى.. أنت صغيرة وجميلة وليس لديك خبرة بالسياسة.. إن زوجك وابنك أولى بك..

– إن وجودى هنا يطعم المدينة ويطعم أمى وابنى..

– من الذى قام بتعيينك رئيسة للمدينة ؟.. ومن عين أباك محافظاً وهو تاجر ؟

– القيادة السياسية فى العاصمة..

– ولماذا أنت وأبوك ؟

– لأننا أقوى الناس فى المدينة..

– ماذا يريد العسكر من بلادنا ؟..

– إنهم قد لايعرفون لماذا جاء وا.. ولكن كل مايعرفونه أنهم قبضوا المال من أجل هذه العملية.. وكل ما أعرفه حتى الآن أنهم جاءوا باتفاق مع القيادة فى العاصمة..

– وهل توافق أى قيادة فى العالم أن يغزو جيش أجنبى قطعة من أرضها ؟

– القيادة تهدف إلى القضاء على المجاهدين فى الجبال..

– لماذا لم يذهبوا إليهم فى الجبال ؟ .. ليس للنساء والأطفال والشيوخ

صلة بهؤلاء المجاهدين !!..

– القضاء على المجاهدين لابد أن يمر أولاً بالمدينة..

– إذاً هناك خيانة .. هكذا حال بلادنا.. كما هو حال هذا الشرق..

– هذه أمور أكبر منا يا أمى..

– تريدين أن يبقى الناس فى قضية طعامهم كل يوم..

ويصبح أهل المدينة أبداً متسولين .. إن ذلك سيجر الناس إلى أشياء أخرى..

– بقدر ما استطيع سوف أرسل الطعام.. هذا ما استطيع عمله الآن..

– هذا حال غير طبيعى.. لم أر فى حياتى هذا الوضع المخزى..

– يا أمى إن هذا الطعام ليس طعام المدينة.. إنه طعامهم يأتينا فى شاحنات من بلادهم..

– ومن يدفع الثمن ؟

– أكيد القيادة هى التى تدفع..

– الأمور ليست واضحة.. ماذا يجرى بالضبط..

– إنه لعبة يا أمى.. بدأتها تلك الوحدة المأجورة من العسكر..

– لعبة كبيرة.. لاستطيع أن استوعبها الآن..

– سوف أخبرك بكل جديد فيما بعد.. ولكن ليس فى الهاتف.. اسمعينى يا أمى عندما أحدثك بطريقة غير لائقة بعد اليوم أضطر لذلك للخداع مثلاً.. كل ما أطلبه منك أن تردى علىّ بأكثر مما هو غير لائق.. كأننى على خلاف معكم ومع المدينة كلها.. إنها رسالة أريد أن أبعثها لهم دائماً من وقت لآخر حتى تعرف قيادة العسكر التى بدورها تخبر العاصمة بأننى نعم الرئيسة التى اختاروها.. ولن أوصيك يا أمى بولدى فأنت وسلامة أحن منى عليه..

وسعدت السيدة أخيراً بحديثها حيث بدا لها الأمر ينجلى، رغم أن الواقع كله سئ وغامض.. وجمعت أهلها جميعاً وأخبرتهم بأمر نيروز وكان أسعدهم

سلامة باطمئنانه على زوجته ودورها الخير الذى تلعبه.. غير أن ريما تطرق إلى نفسها كثير من الريبة والشك فى أمر أختها وقامت إلى غرفتها غير مقتنعة بهذه الحكايات.. وأخذ سلامة يقبل ولده ثم أقبل على سميرة وبسنت وقبل واحدة بعد الأخرى، ثم انحنى على يد السيدة الكبيرة وقبلها.. ودعت الله أن يسعده ويسعد ولده وأن تعود إليه زوجته بعد أن ينصرها الله..

وأرسلت ريما فى طلب برهوم الذى صعد إليها فى غرفتها فقالت له:

– اقترب .. لماذا أنت هكذا ؟ تعال ادخل.. ألن تنسى أبداً أنك عبد.. تتصرف وكأنك عبد ذليل.. ألست زوجتك.. لماذا لا تدخل.. الغرفة وتقبل علىّ كما يفعل الأحرار..

– أنا ياسيدتى خائف من سيدتى.. وأنام تحت فى البدروم فى تلك الغرفة حتى لايفتضح أمرى عند السيدةالكبيرة..

– لقد علمت السيدة بكل شئ منذ وقت.. حتى الذى بين سعدية ودحروج..

فتبعثرت الكلمات من فيه وارتعشت قدماه، وكاد أن يقع.. غير أنها زعقت فيه قائلة:

– يالك من جبان.. سوف تظل عبداً إلى الأبد.. إن العبيد لن يتحرروا فى هذا العالم حتى لو تزوجتهم سيداتهم.. وكل سيدة تفعل ذلك مثلى فإنها لن تأخذ زوجاً حراً ينطلق إلى السيادة.. إن كل إمرأة مثلى كأى إمرأة فى قصرها تذهب إلى الخيل فى حظيرته.. ومن الأمور المستحيلة أن ينقلب الفرس إلى رجل حر فالحيوان يظل حيواناً.. والعبد كذلك..

– إن السيدة الكبيرة ستعاقبنى فيما بعد.. دعينى ياسيدتى أذهب إلى حظيرتى.. هذا كل ما أتمناه.. إننى أخاف أن أنظر إلى عيون سيدة القصر بعد هذا اليوم.. لقد انكشف أمرى.. دعينى.. دعينى وجثا على ركبتيه يبكى..

– اقفل الباب ياحيوان وتعال.. تعال كالخيل والبغل أو كالحمار..

وقامت إلى دولابها وأمسكت بخيرزانة قديمة احتفظت بها بين ملابسها

لى حين الحاجة إليها.. وقالت له فى وحشية إمرأة:

اخلع ملابسك وابك واركع على ركبتيك.. هل تتذكر لما كنت أجلدك فى عرفة الخيل القديمة هناك فى قصر الصغار.. لايحق لمثلك أى حق غير الضرب بقوة والجلد حتى الموت..

.. ونامت السيدة الكبيرة مرتاحة هذه الليلة هنية البال غير أن سميرة وبسنت أخذتا تتكلمان طويلا بعد أن نامت السيدة.. فقالت بسنت لسميرة وهى تحتضن فراشها:

– يدمرون كل شئ فى منتهى البساطة.. وهل أتت القيادة فى العاصمة لتنشر الجوع والحرمان بعد قتل عشرات الناس ؟

– لا أعرف إلى متى يستمر هذا الوضع ؟!.. لماذا لم يدخلوا المدينة بلا حرب وبلا ضحايا.. وكانت الحياة تستمر كما كانت من قبل.. الأسواق والأفران والزرع والضرع..

– كانت المدينة غنية بالحياة.. غنية رغم كبر الحى الفقير بها لقد كان أهل القصور أرق الناس فى المودة والرحمة على أهل الحى الفقير وكانت الحياة تسير من قديم الزمان على هذا.. كان كل بيت من الحى الفقير يأكل كما تأكل القصور.. أليست هذه عدالة طبيعية ؟..

– يالها من قيادة حقيرة ياسميرة.. أى قيادة فى هذا العالم تصل بشعبها إلى هذا الحال المتردى.. كيف تسمى قيادة ؟..

– ثم نامت الأختان بعد منتصف الليل.. وفى الصباح جلس سلامة فى عرفته يكتب مطالب الناس. والتى سيقدمها إلى رئيسة المدينة هذا اليوم هو وكبار الرجال فى البلدة.. وكان فى مقدمتها فتح الأسواق، والسماح بفتح بعض منافذ الحدود حتى تعمر البلدة بالسلع.. وإصلاح شبكة المياه وخطوط الكهرباء.. ولما أخذ يقرأ المطالب فى اجتماع لأهل القصر بعد تناول الفطور قالت له ريما:

– وهل نسيت المخابز ؟.. والفلاحون أليس لهم الحق أن يذهبوا لزراعة

أرضهمّ.. وفتح معامل الألبان ؟.. والبيوت التى هدِّمت.. هل يتركون الناس تبنى بيوتها ؟

وقالت السيدة الكبيرة:

– وتبنى القصور التى هدِّمت..

– القصور فيما بعد يا أمى.. أولا بيوت الغلابة.. ليس أهل القصور هنا حتى تقام من جديد..

– ياريما أقصد تعمير المدينة كلها من جديد..

– الغلابة أولا..

ووقف محمد الصغير وسطهم جميعاً وقال وكأنه يهتف:

– لمن تقدَّم هذه المطالب ؟

فردَّ الجميع:

– المحافظ.. المحافظ يامحمد..

– لا لا.. إلى رئيسة المدينة وأنا سأذهب بها ولن ترفض لى طلباً..

وضحكوا جميعاً وسعدوا به.. ووافقوه على طلبه ثم أخذته خالته سميرة فى أحضانها.. وبعد فترة صمت أخذ سلامة يتكلم فى هدوء:

– لماذا لانأخذ الناس جميعاً وتذهب بهذه المطالب حتى يكون لها قوة التأثير..

فردّت عليه ريما مندهشة:

– وهل تريد لنا أن نُعتقل مرَّة ثانية ؟!.. ألم تحدثكم فى الهاتف.. ومدت لكم ذراع الحكمة فى تدبير الأمور ؟.. القوة الآن ليست فى الصراخ والمظاهرات.. دعونا نخدع الجميع مادامت رئيسة المدينة فى يدها الكثير..

– كلام ريما صحيح.. نريد أن نحافظ على وصول الطعام كل يوم.. ولنتصرف بعد ذلك بدون مظاهرات حتى لانقلق نيروز.. وسكتت الأم وهم شبه متفقين على التعامل بأسلوب جديد.

وكان جناح الرئيسة بمبنى المدينة كبيراً يتكون من سبع غرف جميعها مزودة بالأثاث الفاخر والمكاتب والمقاعد الوثيرة.. وكان أمام كل غرفة صالة كبيرة مملوءة بالمقاعد والمناضد وفازات الورد تملأ كل ركن وفرشت الأرضية بسجاد فاخر.. وبجانب كل باب غرفة نُصب تمثال للحرية على منضدة عالية طوله متر صنعها جميعاً رجل فنان حضر إلى البلدة من دولة مجاورة وعاش فيها حتى مات وهو فى عمر السبعين عاماً.. وكان يعرف أن عمدة هذه المدينة يحب الفن والتماثيل فأتى إليه لما طلبه هذا العمدة.. وكان هذا العمدة يحب الحرية فلم يستطع أن يفعل غير التماثيل المنحوتة من مواد كان يجلبها هذا الفنان من بلده ثم يطليها بمادة نحاسية.. وكانت التماثيل هى صورة لعمدة البلدة يرفع يده اليمنى نحو السماء من أجل الحرية.. وأمام المدخل المؤدى إلى الجناح يقف جندى ببندقيته.. وكانت نيروز قد أحضرت صديقتها كارولين متى صالح لتكون وصيفة لها وجليسة وأمينة سر، وتدربت كارولين على التجسس وكيف تأتى بالأخبار من حجرات«الضباط ومكاتبهم.. وفى أيام قليلة إستطاعت أن تستحوذ على إعجاب وملاطفة الضباط.. حتى الجنود كانوا لايسألونها عن دخولها غرف الضباط أو الخروج منها.. انبهروا بها وكانوا يتأملونها فى ذهول.. وأخذت تجلب كبار الضباط إلى غرفتها يلعبون معها الشطرنج أو يستمعون إلى الموسيقى. وكانت ترتدى الملابس القصيرة عارية الصدر والأكتاف.. فكانوا يتسابقون على الذهاب إليها.. وتسابقوا بالتالى على مقابلة رئيسة المدينة.. فلم يكن أحد يستطيع مقابلتها إلا عن طريق كارولين حيث ترتب لهم المواعيد وتأخذ طلباتهم والمواضيع التى يريدون طرحها على الرئيسة حتى تسمح بمقابلتهم.. ولم يكن أحد يستطيع تحقيق أى شئ من هذا إلا إذا أقام علاقة ود مع كارولين.. ولم تكن هناك إمرأة فى المدينة ترقى إلى أناقتها وساعدها على ذلك عملها مصممة أزياء لأهالى القصور من النساء والفتيات حتى أنها كانت تنظف بعض نساء العبيد بتصميم ملابس أنيقة لهن لما يطلب منها صاحب القصر أو صاحبته ذلك..

وأحدثتْ تعديلات على القاعة التى تقيم فيها الرئيسة حتى عادت قطعة من الذوق الأوربى تصلح أن تكون تلك القاعة فى قصر جميلة عاشقة وليست فى قصر رئيسة للحكم.. فارتدت نيروز أحلى الثياب وأرقها حتى تكون منبع هذا السحر وعطره وخافت كارولين على أميرتها من ضباط الحرب، فكانت تلازمهم معها حتى ينتهوا من لقاء الرئيسة ويذهبوا إلى غرفهم البعيدة.. فتعود إليها كارولين وهى تشعر بأنها تحمل أمانة كبيرة فى داخلها لأنها تحاول دائما الحفاظ على أميرتها من كل سوء.. تعود إليها فتنبهر بسحرها وتقبلها فى رقة متناهية وتقول:

– أنت حبيبتى.. إنى أغار عليك من أنفاس الرجال.. ولولا جمالك الأخاذ ياصاحبة عمرى مارضيت لحظة أن أكون أمينة لك.. ولما كانت كارولين تحتضنها بقوة.. بل كانت تعتصرها.. كانت الرئيسة تحاول إبعادها فى لطف قائلة:

– كفانى هذا الحب كفانى.. إهدئى ياكارول.. إهدئ.. يا..

وكانت أبواب القاعة ونوافذها لاتفضى إلى خارج المبنى ولكن إلى ردهات وغرف داخلية مقفولة خالية من الناس.. فكانت تلك القاعة مغارة سحرية فى بطن جبل بعيدة عن العالم.. وفى يوم طلب كبير الضباط مقابلة الرئيسة.. واندهشت نيروز لَما أخبرتها كارول بذلك.. وكان رجلاً متغطرساً حدثها مرتين فى الهاتف فى أمور خاصة بالمدينة.. ولَما أخذت نيروز تندهش من هذا الأمر قالت لكارول:

– إذاً هناك أمر هام..

– هو كأى ضابط أتى إلى هنا ياسيدتى مهما كان الأمر..

– أخاف أن يطلب شيئاً يضعنى فى موضع حرج..

– كيف تخافين وأنت الرئيسة.. ياسيدتى ارتدى الفستان الزيتى الطويل..

– المشقوق من الأمام..

– عندما تسيرين بهذا الفستان بخطواتك الوئيدة التى اعتدت عليها منذ أصبحت رئيسة.. فإننى أشعر أن مدينة كاملة من النساء الجميلات تتدللً وتتبختر أمامى.. فما بالك برجل..

- إن الشئ الواحد عندك يصبح أشياء عديدة..

- ياسيدتى إن أى رجل مهما كان كبرياؤه سينسى عندما يراك كل شئ جاء من أجله.. إنك تستطيعين ياسيدتى أن تغيرى هذا العالم الصغير حولنا..

- بهذا الفستان..

- أنت أولا.. لأنه لولا جمالك ماتفعل أجمل الأزياء شيئاً على إمرأة قبيحة..

- إن المدينة مليئة بالجميلات..

- لم تصل أى إمرأة منهن إلى منصب الرئيسة.. ولاتوجد فى بلدتنا إلا إمرأة حتى حلوة.. لقد كانت القصور مليئة بالحلوات.. لكنهن رحلن جميعا مع أهلهن.. حقيقة ياسيدتى لم يكن فى أى قصر من قصور المدينة جميلة ترقى إلى جمالك.. وكان فى قصر الخالدى وحده ملكة جمالهن جميعاً..

- ألم أقل لك إن الواحد عندك أشياء وأشياء..

- صدقينى ياسيدتى إنك تستطيعين أن تنقذى كل النساء القبيحات وأطفالهن ورجالهن.. وهذا هو مابقى من ركام المدينة.. ياسيدتى فى الدين يقولون.. إن من بين ركام الخطايا قد تنبعث الحياة الطاهرة من جديد.. فقبل من الدلال ياسيدتى حتى يصير هذا القائد أرنباً..

- وهل نستطيع أن نصل إلى هذا القول ليصبح فعلاً حقيقياً..

- إن من بين ركام المدينة نساءً قبيحات شكلاً وموضوعاً وأطفالاً جائعين ورجالاً شيوخاً متهالكين.. جميعهم عرايا محرومين.. إن من بين هؤلاء قد تصنع مدينة من جديد..

- إنه حمل ثقيل ياكارول.. اذهبى أنت وارتدى فستانك الأزرق الطويل حتى نستطيع أن نلعب لعبة الحياة لتلك المدينة.. ألم تقولى إننى أستطيع انقاذ المدينة..

- بالضبط.. هات ماستطعت ياسيدتى وسأكون لك خير عون..

ولَّما فتحت كارول الباب وجدت القائد أمامها فقالت له:

– هلا هلا.. تفضل ياسيدى الكابتن..

كان صدرها العارى خيمة من نور فانبهر الضابط وزلت قدمه وكاد أن يقع، وكلما جال بناظريه إلى تلك الخيمة كانت قدماه ترتعشان.. تلاشى كبرياؤه وتحولت غطرسته إلى حنو.. كان كمن يلهث خلفها.. وكأنه عاد طفلاً تملأه العفوية أو صغيراً يتعلق بصفات العزة والأبهة.. ولما اقترب من مكان الرئيسة حيث تقف فى طرف القاعة عند ركن مكتبها.. لم يكن يستطيع أن يقف مثل الرجال العاديين.. فلم يتمالك نفسه أو حتى يسيطر على تلابيبها من شدة انبهاره بسحر الرئيسة.. انحنى أمامها.. طويلاً.. انحنى ومد ذراعه إليها فصافحته وقبل يدها وهو يمثل الطاعة والحياء.. وكأنه يقول لها تحت أمرك ياسيدتى.. ولما أشارت إليه بالجلوس قرب مكتبها.. كانت كارولين تحاول شد أحد المقاعد حتى يجلس.. وجلست قبالته.. وكان يحاول أن يرفع عينيه عن ساقيها اللتين برزتا كغصنى بان فمحتا خيمة النور من مخيلته وقال لنفسه.. إذا كانت خيمة النور هى المدخل إلى رئيسة المدينة.. فإن جزءاً من جسد هذه الرئيسة الساحر لهو قلب كل مدن العالم الجميلة.. ليس فى الطريق إلى هذه الرئيسة مدينة واحدة موحشة.. وان علىّ إذا أصبحت حكمداراً لهذا العالم أن أولىً هذه الساحرة رئيسة لكل مدن العالم الجميلة كمدينة باريس وڤيينا.. إن هذه الفاتنة مليكة فى زمان قبل هذا الزمان.. لأن كثيراً من أميرات وملكات هذا الزمان قبيحات.. إنها أميرة لايضاهيها أميرة فى أى زمان.. هكذا أخذ يحدث نفسه وبقى لحظات أخرى من الصمت ولما رفع عينيه مبهوراً إلى وجهها بادرته قائلة:

– باسم الإنسانية التى تبدو فى ملامحك.. أستحلفك أيها القائد أن تبوح بسر قدومك إلىّ..

– جئت إليك بخصوص الطعام..

– أى طعام..

– كنا نحسب أن عربة الطعام التى تذهب إلى قصركم كل يوم لأهلكم وذويكم فقط..

– وهل يأكل أهل القصر الذى لايتجاوز سكانه عشرة عربة طعام كاملة..

– أليس فى القصر مخازن وثلاجات..

– كيف تكون أخلاق أهل قصرى لما يخزنون الطعام والناس فى المدينة يموتون من الجوع.. أليس أهل المدينة أهلى.. اعتبرهم من أهلى..

– إن القيادة فى العاصمة تريد إهلاك أهل المدينة جميعاً.. لقد جئنا تقريباً من أجل ذلك.. وأنا لا أريد للناس أن يموتوا من الجوع وفى نفس الوقت لا أريد أن أقدَّم لمحاكمة..

وقامت الرئيسة وتمشت حتى الباب ثم جاءته قائلة:

– افتحوا الحدود التى قفلت وبالتالى ستفتح الأسواق.. واتركوا الناس تذهب إلى أعمالها.. إرفعوا أيديكم عن كل شئ.. سيصبح الناس فى غير حاجة إلى طعامكم..

– ألم أقل ياسيدتى.. إن دورنا هو تجويع المدينة حتى يموت الناس، حين يموتون هنا يموت الناس هناك..

– هناك أين ؟

– يموتون فى الجبال والوديان.. المجاهدين..

– إن الناس فى المدينة ليسوا مجاهدين أو أصحاب مبادئ.. هم من الفقراء والعبيد.. لم يعد فى المدينة الآن غير العرايا والمساكين..

– ولكنهم ولدوا المجاهدين.. هذه المدينة هى التى أخرجت تلك الفئة التى تهدد النظام..

– إننى وأهل المدينة مستعدون للتحالف معكم حتى لايموت الناس.. وهذا مطلب إنسانى..

= الأوامر حتى الآن ضرب المدينة..

وكانت كارولين تجلس على مقعد يبعد قليلاً من مجلسهما، غير أنها غادرتهما بعد قليل لما شعرت بالخنق من ويل ماتسمعه من القائد.. والرئيسة تحاول الوصول معه إلى حل لتلك المعادلة الصعبة .. حتى ولو كان ذلك الحل أن يدفع المحافظ مبلغاً كبيراً من المال لهذا الضابط.. لتسهيل وصول الطعام إلى الناس.. فأبعدته عن صميم الموضوع قليلاً فقالت له:

– أين طائراتكم ؟

– فى المدينة..

– كم طائرة ضربت المدينة..

– هل أنا خائن حتى أخبرك..

وعرّت ساقيها بأن وضعت تلك الساق ناحية الجانب المشقوق من الفستان على الساق الأخرى.. فتعرت مدينة من النساء على وجه تلك الساق.. وقالت وهى تتفرس وجهه بعينيها:

– وتلك الدبابات والمصفحات عند كل ميدان وشارع وحتى فى بعض الحوارى.. كل هذا العتاد من أجل هؤلاء الناس الغلابة..

– حتى لايخرج من المدينة مجاهد أو يدخلها مجاهد..

– صدّقنى أنا لم أر مجاهداً فى حياتى.. وأظن أن ناساً مثل هؤلاء لايلدون جندياً يحمل عصا..

– كل معلوماتى أن الجبال والوديان حول المدينة يعيش فيها هؤلاء سواء كانوا فى المدينة أو من غيرها.. وقد يكون هناك أهداف أخرى..

– مثل ..

– الاحتلال وفرض الهيمنة لتكون المدينة تحت رحمة ما.. وقد يكون ذلك تهديداً لزعيم هذه المنطقة، والذى يعيش فى الخارج حتى يحدوا من نشاطه ضد النظام أو يتوقف عن النشاط عندما يسمع أنهم سيبيدون شعبه ..

– كثير من هؤلاء الزعماء الذى يطلقون عليهم ذلك فى هذا الزمان.. هـ. فى الحقيقة تجار وليسوا زعماء.. صدقنى إنها لعبة ظالمة بكل المقاييس، والمظلوم فيها الفقراء.. الذين لاحول لهم ولاقوة..

– أنا رجل عسكرى أقوم بواجبى فقط..

– هكذا كلفت من قيادتكم..

– وقيادتى لا تستطيع أن تقوم بعمل كهذا إلا بعد الاتفاق مع قيادة بلادكم.. إننى أنفذ تلك المهمة كما ينبغى فسوف أرقى جنرالاً عندما أعود إلى بلادى..

– أحاول إنقاذ المدينة معك ولاتريد أن تقترب من أمل إنسانى تكافئك السماء عليه..

– سوف أضرب المدينة ياسيدتى قبل أن تشرق الشمس..

وشهقت الرئيسة وقامت إليه وهى تهز رأسها فاغرة فاها قائلة:

– ماذا تقول.. تضرب المدينة..

– بالطائرات كأول مرة.. عقاباً على توزيع الطعام للناس..

– عاقبنى أنا.. عاقبنى أنا.. ورجعت إلى الخلف ثم تهاوت على مقعدها منهارة..

– كيف أضربك وأنت رئيسة المدينة.. سأضرب المدينة مضطراً لأن زميلاً لى قد وشى بأنى أرسل الطعام إلى الشعب حتى نفد المخزون.. أرسل تقريراً لقيادة بلادى..

– وهل فى ضرب المدينة إنقاذ لك..

– سأضرب المدينة وأرسل تقريراً يفيد بأن الشعب هو الذى سرق الطعام من المخزن..

– أتضربون خيام اللاجئين.. أم البيوت الخربة التى تمتلئ بالفئران والجرذان..

- من أجلك ياسيدتى سنضرب من بعيد..

- ألن تقتلوا طفلاً أو شيخاً..

- سنضرب المناطق الخربة وحول المدينة حتى يكون لتقريرى دعم واقعى.. وأكون صادقاً عند القيادة بأنى أضرب المدينة وأهلها حتى لايسرقوا الطعام مرة ثانية..

ونظرت إليه بحزن شديد وطفقت قائلة:

- أفهم أنه لابد من تدمير المدينة مرة أخرى..

- ثقى سنضرب المناطق الخربة ولن يموت عصفور فوق شجرة..

- وإطعام المدينة بعد ذلك كيف سيكون ؟

وتصنع أنه لم يسمع سؤالها:

- متى تزورينني ياسيدتى ؟

- إذا تركت الطعام يذهب للناس كما كان الحال من قبل..

- سنترك الطعام يذهب إلى الناس.. وسنظل نضرب المناطق الخربة..

وقام الضابط وشد على يدها وجال بناظريه فى خبث على ساقها العارية.. ثم انحنى قليلاً وقال:

- سعدتم مساءً ياسيدتى..

وأوصدت كارولين الباب خلفه وهرولت إلى سيدتها التى كانت تبصق فى الهواء كمن تبصق على وجهه..

وقال الرئيسة لصاحبتها:

- أين ذهبت وتركت هذا الأفعى معى ؟

- ذهبت إلى مكتبه ياسيدتى وصوّرت كثيرا من الأوراق فى دولابه ودرج مكتبه..

- ألم يمنعك الحرس ؟

- أخبرتهم بأن القائد يريدها وقبّلت كل الحرس الذين يقفون عند بابه..

– أين هذه الأوراق ؟

وأسرعت إلى غرفتها وأحضرت حافظة مملوءة بالأوراق والخرائط المصوَّرة ووضعتها فى حجرها.. وفضتها الرئيسة واحدة بعد الأخرى.. ثم أخذت كارولين تقرأ لها ماتحتويه كل ورقة من خطط وأفكار وخرائط والرئيسة تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل غير أن كارولين أخبرتها بأنها قدَّمت الكثير حتى تحصل على هذه الأوراق فتيقظت الرئيسة قائلة:

– أى كثير غير قبلات الجند..

– ليست هذه الحقيقة ياسيدى لم أقبِّل أحداً.. ولكنى..

هذا الضابط الصغير أمين الحرس والذى يعمل دائماً فى غرفة الوثائق كان يغازلنى منذ مدة فاتفقت معه إذا أعطانى صوراً للأوراق والخرائط الخاصة بأسرار عملهم أعطيته كل شئ.. وكان ياسيدتى..

– أنا حزينة وسعيدة لما أسمعه منك..

– لايهم ياسيدتى أى شئ فى سبيل الحصول على ماهو أغلى من أجل المدينة.. وماذا كنت أفعل.. هو الذى طاردنى ووجدته مبهوراً بى فعرضت عليه نفسى أعطيته ثم أعطانى.. منذ وقت وأنا أعطيه ياسيدتى..

– ومن أخبرك أن لهذه الأوراق فائدة..

– إن فيها كل شئ عن المدينة، وخططهم التى جاءوا من أجلها ومواقع الطائرات والدبابات وخريطة لمخازن الذخيرة التى أحضروها معهم.. هذه الأوراق معنا لن تفيد يجب أن نرسلها إلى من يفهمها..

ورغم أن كارولين كانت تجيد اللغة الكورشية إلا أنه كانت هناك رموز ومصطلحات لم تستطع تفسيرها وأرجأت الرئيسة أمرها فيما بعد.. وكان رأس سيدة المدينة مثقلاً بالأحداث وكان أكبرها ضرب المدينة غداً فكيف تنام وتترك بلدها تضرب وتهان.. ما الذى تستطيعه حيال طائرات ودبابات.. ودعت كارولين بأن تربط رأسها المتهاوى بإيشارب حتى يضغط الرباط على تلك الرأس

المفكوكة.. ثم قالت لها الرئيسة:

– هات تلك الأوراق فى أحضانى.. قد يكون فيها نافذة من أمل.. نرسلها غداً لمن يفهمها ويدبر أمرها.. ذكرينى بذلك ياكارول..

– وكيف لا أذكرك ياسيدتى.. إنها الأمل وحتى لايضيع جهدى..

– جهدك.. برب السماء أنا حزينة على هذا الجهد.. وأصبحت لا أعرف وسيلة واحدة نظيفة تحقق للمغلوبين على أمرهم فى الدنيا حياتهم الشريفة..

وفى صباح اليوم التالى ضربت المدينة بقسوة.. ضربت فى بطون الجبال والوديان التى تحضن البلدة.. ضرب الحى الفقير الخرب وتلك الغابات المتناثرة حول المدينة.. لم يمت طفل واحد أو شيخ.. ومات خمس نساء كن يبحثن عن الطعام فى كوم زبالة، ومات كثير من الكلاب والقطط والحمير.. ومات فرس عجوز ضال كان يبحث عن العشب فى غابة.. وتوترت أعصاب سيدة المدينة وصرخت وبكت من أجل الضحايا.. لقد كانت تحب الخيل فى أول العقد الثالث من عمرها.. ولما علمت أن الفرس يُدعى غندور تألمت كثيراً.. لقد كان فرس جار لهم منذ سنين وباعه لقصر العبيدى لأنه كان لا يألف بعض النساء ويرفسهن.. وحاولت كارولين تهدئة سيدتها وأفلحت فى ذلك قبل المساء.. وكانت كارول قد أنفقت وقتاً كثيراً من التفكير وحدها.. فى كيفية إحباط عدوانية هؤلاء العسكر وألا تضرب المدينة بهذه الشراسة مرّة أخرى وقالت لسيدتها متظاهرة برباطة الجأش:

– دعينى الليلة ياسيدتى أجوب ملاهى المدينة وفنادقها..

– إذا ذهبت إلى الملاهى فمن يكون عقلى المفكر ؟ .. أنت تحمينى ياكارولين.. هل أوصلتك حرب النهار إلى أن تذهبى عنى لتشربى الخمر فى الليـــل ؟..

– لن أذهب إلى الملاهى لأحتسى الخمر.. ولكن لأجلب النساء..

– لمن تجلبين النساء ؟ وهل هناك غير الغانيات ؟..

– منذ أن جاء الضابط ليلة أمس قرأت فى عينيه كل شئ.. أليس هذا قائدهم ؟.. سوف أجعله لايستطيع ارتداء بزته العسكرية وسأجعله يركع تحت أقدام غانية.. دعينى ياسيدتى.. هبينى قليلاً من الحرية حتى أفعل شيئاً..

– أيبارك الله فى عمل وطنى نستخدم فيه النساء جسراً حتى نغلب الأعـــداء ؟!..

– وماذا تفعل النساء فى مواجهة الطائرات والدبابات ؟.. ألا تستعين النساء بالنساء ؟.. هذا طريقنا الوحيد لإغراقهم ثم هزيمتهم.. وإن لم يكن الطريق الوحيد فهو الوسيلة الوحيدة التى أستطيع أن أنفذها..

– ومن يضمن أننا سننقذ المدينة ؟..

– إننا جميعاً نفعل ولانضمن النتائج..

– هكذا نتدبر الأمور نحن النساء.. لقد كنت أريد أن ننتصر عليهم بقوة الرجال..

– إذا كان الرجال فى بلادنا قد بلغوا من الخسّة أن يدفعوا الملايين لتأتى الحرب فتدمّر جزءًا من بلادهم.. فإذا كان الرجال هكذا فى العاصمة.. فعلينا نحن نساء الشمال أن نفعل مالم يفعله الرجال جميعاً..

– إذا استطعنا أن ننتصر بالنساء فمن أدراك أن ترضى الرئاسة فى العاصمة بهذا الانتصار ؟..

إنهم سيرسلون إلينا بعسكر آخرين يدمروننا مرّة أخرى..

– ولماذا لاتكون لنا أظافر تصل حتى إلى النظام نفسه فى العاصمة ؟..

– طموحك زائد عن الحد..

– ياسيدتى الآن سأمتطى فرسى وأذهب إلى قلب المدينة لأجلب نساءً يصلحن لهذا العمل..

وهزّت الرئيسة رأسها وقالت:

– إذهبى وحاولى أن تتخيرى نساءً يصلحن للعمل الوطنى..

- ومن أدراك أن الغانيات لايصلحن لذلك العمل ؟!.. إن كثيراً من الغانيات فى هذه الدنيا أصبحن بطلات فى عيون شعوبهن.. وتزوجن رجالا جعلن منهم زعماء لبلاد كثيرة من هذا العالم الغريب..

- أنا لا أعرف أمثلة لذلك.. وهل يصبح الزعيم زوجاً لإمرأة كانت غانيـــــة ؟..

- إن الغانيات يرفعن الرجال ويصنعن رجالاً عاديين ويحولنهم إلى رجال أفذاذ..

- هذا رأيك.. من أين أتيت بهذه العبقرية ؟..

- إنها عبقرية هذا العالم.. هذا العالم مجنون ولانعرف من الذى جعله مجنوناً..

- إذهبى ياكارول وكفى.. نفذى خطتك وسأوفر لك ما أقدر عليه..

وكان قائد الحرب يبذل نشاطاً كبيراً كل يوم فى المرور على وحداته المنتشرة فى البلدة.. إنه الضابط المنتصر الهمام وليد الاتفاقيات القذرة.. يتقدمه جنديان ويحمى ظهره ثلاثة أخرون شاهرين سلاحهم فى وجه عُزَّل عرايا لا يستطيع الواحد منهم قتل عصفور.. ومن أدراك أن هذا عمل بطولى ؟!.. كل هذه الأعمال الحقيرة بطولة صنعها مرتزقة.. وعلى الناس جميعاً أن يخافوا ويهرعوا وكل منهم يرفع شعاراً: دارينى ياحيط.. أنا عايز رزقى ورزق ولادى.. وينحنى وينحنى.. كل الناس تنحنى.. تنحنى لفئة وضيعة.. ولا تنحنى لله.. وكان هذا الضابط البطل يذهب إلى معتقل المدينة ليخيف المسجونين.. يبصق فى وجوههم ويتوعدهم.. ويصل إلى ذروة سعادته حين تطوى مركبته الشوارع مسرعة ويرى الشعب العارى ينحنى حتى تقترب رؤوسهم وأكتافهم من عجلات سيارته.. وكان يبتسم ساخراً ويسمعه سائق عربته الجيب يقول دائماً عندما يرى الناس تقوم له سجداً.. ياجوعانين ياولاد الكلب.. ياكلاب.. وكان السائق يهز رأسه مندهشاً.. يقول فى سرٍّ نفسه لاعنا أحوال الدنيا فى مرارة.. آه لو يعرف هذا الشعب أن

أباك كان يعمل قواداً فى ملاهى طراقيش.. إن هؤلاء الآباء لايستطيعون أن يلدوا إلا مرتزقاً مثلك..

ومرت الأيام والطعام الذى يذهب إلى القصر يتناقص فيجوع الناس.. ويذهب كثير منهم إلى الغابات ليصطادوا ثعلباً أو ذئباً ليأكلوه.. ولم يكن فى الغابة طائر غير عدد من الأغربة والبوم،، وكان صعباً اصطيادها لأنها تقف على قمم الشجر.. وأقامت بعض الأسر فى الغابات المنتشرة عند مداخل المدينة وحولها حيث تكثر جحور الفئران والقنافذ.. وكان الأطفال والنساء يقومون باصطيادها بواسطة نبال ثم يذبحونها ويقومون بشيها على حطب الغابة الجاف.. وكلما إصطادت أسرة فأراً كبيراً أو قنفداً كان ذلك جديراً بأن يسعدوا سعادة بالغة فيلتفوا حول النار الموقدة ليلتهموه بالخبز المقدد الذى يجمعونه من أجولة الزبالة عند معسكرات الجيش الغازى..

ولما كانت كارولين قد ذهبت إلى الفنادق والملاهى لتبحث عن إمرأة جميلة تقوم بالمهمة وتقيم معها فى مبنى المدينة.. فلم تجد واحدة تصلح لهذا العمل.. وعادت بعد أن أبلغها صاحب فندق السلام أن هناك إمرأة تدعى سندس تصلح لهذا العمل ولكنه لم يرها منذ فترة.. وتذكرتها كارولين وناشدته أن يخبرها عندما تظهر سندس للأهمية البالغة..

ومضت أيام لم يكن الطعام، أى طعام، يصل إلى القصر القديم.. حتى أن السيدة الكبيرة فى يوم أبلغت الرئيسة والمحافظ بأنه لايوجد لقمة خبز أو صحن من المرق فى القصر، وأنهم ناموا جميعاً بالأمس دون عشاء.. واستطاع المحافظ أن يحصل على بعض الطعام من مخزن العسكر حتى يرسله إلى بيته.. وفى اليوم التالى أرسلت الرئيسة إلى أمها ورقة تشرح فيها كيفية الوصول إلى المخزن الكبير والذى يقع فى بدروم مبنى المدينة.. وقالت فى مؤخرة شرحها.. ماذا يفعل سلامة ؟.. عليه أن يتحرك وأن يعد لاقتحام هذا المخزن فى وقت لايتجاوز يوماً واحداً، وعليه فقط بعد أن يعد لهذه المهمة أن يبلغها بساعة وصوله

هو وجماعته حتى تستطيع هى أن تقضى على الحرس الذى يحرس مخزن الطعام.. ونادته السيدة الكبيرة فور انتهائها من الرسالة الهامة قائلة له:

– لقد بلغ الأمر مداه.. وصل بنا الأمر نحن أهل السلطة أن نجوع وغداً نتعرى.. هل يرضيك هذا ؟.. وناولته الورقة ليقرأها.. وجلس حتى قرأها وارتعشت يداه وقال فى حماس:

– ومن قال لك أنى سأظل ساكناً.. هذه إشارة من الرئيسة.. كان ينقصنى الدليل على أن أفعل شيئاً..

– ياسلامة فى خلال يوم واحد.. لقد سمعت أن الناس قد بدأت تذبح الخيول لتأكلها حتى أنه لم يعد هناك خيول ضالة فى المدينة وماحولها.. والدور سيأتى على خيولنا التى نحتفظ بها كأنسب وسيلة مواصلات فى وقت الحرب، عندما يهجم الناس على القصر ليأخذوا تلك الخيول والله سأدعهم يفعلون.. ولكن بالله عليك أيجب أن ننتظر حتى يأتى هذا اليوم ؟..

– لا ياسيدتى.. إنى ذاهب الآن لأدبر الأمر..

– لاتعد إلى هذا القصر إلا وقد عقلت كل شئ..

وامتطى فرساً وخرج من الباب الخلفى للقصر.. وصهل الفرس بقوة فقال لـــه:

– حتى أنت قد عقدت العزم.. لن أكون أقل منك قوة أيها الفرس..

وانضم إليه برهوم يرافقه إلى قلب البلدة.. يجرى خلفه ممسكاً بذيل الفرس.. وقصَّ العبد على سيده حكاية اللص الشريف قائلا وهو يلهث:

– إلى أين تذهب ياسيدى ؟..

– عجبت منك يابرهوم تتبعنى ولا تعرف مقصدى..

– سمعت مادار بينك وبين سيدتى ولذلك رافقتك.. ولكنى لا أعرف أين ستذهب..

– أذهب إلى جماعة فدائية تستطيع أن تقتحم مخزن الطعام فى مبنى

المدينة..

– ياسيدى أنت لست فى حاجة إلى أية جماعة.. هناك لص شريف ظهر فى أيام الحرب يُدعى محمد كمال.. استطاع هو ومن معه فتح كل أبواب مخازن القصور المغلقة ونهبوا كل مافيها..

– أهو متخصص فى فتح الأقفال..

– لديه حقيبة مملوءة بالمفاتيح ويستطيع فى ثوان فتح الأبواب المغلقة فى هدوء ودون كسرها..

– أنا فى حاجة إليه هو وجماعته..

– ولماذا جماعته ياسيدى..

– حتى يحملوا الطعام إلى العربات..

– نحن سنسرق مخزن المدينة إذاً..

– ألم تقل إنه لص شريف ..

– يقولون عنه ذلك فى كل البلاد.. لولاه لمات كثير من الناس جوعاً..

– وماذا كان يعمل قبل الحرب ؟..

– مدرساً للدين فى القصور..

– واندهش كيف قلبت الحرب رجل دين إلى لص، وذهبا إليه فى داره واتفقا على دخول المبنى فى الثانية مساءً حتى يكون الحرس قد غافلهم النوم.. ولكن سلامة طمأنه قائلا:

– إننا سنفعل الكثير حتى يكون هؤلاء الحرس كالموتى..

– أنا مهمتى أن أفتح الأبواب وجماعتى ستنقل كل مافى المخازن إلى العربات..

– وكم تريد يامحمد ؟..

– أريد أن يصل الطعام إلى كل الناس.. وسكت قليلاً ثم طفق قائلاً:

– نصيبى من الطعام والشراب كأى واحد فى البلدة.. إنه عمل عظيم

ياسيدىَ لكل من يساعد فى إطعام الجائعين والعرايا..

ولما عادا إلى القصر كان الليل قد أسدل خيوطه.. وكان اللص الشريف يجتمع بجماعته ليدرسوا على الورق الذى تركه سلامة كيفية الدخول واختراق الأبواب وحمل المؤن إلى المركبات..

وكان المبنى هذه الليلة يعج بالزائرين من ضباط الوحدات المنتشرة فى المدينة، وكان القائد قد طلبهم جميعاً فى أمر هام.. تلألأت أنواره وانبعثت الحركة حول كل باب ونافذة.. وكانت كارولين من قبل قد أقامت علاقات حميمة مع نائب القائد المسئول عن الأمن العام، وجلبت زجاجات من خمر معتق، وأخذت واحدة منها وذهبت إليه فى غرفته تطارحه الغرام.. إنها أنثى المدينة الجائعة والتى لابد لها أن تطوى فى يدها من يحرس الطعام، حتى يستطيع اللص الشريف أن ينقل كل مافى المخازن هو وجماعته إلى أسطول العربات الذى جهزه محافظ المدينة..

وأثر إجهاد النهار على الضباط والجنود فغطت كثرتهم فى نوم عميق لايحسون بما حولهم، واستطاعت كارول أن تحصل دون أن يدرى القائد على قائمة الحراسة فى المبنى هذه الليلة.. ثم استأذنته فى أن تذهب إلى تغيير ملابسها بعد أن زودته بكثير من سحرها وخمرها. ذهبت إليهم جميعاً تسقيهم خمراً معتقةً أذابت فيه حبوباً منومة بعد أن استشارات طبيب المدينة فى كيفية تجهيزها.. سقتهم حتى بلغوا الثمالة، وانقلبوا فوق أسرتهم ومقاعدهم.. وكانت تستطيع أن تأخذ كل بنادقهم وملابسهم وتتركهم عرايا.. ذهبت إلى الرئيسة لتبلغها بكل شئ واستبدلت ملابسها وانقلبت إلى قائد الأمن العام.. ومعها زجاجة أخرى من نفس الخمر.. وقامت الرئيسة بإبلاغ السيدة الكبيرة، والتى أبلغت سلامة بكل شئ خاصة ساعة البدء والتى يجب أن تكون بعد الثانية والنصف وقبل الثالثة.. ولما كانت الساعة تقترب من الواحدة كان سلامة وبرهوم يمتطيان صهوة جوادين، ويقصدان دار اللص الشريف.. وهناك تم إعداد كل الأمور وتنسيقها معه.. ثم ذهبا إلى شركة المحافظ القديمة ليجدا سائقى عربات

انتقل فى انتظارهما.. وأخذ سلامة يشرح لهم على الأوراق كيفية دخول عربة بعد الأخرى فى مدار المبنى وعند الباب الخلفى وألاَّ تدخل عربة إلا بعد أن تنتهى المركبة التى دخلت من مهمتها وتأخذ طريقها.. ثم عاد سلامة وبرهوم مرَّة أخرى إلى اللص وجماعته ليخبراهم بأن أول عربة ستكون جاهزة عند الباب الخلفى للمخزن قبل الثالثة.. واطمأن اللص من سلامة بأن أهل المبنى وخاصة الحرس قد انقلبوا فى نوم عميق.. لأنه لايستطيع أن يدخل فى مصارعة مع أحد وأن مهمته فنية تقتصر على فتح الأبواب بالمفاتيح والجماعة التى تصحبه تحمل الصناديق والأجولة إلى سيارات النقل فليس بينهم محارب واحد وبادر سلامة قائلا:

– ألا يجب أن تكون هناك جماعة للمنازلة إذا حدث شئ ؟..

– هذا الأمر سأدبره مع جماعة من المدينة لها خبرة فى تأمين مثل هذه العمليات..

– أين ستتجه العربات بعد تحميلها ؟..

– إلى قصر قديم من قصور الخالدى به مخزن كبيَر تحت الأرض وهناك جماعة تقوم بإعداده منذ الصباح..

وانصرف سلامة وبرهوم إلى دار ثروت المناديلى ليجدا هناك جماعة النزال والمصارعة المكونة من خمسة شجعان تدربوا على المصارعة والأعمال الفدائية.. وجداهم ملثمين يرتدى كل منهم حذاءً كبيراً لامعاً استطاع أحدهم الحصول عليها من معسكر الأعداء الذى يحرس مرفق مياه البلدة.. وشهر كل منهم خنجره تجاه زميله فى حركة رشيقة يفهم منها سلامة أنهم قد استعدوا تماماً لعملهم الكبير.. والغريب أن يرى جماعة تستعد لعمل مثل هذا ويشربون شاياً ثقيلاً كأنه دجاجة قدمت لكل منهم فى طبق ومعه طبق آخر مملوء بالحساء.. وقال سلامة لثروت المناديلى:

– تشربون الشاى وكأنه كوب من عصير المانجو..

– لابد ياسيدى حتى تعمر رؤوسنا وتنتبه وسندخن الشيشة أيضاً..

والتفت ثروت إلى الداخل منادياً:

– تعال يا غنيمة..

وجاء صوتها من الداخل ناعماً فى دلال:

– هل أجلب النار معى ؟..

– وهات الشيشة مع النار لقد حان الوقت..

وخرجت المرأة إليهم تحمل فى يد قصعة النار وبالأخرى تحمل الشيشة.. كانت المرأة عارية الساقين سافرة إلى حد كبير.. لم تخجل أو تتوارى.. لكنها قالت وهى تضع مابيديها أمام عشاقها:

– والآن جاء دوركما.. وأشارت إلى سلامة وبرهوم بيدها..

وتقدم إليها عادل خطاب ونهرها وخبطها على ظهرها وهو يصرخ:

– عودى ياقحبة إلى الداخل.. إنه رئيس المدينة..

فهرولت إلى داخل البيت قائلة.. يالهوى.. يالهوى.. هو فيه رئيس للمدينـــة ؟..

فهز سلامة رأسه وظهر الخجل جليا على وجه أفراد الجماعة وقال فى هلع وخوف:

– وهل يبارك فى عمل أوله زنا ؟..

وتقدم سيد أبو عاطف نحوه قائلاً:

– لا ياسيدى إننا لم نزن الليلة.. لقد أحضرها عادل لتطبخ لنا وتخدمنا هذه الليلة فقط.. إننا لم نرها من قبل وسوف أصرفها الآن.. إننا أتينا بها أيضاً لكى ترقص.. لقد أشبعتنا رقصاً منذ أول المساء.. نحن فى محاولة لتجديد دمنا قبل عملية الليلة ولا تشغل بالك.. إذهب واطمئن.. نحن نعرف ماذا سنفعل.. إن هذه أحوالنا.. إن الفقراء دائماً فى كل بلد يتردون كما يتردى الأغنياء.. ودائرة التردى لفقراء هذه المدينة.. الشيشة والنساء.. عندما نشبع ياسيدى قد تتغير

أحوالنا.. نحن مصرون الليلة على ضرب هذا التردى..

ومد سيد أبو عاطف يده إلى سلامة مصافحاً..

– إذهب ياسيدى واطمئن.. دقائق ونذهب إلى مكاننا لتأمين الجماعة..

وانصرف سلامة وبرهوم وكل منهما يشك فى أن هذه الجماعة تقوم بأعمال بطولية.. وانطلقت الجياد صارخة.. ثم غاب اللص الشريف وجماعته فى دهاليز مؤدية إلى الباب الخلفى والتف رجاله حوله يرون ماذا يفعل بمفاتيحه.. والتفت جماعة سيد أبو عاطف حول المبنى يحمل كل منهم بندقيته ومطواه فى سيالة جلبابه وعصا غليظة فى يده.. وحاول اللص مرة ومرتين وستت لحظات أخرى بعدها فتح القفل الكبير، وتبعوه إلى داخل المخزن المكتظ بالطعام.. كانوا جائعين فلم يستطع أن يمنعهم زعيمهم عن التهام كل مالذ وطاب من الطعام ودخلت أول عربة نقل.. كانوا يحملون أجولة الدقيق وأكياس الدجاج وعلب الجبن والفول والصلصة فى كراتين إلى المركبة التى ابتعلت كل مايخطر على بال من المؤن حتى امتلأت، ودخلت أخرى لتشحن كالأولى.. ثم وصلت المركبة الأولى كرة ثانية لتحمل كل ماتبقى من الطعام.. وأجهزوا على كل مافى المخزن من مؤن، فلم يعد فيه إلا غذاء يكفى ليومين آخرين يصبح بعدهما هؤلاء الجنود جوعى أذلا كما كان أهل المدينة، وكان سلامة وبرهوم يتبعان كل عربة حتى تأخذ طريقها إلى القصر، وهناك كان كثير من الناس قد انخرطوا فى تفريغ الطعام من المركبات إلى داخل مخزن القصر الذى يقع تحت الأرض.. ولما عاد سلامة وزميله لمرافقة المركبة الأخيرة وجدا صياحاً عالياً سرعان ماخبا لما توجها نحوه.. كان عبدالرحمن منزلة يمسك بمديتة ويقوم من فوق جثة جندى أجهز عليه لتوه.. ونزل سلامة إليه قائلا:

– ياإلهى لقد قتلته ياعبد الرحمن..

– وماذا تريدنى أن أفعل ؟.. ألا يستحق الموت ؟.. أخير أن يموت واحد من هؤلاء السفلة أم يموت الآلاف من أهل المدينة ؟..

- لابد من حمله الآن ودفنه هناك فى بطن الجبل..

وجرى برهوم ليأتى بجوال كبير.. أدخلوا فيه الجثة وحمله فوق جواده وقزع الفرس مسرعاً نحو أقرب جبل..

وقفل الباب وأطفئت المصابيح وعاد المخزن كما كان مقفلاً لكنه خاو، وركب اللص الشريف وجماعته وجماعة ثروت المناديلى إلى مخزن القصر.. وهناك أكلوا من كل أنواع الطعام وكأنهم لم يأكلوا من شهر مضى.. وأمر سلامة بتحميل عربة صغيرة من الطعام والذهاب بها إلى دار ثروت المناديلى وأوصاهم جميعاً بتوزيعها على الناس فى عدالة وسرية حتى يرى فى الصباح آثار تلك السطوة الكبيرة على القائد وجنوده وعلى ضوئها يصرف الطعام.. وقام برهوم بربط جوالين بعد أن ملأهما بكل أنواع المؤن، وحملهما على ظهر فرسه وانطوى مسرعاً نحو قصر السيدة الكبيرة.. واتخذ سلامة طريقاً آخر، حيث ركض بفرسه إلى مبنى المدينة، وهناك جال بناظريه يتفرس الأبواب والنوافذ، فلم يجد إلا سكوناً وصمتاً يلف المبنى ويشمله.. ورئيسة المدينة ووصيفتها ينظران إليه فى بهجة بالغة وينظرون جميعاً إلى المدينة كلها ليروا أى أثر على وجهها بعد السطو الكبير.. وكان ضوء النهار قد انجلى فانقلب إلى القصر.. وهناك كان أهل القصر جميعاً ينتظرونه..

وأخذت كارول تحتضن نيروز بقوة، وكانت رئيسة المدينة سعيدة سعادة لاتوصف فقالت لوصيفتها وهما يتمشيان فى الجناح:

- ماذا يجب علىَّ أن أفعله الآن ؟..
- علينا أن نظهر أننا منزعجتان للغاية..
- لمن نظهر إذا كانوا نائمين ؟..
- علينا أن نوقظهم..
- ألا يجب أن أعمل مبادرة ؟..
- أخبرينى بما تنوين عمله..

– خذى جوادك واذهبى إلى كل باب قد تجدين فيه تلك الغانية سندس..

– ولماذا الآن ؟.. إن هذه المرأة لاتظهر فى عز النهار..

– إننا فى حاجة إلى إغراء القائد الآن وبقوه.. بأسرع مانستطيع علينا أن نعمل على تكبيل يديه.. خذى الجواد وإذهبى..

وإنصرفت كارولين تبحث عن سندس فى كل مكان.. وارتدت الرئيسة بنطالاً وجاكتاً من الجلد وحذاءً طويلاً.. وبعد أن أتمت رداءها سمعت صهيل الجياد فى الاصطبل وكأنه يناديها، فتناولت مسدسها وحشته بالرصاص ثم دسته فى جيبها.. وعلى عجل هاتفت المحافظ تبلغه بأن المجاهدين انقضوا على المخازن وحملوا ماقيها وانصرفوا إلى جبالهم.. ففهم المحافظ وقال لها:

– وماذا أنت فاعلة ؟..

– سأذهب الآن لأتتبع فلولهم عسى أن أجد خيطاً يدلنا على اللصوص..

فضحك المحافظ وقال:

– إنهم جميعاً نيام تكلمى معى بصراحة.. هل انتهى سلامة وجماعته من العملية ؟..

– نعم يا أبى..

– وأين ستذهبين حقاً ؟..

– سوف أقوم بجولة فى المدينة وكأنى أبحث عن اللصوص..

– عندما تتجهين إلى المدينة سوف أرسل إليهم رسولاً بالنبأ وأوقظهم من نومهم وكأننى منزعج جداً..

– أبلغهم يا أبى بأنى ذهبت أبحث عن اللصوص..

وكان الفرس ينتهب الأرض كما تخترق الطائرة عباب السماء، وأصبحت الرئيسة فارسة بشجاعتها واقدامها، وقابلها سلامة بفرسه عند ناحية الشارع الموصل إلى مخزن الطعام وبادرته قائلة:

– أين تذهب ؟..

– إلى منفذ جبل قوت القلوب لألقى بمعلبات الكرتونة هذه..

– تلقى بها.. وهل سطونا على الطعام لتلقى به فى الجبل..

– لقد فكرت وقد وصلنى الخبر بذلك منذ قليل، أن الرئيسة والمحافظ ربما يبلغان أهل الحرب بأن المجاهدين هم الذين سطوا على المخزن.. وهربوا به إلى الجبال، سوف ألقى بمعلبات هذه الكرتونة علبة بعد أخرى فى الطريق وكأنها طابور حتى مدخل الجبل لتكون دليلاً يقودهم إلى الجبل ويضللهم عنا..

– فكرة هائلة.. اذهب بسرعة وعد إلى مخزن القصر، ولك الصلاحيات الكاملة فى توصيل الطعام إلى الناس..

وانطلق سلامة بفرسه إلى جبل قوت القلوب، وتوقفت الرئيسة لتراه من بعيد ينفذ من الشوارع الضيقة إلى الصخور المؤدية إلى الوادى.. ثم انطوت بحصانها نحو المخزن الجديد لترى جموعاً من الناس قد تجمعت أمامه، ودخلت بينهم وكادت تقع لتعلق الناس بظهر فرسها، ولم تكن تستطيع أن تبقى بينهم حتى لايوقعوا بها.. وكان خروجها من بينهم صعباً للغاية حتى جاءها برهوم ليخلصها من بين أيديهم واستغاثاتهم.. وأسرعت من بين الجموع تشد لجام جوادها لتجوب شوارع وميادين أخرى كثيرة، تلوح بيدها للشعب الذى يفاجأ بها أمامه فيزغردون ويصفقون ويجرون خلفها.. وكان عليها أن تعود لمهامها الوعرة فى مبنى الرئاسة.. وهناك وجدت جموعاً من العسكر مدججين بسلاحهم يقفون فى طوابير طويلة.. وقالت لنفسها: إلى أين هؤلاء ذاهبين ؟.. ترى لماذا كل هذه الأعداد ؟.. وتقدم منها جندى الأسطبل لما نزلت عن ظهر حصانها.. وقالت له:

– خذه وأطعمه كثيراً واسقه.. لقد تعب.. أين القائد ؟

– إنه فى غرفة العمليات ياسيدتى..

– ومن معه ؟..

– كافة الضباط..

– اذهب وأبلغه بأنى أريده..

– وجرى الجندى يسحب الفرس إلى الإصطبل وهناك أوصى ساقياً آخر بإطعامه.. وهرول إلى القائد ليبلغه بأن الرئيسة فى الخارج تقف عند جمع الجند وتريده.. فترك أمر بقية الحديث لنائبه وخرج إلى الرئيسة ليعرف حقيقة السطو الكبير.. ولما رأته قادماً تقدمت نحوه بخطى ثابتة ثم توقفا فقالت له:

– لاتغضب وتعامل أيها القائد الهمام مع الحدث بحكمة..

– وهل هناك حكمة بعد هذا الفعل المشين.. سوف أبحث عن المؤن فى كل بيت حتى لو بلغ الأمر أن أدمر كل المدينة..

– افعل ماتريد ضد اللصوص.. ولكنى كنت فى جولة بالمدينة.. ذهبت إلى هناك حتى أتبين الأمر بنفسى مع الناس ووجدت الناس جميعاً تقول إنهم المجاهدون.. لقد رأوهم بأم أعينهم.. خرجوا بطعام المخزن من منفذ قوت القلوب عند الجبل الكبير..

– وهل هناك أحد يبرهن بما لايدع مجالاً للشك أن هؤلاء المجاهدين هم الذين قاموا بهذا العمل ؟..

– لماذا لاتحاول معى أيها القائد.. بعض الوقت ؟..ونعال نذهب إلى تلك المنافذ ثم إلى كل بيت فى المدينة قد نصل إلى شئ..

– لم أكن أفكر لحظة فى المجاهدين.. حسب معلوماتنا لايوجد أحد من المجاهدين فى تلك الجبال.. ألم يرحلوا جميعاً ؟..

– هناك جيوب كثيرة مازالت باقية..

– فلنجرب الذهاب إلى تلك المنافذ..

– إلى المدينة أولاً لتتحرى..

وركبا جوادين وراحا يجوبان المدينة شارعاً بعد آخر.. وكان القائد يستوقف الناس ليسألهم عن السطو الكبير، وكانت الجموع تجرى وتهرب حين ترى القائد يتجه نحوها.. وكلما سأل أحداً قال له.. لا أعرف ياسيدى.. لانعرف

ياسيدىَ.. ولكن قليلاً قال له: إنهم المجاهدون.. لاتخرج الأعمال الغريبة إلا من هؤلاء ويشيرون نحو الجبال.. وأخذته الرئيسة إلى المنافذ منفذاً بعد آخر فلم يجدا شيئاً.. ثم ذهبت به إلى منفذ قوت القلوب ليجدا الدليل هناك.. فلم يعثرا على طابور العلب الذى ألقى به سلامة.. غير أنهما لما دخلا قليلاً فى الوادى الذى يحضن سلسلة من الجبال وجدا بعض العلب الفارغة والكراتين الصغيرة.. فنزل القائد عن ظهر فرسه.. وأخذ يمسك علبة بعد أخرى، ويقرأ ماطبع عليها.. وأمسك بعلبة واتجه نحو الرئيسة:

– هذا دليل ياسيدتى على أن هناك بعض الطعام قد دخل إلى تلك الجبال، ولكن ليس معنى هذا أن هؤلاء المجاهدين وحدهم هم الذين قاموا بذلك.. وقد لا يكون أحد منهم بالمرة قد فعلها.. مجموعة من الصبية مثلاً فتحت هذه المعلبات والتهمت مافيها ثم ألقت بها هنا..

– إننى ياسيدى معك فى كل شئ وأفكر فى كل الاتجاهات.. نجمع معلومات حتى تظهر الحقيقة..

– هذه البلدة ياسيدتى ليس فيها حقيقة واحدة..

– إنها مليئة بالحقائق..

– أنت رئيسة المدينة ويجب عليك أن تمسكى بهؤلاء اللصوص.. هؤلاء أهلك وأنت تعرفين الناس جميعاً..

وحاولت السيدة وهى تمسك بلجام فرسها أن تمسك تلابيب نفسها فقالت وقد ملأ صدرها القنوط:

– اركب ياسيدى حتى نعود.. الجند ينتظرونك.. وتأكد أننى سأبذل قصارى جهدى..

وهز القائد رأسه كأنه لايصدق كلام تلك الرئيسة وامتطى حصانه قائلاً:

– لا أستطيع أن أنتظر.. إن هذه العملية ضربة لكرامتى وإهانة لكل جندى.. فى المرة القادمة سيسرقوننا نحن بعتادنا وبنادقنا وطائراتنا..

وقالت الرئيسة بصوت خفيض وكأنها ترجوه:

– وماذا تريد ياسيدى أن تفعل ؟..

– ليس عندى غير ضرب المدينة بشراسة..

– وأنا ..

– ماذا أنت ؟..

– أليس لى رجاء عندك ؟..

– إن إهانتى وإهانة جنودى بهذا الشكل لايردها إلا الحرب الشرسة ضد هؤلا اللصوص..

– إذا كانت المدينة هى التى سرقت.. فإن جماعة من أهلها سرقت وليست كل المدينة.. علينا ياسيدى أن نمسك بهذه الجماعة..

– لست قاضياً أو ضابط تحقيقات.. إنه فى نظرى.. إذا كان اللصوص هم الجاهدين أو جماعة من المدينة فإنهم جميعاً المدينة.. وسوف أقوم.. الآن عندما أدخل مبنى المدينة سوف أدخل كل الحرس وقائده السجن ثم احاكمهم محاكمة عاجلة.. وهؤلاء الجنود الذين يقفون أمام المبنى سوف يدخلون كل بيت فى المدينة ليفتشوه.. وفى كل الأحوال ومهما كانت النتائج سنضرب المدينة فى المساء..

– هكذا ستفعل بلا رحمة !!

– إن هذا منتهى العدل عندى..

– وهل يهنأ لى عيش بعد ذلك.. أيها القائد أرجوك.. إن المدينة ستزداد بؤساً وفقراً وجوعاً.. إن هؤلاء بشر ياسيدى.. ألو كانت مدينتك ستضربها ؟.. ألو كان أهلك مثل هؤلاء ستزيدهم موتا على موتهم ؟.. ياسيدى أرجوك لو كانت مدينة من الكلاب ماكنت ستفعل هذا.. فابتسم القائد وهو يمتعض وكأنه يسخر واتجه بناظريه إليها قائلاً:

– إنها فقط مدينة من اللصوص..

– وإن سرقوا.. فإنهم فعلوا ذلك ليأكلوا.. إنهم يدفعون الظلم والموت عن أنفسهم.. إنهم ياسيدى يسرقون الذين سرقوا من قبل..

– وهل سرقنا نحن من قبل؟.. أليس هذا طعامنا ؟..

– لقد قفلتم علينا كل المنافذ وخربتم أسواقنا وقطعتم المياه والكهرباء.. ومنعتم الناس أن تذهب إلى المعامل والمصانع والحقول.. وتقول إننا نسرق.. إن المدينة كلها تدافع عن حياتها.. لقد سلبتم الحياة منا فكيف ومدينة كلها فى النفس الأخير من الحياة.. كيف لاتسرق ؟!.. إنها تسرق من سلبها الحياة..

– إننا لم نسلب من أحد حياته.. نحن ننفذ تعليمات دول وأنظمة ورؤساء..

– إن جيوش العالم ياسيدى وجدت حتى تدافع عن حقوق أوطانها.. ولم توجد حتى تسلب حياة الآخرين.. وإذا كانت هذه جيوشهم فعلى الدنيا السلام.. صدقنى ياسيدى إن العالم بهذا الحال رجل يزنى فى نفسه.. أيوجد رجل بهذه الشاكلة.. أنا أقول لك ياسيدى إن هذا الرجل هو هذا العالم الآن.. اذهب ياسيدى وافعل ماشئت فإن لمدينتى رب لايغفل.. واندهش القائد لحديثها الشجاع.. واقترب من جنوده آمراً وناهياً وصارخاً ولما رأته أمامها كالمجنون وأنه سيضرب المدينة لامحالة.. انقلبت رئيسة المدينة بجوادها مسرعة إلى هؤلاء الذين سيموتون مرة أخرى.. وهناك وأمام مخزن الطعام الجديد.. وجدت أهلها جميعاً عرايا ويموتون من الجوع وسلامة وبرهوم واللص الشريف، وكل الناس الشرفاء يخافون من توزيع الطعام ولايعرفون كيف يقومون بهذا العمل الكبير دون أن يراهم جندى يشى بهم.. لكن الرئيسة لما وجدت هذا الحال المخزى.. اعتلت بفرسها مكاناً عالياً وقالت وهى ترفع وجهها إلى السماء:

– أيها الناس مابعد الروح روح.. ومابعد الموت موت آخر.. هاتوا الناس جميعاً هنا.. اصطفوا فى صفوف حتى نوزع عليكم الطعام.. ونادوا المدينة كلها من ديارها.. وصرخ الناس.. وضربوا بعضهم بعضاً حتى وقفوا فى صفوف

طويلة.. وفتحت أبواب المخزن الكبير وقام سلامة وبرهوم واللص الشريف بتوزيع الطعام على الذين سيموتون فى المساء.. وكان الناس يبكون وهم يهتفون.. يحيا العدل.. تحيا رئيسة المدينة.. وكانوا ينصرفون إلى بيوتهم وهم آمنون.. إنهم الليلة سيشبعون ثم ينامون.. إنهم لايعرفون أنهم ربما يموتون..

وأرسلت الرئيسة العبد مخروج إلى السيدة الكبيرة ليبلغها بأن الغزاة سيضربون المدينة قبل الغروب.. وفى دقائق كانت السيدة تركب جوادها القديم ورافقتها ريما بفرس أعرج.. ودخلتا كل بيت وطرقتا كل باب.. وكانت السيدة الفاضلة تقول لكل من قابلها أو فتح لها باب أو نافذة:

– لاتخرجوا من بيوتكم.. لاتذهبوا إلى الأسواق.. ناموا فى الدور الأرضى .. لاتصعدوا إلى الأسطح..

وكان الناس يبكون على حالهم.. إن فرحتهم بالطعام والدجاج والخبز لم تتم.. إنهم سيضربونهم لأنهم شبعوا.. فإذا جاعوا وتعروا تركوهم فى سلام.. إذا شبعوا ضربوهم بالقنابل.. فأين يذهب مثل هؤلاء.. واختلط حب الناس للسيدة الكبيرة وأهلها.. اختلط مع الخوف فأخرج إنساناً متهالكاً.. وكان ظهور السيدة معهم فى محنتهم وعطفها عليهم، يبرز أمل أن هناك بقية من الحياة مازالت معلقة بين السماء والأرض.. غير أن السيدة وربما قد لاقتا رفضاً تاماً من النساء اللائى يفتحن بيوتهن للجند الغزاة وطلعت رباب شهيرة هؤلاء النسوة من بابها قائلة بلا خجل:

– لقد أصبحنا سادة ولم نعد خدماً.. إن هذه الحرب جعلتنا أحراراً..

واندهشت السيدة من صياحها وساقت فرسها بالقرب منها وقالت لها:

– ليس فى الزنا سيادة.. وربما يكون فى زناك طعام ونقود وأحذية جديدة..

وغنجت رباب فى سفالة:

– أنت تريدين أن نظل خدماً لك.. إن هذه فرصتنا للإستقلال..

وضربتها السيدة بكرباج فى يدها.. فاندفعت إليها وجرتها من فوق ظهر جوادها إلى الأرض، وتجمعت النساء من الدار وانهلن على السيدة ضرباً مبرحاً.. ولم تكن ريما وحدها تستطيع تخليص أمها فأسرعت بفرسها الأعرج إلى دار أبو عاطف القريبة لتخلص أمها من أيدى الزانيات.. واستطاع الرجل بعصاه الغليظة تخليصها وتضرجت رأس السيدة بالدماء.. ووقع كثير من النسوة على الأرض والدماء تسيل من رؤوسهن وأنوفهن.. وربط الرجل رأس السيدة بشال يلفه فوق رأسه، وحملها إلى ظهر الفرس، وظل ممسكاً بها وبلجام فرسها يقوده على مهل، حتى وصلوا إلى القصر وهناك استدعى طبيب المدينة الذى قام باسعاف السيدة..

وعلمت رئيسة المدينة وهى توزع الطعام بخبر الإعتداء على أمها، وكذلك علم المحافظ، وكان العزاء أنهن قلة من نساء المدينة العاهرات.. ولم تكن تستطيع أن تذهب إلى أمها.. حيث اقتربت ساعة ضرب المدينة.. وربما يكون فى عودتها أى أمل فى إنقاذ شئ.. فعادت مسرعة إلى مبنى المدينة يحدوها كثير من الآمال.. ولما بدأت الشمس تنزل فى الأفق البعيد.. صعدت الطائرات نحو السحاب وانتشرت فوق أرجاء المدينة، واهتزت الأرض وطرقعت سقوف المنازل، وبدأت السحب فى السماء وكأنها تنهار من قوة الصوت الذى يمرق فيها.. ولما سقطت القنابل سقط الكثيرون، وسالت الدماء فى كل مكان من الموتى والمصابين، وكان الناس يهرعون من بيوتهم ويصرخون خوفاً أن تتهدم البيوت فوقهم.. وامتلأت الشوارع بالناس الذين لايعرفون كيف يحتمون، وكانوا يحضنون بعضهم بعضاً ويصرخون ويتشنجون. وكأن وجودهم مع بعضهم يحميهم من الموت القذر الذى ينهال عليهم، وراحت نيروز فى نوبة بكاء شديدة وهى تقف فى شرفة المبنى ومعها كارولين التى قالت لها وهى تمسك بيدها:

– ألا يستحقون الموت ياسيدتى ؟.. دعينى أعمل بلا رحمة فى قتل هؤلاء القادة أولاً، ألم تخبريه بألا يضرب قلب المدينة ؟..

– لقد رجوته مراراً..

– ورفعت يدها إلى السماء قائلة:

– ياإلهى العفو.. ارحم هذه المدينة وانتقم من المعتدين..

– لقد انصرف كل جندى منهم من الشوارع حتى لايصاب بأذى.. منذ الصباح وهم يخلون أماكنهم حتى لايموت واحد منهم.. يا إلهى.. فليمت هؤلاء فقط.. أنا لا أعرف هل نحن حشرات هذا العالم ؟!.. وإذا كان هذا العالم قوياً فلماذا يضرب الضعفاء ؟!..

ولم تعد نيروز قادرة على أن تقول شيئاً.. لقد ذهبت فى نوبة هستيرية من البكاء الشديد، وأخذتها كارولين إلى الداخل وراحت تقفل الأبواب والنوافذ حتى لايسمعها أحد.. ولما أفلت الشمس كفت الطائرات وعادت إلى مطارها الذى يحضن البلدة من الجنوب، وفى الليل بدأ الناس ينقلون موتاهم فى ضوء الشموع ولمبات الكيروسين، وكانت المقابر تقع فى جبل عنز السطوحى، الذى يمتلئ بالذئاب والثعالب منذ القدم، وكان أهل الموتى حريصين على جلب كمية كبيرة من التراب والصخور فوق موتاهم حتى لاتلتهم الذئاب جثثهم..

وامتطت السيدة الكبيرة جوادها ومعها سلامة وبرهوم ليذهبوا جميعاً إلى الجبل حتى يشاركوا الناس فى دفن ذويهم وأهليهم، وكانت السيدة أكثر الناس بكاءً.. فبكى الناس جميعاً كما لم يبكوا من قبل.. ثم بدأ الناس ينصرفون إلى خيامهم وخرائبهم وسط الحطام، غير أن سلامة طلب من أهله أن يبقى قليلاً فتركوه.. وجلس على صخرة من صخور المدافن وأمسك برأس الفرس .. فرآه هزيلاً كئيباً، كأنه يشارك الجميع أحزانهم، كانت المدينة من تحته كالهيكل المتهدم، ورأى الماء فى النهر البعيد يكاد يجف كما جفت صنابير القصور والبيوت الفقيرة.. كانت الأرض حوله خالية صامتة جرداء، لاصوت لا حركة لا حياة.. وترقرقت الدموع من عينيه، وقام إلى جواده يركبه.. ولكن أين يذهب.. إنه لايدرى بشئ.. هل يذهب إلى كان ليأتى بوحدات من جيش بلدة تدافع عن تلك

المدينة الهزيلة، لكنه تذكر أن جيش بلاده قد وعى درس تجاربه المريرة وأيقن أنه لاحروب إلا من أجل كان.. ودخل المدينة هزيلاً حزيناً يكاد يسقط من فوق فرسه، وتذكر أيام كانت أمه تبكى وهو صغير ولم يكن يعرف معنى البكاء.. كان أبوه يضربها بعود الحديد، كما كان يضرب الرجال زوجاتهم فى ذلك العهد البعيد.. كان الآباء والأزواج مثل ذلك الجيش البغيض..

ولم تكن رئيسة المدينة أو وصيفتها ترجوان أملاً فى ذلك القائد الذى هدَّم البلدة بقسوة.. ولكنهما أفاقتا على جندى يطرق الباب ويقول:

– ياسيدتى إن إمرأة بالباب تريدكما..

ولما فتحت كارول وجدت المرأة التى بحثت عنها طويلاً.. إنها سندس، وفتحت لها ذراعيها وأخذتها فى أحضانها.. كانت يافعة رشيقة يرتع الجمال على وجهها، وكان فستانها يحضن أردافها وساقيها ويبرز صدرها، وأخذتها كارول من يدها فى بهجة وتقدمت بها إلى رئيسة المدينة قائلة:

– هذه رسولة السلام ياسيدتى:

وقامت الرئيسة إليها ومدت يدها لتصافحها، ولما استحسنتها شدتها إليها وقبلتها من وجنتيها، وكم كانت سندس سعيدة بلقاء كارول والرئيسة معها، ولما جلست قبالة الرئيسة كانت أكثر جمالاً.. أما كارول فكانت حائرة.. أين تجلس أو كيف.. إنها تطير من الفرح، واختارت أن تقف خلف سندس لتحييها وتقبلها بين فينة وأخرى، وألقت سندس وجهها على كفها محاولة السيطرة على مشاعر الفرحة التى اعترتها، ومدت يدها إلى كارول قائلة وكأنها ترجوها:

– اجلسى ياحبيبتى قبالة فخامة الرئيسة بجانبى.. أرجوك.. حتى نتأمل جمالها الفتان.. واتكأت الرئيسة على وسادة من ريش النعام.. ووضعت رأسها هى الأخرى على كفها، حتى تستطيع أن ترى تلك المرأة المجاملة اللطيفة إلى حد بعيد.. وهدأت كارول قليلاً ثم أمسكت سندس من كتفيها قائلة:

– أين كنت ؟.. لقد بحثت عنك فى كل ملاهى وفنادق المدينة ولم أجدك..

ووضعت ساقاً على الأخرى وقالت:

– ياسيدتى كارول.. كنت أذهب إلى تلك الأماكن وأنا صغيرة، أما الآن فأنا أعتكف فى بيتى..

– وزبائنك..

وضحكت سندس بصوت عال ثم قالت:

– لاتؤاخذينى ياسيدتى.. العفو إن كانت ضحكتى ماجنة.. وهزت رأسها.. ثم أردفت قائلة.. لقد قضت الحرب على كل شئ.. وهربت من المدينة إلى بيت قديم يملكه أحد المزارعين عند فرع النهر.. هناك وجدت ملاذى مع ذلك الرجل..

– هل تزوجتيه..

– إن هذا أول رجل تزوجنى ياكارول.. ويكفى أنى رجدت عنده الطعام والشراب والأمان الذى لايوجد عند أصحاب القصور فى المدينة..

– إذاً أنت الآن أصبحت زوجة وسوف تعودين بعد قليل إلى بيتك..

– لقد مات منذ أسبوع..

– من الذى مات..

– زوجى..

– يالها من فاجعة..

– وأى فاجعة.. لقد مات موتة ربه.. سكتة قلبية..

وقامت الرئيسة إليها وقبلتها من جبهتها وقالت لها:

– لاتحزنى ياسندس.. أترضين أن تكونى أختاً ثالثة لنا وتعيشين معنا..

وقامت سندس من جلستها واندهشت من كلام الرئيسة وقالت وهى تحاول أن تتبين سر هذه الدعوة:

– ولماذا أنا ياسيدتى ؟ هل هنا ؟

واتجهت السيدة نحو الباب ثم عادت إليها قائلة:

- لاتنقضى دولة إلا على يد ناس آخرين يقيمون دولة أخرى، والنساء فى مدينتى قُدِّر لهن أن يكن هؤلاء الناس..

وكانت سندس نصف مندهشة فهى لاتفهم فى السياسة وقالت وهى ترفع ناظريها نحو كارول:

- ولكنى ياسيدتى لا أعرف فى دنياى غير الفنادق الكبرى والملاهى..

- هذه الأماكن نصف السياسة بل وقاعدة السياسة فى بلادى.. فبدلاً من أن تذهبى إلى تلك الفنادق سنقيم لك هنا فندقاً، ونأتى لك برجال يعملون فى السياسة..

- إننى.. وتلعثمت قليلاً.. كيف أكلمهم فى السياسة وأنا أجهل معنى الوطنية.. أو أى معنى آخر فما هى الاشتراكية ؟ أو الرأسمالية ؟ لا أعرف.. ولكن قد أفهم معانى أخرى كالحرية والأمن من وجهة نظرى وخاصة بعد أن جاءتنا تلك الحرب..

- إن دورنا نحن النساء جميعاً أن نفصح عن مواهبنا الأنثوية أمام هؤلاء القادة الذين يسكنون حولنا وفوقنا وتحتنا فى هذا الفندق.. أليس هذا المبنى شبيهاً بالفنادق.. ينقصه أن نقيم فيه ملهى..

- ومن سيرقص ياسيدتى..

- أنت وكارول وأنا.. هل فى هذا عيب.. إذا كان الخلاص من هؤلاء الغزاة هو التضحية بثلاثة نساء ليعمر السلام فى البلدة.. فإن هذا الثمن رخيص جداً..

- ولكن فى البلدة نساءً كثيرات فلماذا لانأتى بهن جميعاً..

- وهل تعتبرين النساء الفقيرات نساءً.. إننا نريد نساءً مؤهلات لديهن إمكانيات.. إن إمرأة واحدة تكفى.. إمرأة واحدة مثل سندس تكفى للقضاء على دولة وإقامة دولة أخرى..

- هذا مقامى عندك ياسيدتى..

وقالت كارول:

– ياسندس بمقدار جمالك يكون مقامك.. ونحمد رب السماء أن فى بلادنا إمرأة مثلك..

– سنقيم لك ملهى فى قلب هذا المبنى..

وتدخلت كارول حتى تستوعب سندس ماتعنيه الرئيسة:

– يعنى سيكون لك هنا كل مقومات الملهى من إمكانيات، وسنأتى بواحد منهم بعد الآخر حتى تصبح كل هذه الطائرات والدبابات تحت أمر ثلاث نساء.. وسوف نملى عليك من السياسة ماهو قادر على قلب كل ماهو قائم..

وأكملت الرئيسة:

– إذا نجحت كإمرأة فلست فى حاجة إلى أية سياسة..

– والدين ياسيدتى..

– الدين دائماً فوق كل الأفعال التى تحدث فى الأرض.. وأين الدين ياسندس من قبل ؟.. ألم تذهبى إلى كل الملاهى وتلتقى بالرجال ؟..

– كان الدين دائماً فى ذاكرتى وكانت كل أعمالى متدنية لا أستطيع تطبيق الدين فيها..

– لو كنت شيخة أو راهبة ما أرسلنا فى طلبك..

– أنا غانية إذاً ياسيدتى..

– نعرف أنك راقصة وجميلة، وهذه هى المرأة التى نحتاج إليها..

– وسوف تنقضى دولة على جسدى ثم تقام دولة أخرى لا أضمن فيها أى مكان لى..

– أيكفى أن نقيم لك ملهى..

وخلعت سندس حذاءها وسحبت جواربها ثم شدت تنورتها.. وألقت بهما فوق المقعد وقالت فى دلال ودعة:

– هل لى أن أذهب إلى غرفتى ؟..

فضحكت الرئيسة وكارول بصوت عال، وأشارت كارول بيدها نحو الداخل قائلة:

– الغرفة الأخيرة فى الجناح.. إذهبى إليها لترى كل شئ..

ولما دخلت الغرفة استلقت فى فراشها ثم احتضنته، وأخذت تفكر فيما قيل لها.. وشعرت بدفء غريب يتسلل إلى جسدها.. وأخذت الرئيسة تكلم كارول عما يجب أن تفعله سندس ولما انتهيا من حديثهما، ذهبت كارول إلى سندس فوجدتها امرأة جميلة حقاً.. كانت ساقاها مغريتين إلى حد كبير، وألقت كارول بنفسها فى أحضان سندس وشدت الغطاء فوقهما..

ومرت الأيام تأكل المدينة فيها من الطعام الذى جلبه اللص الشريف، وبدأت تظهر فى البلدة أسواق تباع فيها السلع الرديئة بأسعار عالية، وكان الأشقياء فى البلدة يقتلون الجنود الذين يحرسون بعض المنافذ، ويتسللون إلى الحدود ليجلبوا هذه السلع، والناس تذهب إلى تلك الأسواق ليسرقوها أو ينهبوها أو يشتروها بنقود سلبوها من القصور المهجورة، وفى يوم اجتمعت السيدة بأهل قصرها وقالت لهم:

– أبلغنى المحافظ منذ أيام بأنه سيفتح الحدود من طريق الزينى أبو شاطية، وهو طريق لايعرفه الغزاة ولايوجد به حرس..

فابتهج الجميع وقالت ريما مبتهجة:

– التجارة ستعود والأسواق ستمتلئ بالبضائع.. أتمنى أن يحدث ذلك بسرعة خاصة وأن الطعام الذى استولينا عليه قد بدأ ينفد، وأخاف من الناس وهم يلتفون حول قصرنا..

– كل شئ سيعود ولكن فى خفية.. المشكلة كيف تجمى تدفق السلع إلى المدينة حتى يستمر هذا الخيط دون تصادم مع الجنود..

– وهل أستطيع أن أفتح شركتى مرة أخرى ياسيدتى ؟..

– آه ياسلامة.. فليشبع الناس أولاً من الطعام والشراب، ثم يفتح كل

صاحب عمل شركته.. وفرح محمد الصغير وقفز من حجر جدته ليمسك بذراع أبيه قائلاً:

– أريد أن أركب فرساً مثلك يا أبى..

فقال سلامة وهو يحتضنه بقوة:

– ستركب معى فرسى حتى تعرف كيف تمتطى الجياد، بعدها سنأتى لك بحصان أصيل.. وكان بعض الناس قد فرغ بيتهم من الطعام فيذهبون إلى القصر ليحصلوا على قوت يومهم، كان القصر بسيطاً لم تكن له فخامة، وكان مجرداً من أسباب البذخ والترف، مما جعل أهل القصر جميعاً يعملون وهم يشعرون أنه بيت قريب من بيوت المدينة.. وكأنهم يعيشون فى مكان بين القصور والحى الفقير، وبدأ أهل القصر جميعاً ينطبعون على الرحمة والإحسان، وأصبحت قلوب أهل البلدة جميعها ملك أيديهم.. حتى أصبح الناس يحبون الطريق إلى هذا البيت الكبير، ويعشقون تقبيل أسواره، كانوا يمسكون بالهواء المحيط بالقصر معتقدين أنهم فى ذلك يصافحون سيدتهم، ومرت أيام أخرى فيها تسلل أشقياء إلى القصر ليسرقوا الطعام، وكان برَهوم القوى يمسك بهم ويضربهم ضرباً مبرحاً أمام الباب الكبير حتى يكونوا عبرة، وبدأت السيدة تشعر بالخوف من هؤلاء الذين يقتحمون القصر، وفى رأيها أن الجائع قد يقتل فى لحظة لكى يحصل على طعامه، وكان عليها أن تظهر برهوم فى صورة مفزعة حتى يخاف الناس، ولما اختمرت الفكرة فى رأسها نادت على ريما وقالت لها:

– لماذا لايكون برهوم رعبا للمدينة كلها حتى يخاف الناس من اقتحام القصر.. إنه عبد قوى..

– إنه ليس عبداً يا أمى.. لأنه زوجى..

– أنسى دائماً أنه زوجك، ولن أنسى أبداً أنه عبد، كل صفاته تقول أنه عبد أصيل، ورغم أننى أحب الناس جميعاً وأدفع الظلم عنهم.. فإننى أتمنى من الله ألا تحملى من هذا العبد.. إنه زوجك من قلة الرجال..

ولم تكن ريما سعيدة برأى أمها، غير أنها أرادت أن تدافع عن نفسها فقالت:

– إنه رجل قوى.. ولو أصبح كل الرجال السادة أزواجى.. فإنهم جميعاً لايكفونى.

– فهمت يا ابنتى.. ولكنه عندى عبد ابن عبد.. إن هناك أشياء مادامت الحياة تبقى على حالها ولاتتغير.. فليس كل رجل قوى مثل الحيوان يخرج من عبوديته، إن كل الناس أحرار. ويجب أن ندفع لهم بمزيد من الحرية.. ولكن لكل واحد من هؤلاء الناس خامة تؤهله لأن يصبح عبداً أو سيداً..

– ألم تقولى يا أمى دعونا من القضايا الصغيرة، وأن قضية المدينة أكبر من كل القضايا ؟..

– صحيح فلندع هذه الأمور، علينا أن نحرر المدينة من عبوديتها أولاً..

– وإذا كان العبيد هم الذين يحررون المدينة، فهل يكونون أحراراً بعد ذلـــك ؟..

– إنهم ليعدون على الأصابع.. وإن البلدة تمتلئ بأهلها غير هؤلاء العبيد..

– يا أمى إن العبيد ليسوا برهوم ودحروج وغيرهم.. إن أهل المدينة كلها عبيد.. إنهم الفقراء يا أمى.. وأقصد بتحرير العبيد ألا يكون هناك فقير..

وأعلنت السيدة فى هذا اليوم تعيين برهوم حارساً خاصاً للقصر، وأحضرت منادياً يدعى فرفور بدرة لينتشر الخبر فى البلدة، وحتى لايجرؤ لص على اقتحام القصر، وكان المنادى يقول:

يا أهل البلد ياناس ياهو..

برهوم بقه حارس القصر..

مافيش حرامى يروح ولا لص ينط السور..

هايموت بإيد برهوم..

يا أهل البلد برهوم حارس السور..

وكان برهوم يقوم فى الصباح فيدور حول القصر ثلاث مرات بفرسه.. ثم يضرب بقدميه بطن الحصان فيسرع به إلى أغوار المدينة، فيهلع الناس خوفاً منه إلى ديارهم وحواريهم.. وكان بعضهم يلتف حوله داعين له وراجين بأن يمنحهم مزيداً من العطايا عند القصر.. غير أن فرفور بدرة كان يتبعه ويجرى خلف فرس برهوم..

وكان يقول بصوت عال مالا يستطيع أحد تفسيره:

هوء.. هوء.. ماء زروع.. هوم بيب رئيسة خوب..

وكان الناس يضحكون ويتفاءلون به، فالصبية والأطفال يتغنون ويرددون خلفه مايقول.. غير أن نساءً فى أسمال بالية ممزقة كانوا يجرون خلفه مع الصبية ويقولون:

يادحروج خدها وروح فى القمرة والباب مفتوح..

وكانوا يقصدون بذلك السخرية من فرفور.. لكنه كان يسعد بهم ويلتفت إليهم قائلا: أنا فرفور مش دحروج..

ولم يكن فرفور من أبناء المدينة.. لقد ظهر فيها بعد الحرب.. وكان الناس جميعاً يتساءلون.. من أين هذا الرجل العبيط ؟..

وفى يوم خرجت ريما مع برهوم فى جولته بالمدينة، وتظاهرت المدينة بأسرها حول السيدة ريما.. وسارت خلفهما جموع غفيرة من الناس.. غير أن نساء البغاء خرجن من شوارعهن يبصقن ويشتمن راكبا الجياد وجماهير الناس الزاحفة خلفهما.. ولما عادا إلى القصر كانت السيدة قد علمت ماجرى، فأمرت ريما ألا تذهب معه ثانية، لأن أصحاب الحرب لن يعجبهم أى مظاهرة للحب.. إنهم يريدونها بلدة ميتة، غير أن ريما منذ أن خرجت معه هذا اليوم وهى تشعر بالغيرة نحوه، لما تتصور أن كل هؤلاء الناس تمشى خلفه وتهلل.. فأخذت تضربه كل صباح على صدره قائلة:

- لاتنسى أنك عبد.. عبدى..

فينحنى لها حتى تكاد رأسه تلامس ركبتيه..

وفى يوم عند المساء أخذته إلى النافذة بالطابق العلوى وقالت:

- انظر ماذا ترى ؟..

- المدينة والأفق البعيد..

- إنظر إلى قدمى.. ماذا ترى ؟..

- أرى مدناً وآفاقاً بعيدة جداً..

- تظل عبداً لهذه الآفاق ماحييت..

- أنا مدين لك بعمرى كله يا أمينة المدينة..

وصفعته على وجهه بقوة وقالت صارخة:

- أنا أعلى من المحافظ، وأجمل وأكبر من رئيسة المدينة.. من قال لك أنى أمينة.. أنا حاكمة كل هؤلاء ولكن الناس لا ترانى.. يجب عليك أن ترانى.. إنحنى حتى تقبل تلك الأقدام.. انحنى ياكلب..

وانحنى الكلب حتى لامست شفتاه الغليظتان قدمها وأخذ يقبلها حتى ارتعش جسدها كما لم يرتعش من قبل.. وقالت والكلمات تخرج من فيها مرتجفة:

- خذنى إلى الغرفة.. قبلنى بقوة.. احملنى إلى الفراش يابن الشرامي..

وهناك تلوّت بين ذراعيه القويتين، تلعنه بأفظع الكلمات كلما ضغط عليها بجسده.. وعلم المحافظ بأعمال المدينة وأرزاق العباد فيها، وكان يدرى بكل مايحدث بين الرئيسة والضباط ونشاط كارول وقدوم سندس، يعلم كل شئ يدور حوله، لكن كيف يدير الأمر ؟ يحاول أن يحتفظ بهدوئه حتى يقوم بعمل شئ له مردود على شعبه، فأرسل حارسه الخاص إلى رجال يطمئن إليهم فى المدينة، ذهب الحارس إلى سيد أبو عاطف وفتحى حسنى وبدورهما جمعا إليهما كلاً من ثروت المناديلى وعبدالرحمن منزلة وعادل خطاب، وذهبوا إليه فى مساء اليوم

التالى فأبلغ المحافظ الأمن بأن هؤلاء الرجال الخمسة سيساعدون إدارة المدينة فى حفظ الأمن.. وجلس إليهم المحافظ هادئاً مطمئناً إليهم وقال لهم:

– أرسلت اليكم من أجل أن نعيد إلى بلادنا ماسلب منها، بعون الله سأدخل للمدينة كل أنواع الطعام من منفذ قوت القلوب رضوان.. هل تعرفون هذا المنفذ.. عليكم أن تقضوا على نقطة الحراسة فيه، ومن ناحيتى سأبلغ القيادة بعدم أهمية الحراسة على هذا المنفذ.. وسكت قليلاً.. فقال سيد أبو عاطف:

– كنا نظن ياسيدى أنك معهم..

– أنا معهم لأنى محافظ.. ولابد أن أكون عند حسن ظن الرئاسة فى العاصمة.. لكن باطن الأمر.. سأبذل قصارى جهدى حتى الموت من أجل بلدى..

وأشار ثروت المناديلى بيده نحو المحافظ قائلا:

– المطلوب منا ياسيدى حراسة البضائع حتى تدخل المدينة..

– حتى تدخل أسواق المدينة..

– إذاً البضاعة ستباع فى أسواق..

وقال فتحى حسنى:

– إن الناس ليس معها أية نقود حتى يشتروها..

– سوف يمنح كل بيت إعانة شهرية.. سيقوم سلامة وبرهوم بتوزيعها على كل بيت..

غير أن فتحى حسنى تابع قائلاً:

– وإذا انكشف أمر تهريب البضائع ياسيدى..

– – سوف تدخل البضائع على عربات كارو تجرها الجياد والبغال والحمير.. وضعوا على أكياس وأجولة الطعام الرمل والبوص والحجارة، كأن العربات تحمل مواد البناء لإقامة البيوت.. شئ من هذا.. سوف أدع لكم حبك هذه العملية.. وعندى العربات بجيادها وبغالها فى جراج الشركة، سوف يصرف

لكم أمين المخازن هناك كل ماتحتاجونه..

وقال عبدالرحمن منزلة:

– دعنا ياسيدى ندبر العملية أولا، ثم نعود إلى سعادتكم بتفاصيل كل شئ، بعد ذلك نبدأ..

وقال المحافظ وهو يقف:

– **الموضوع ينتهى فى غضون ثلاثة أيام ثم تعودون إلى بأفكاركم**

وخططكم فى هذا الموضوع.. لقد بدأ الطعام ينفد والبلدة ليست فى حاجة لأن يضربها العسكر مرة ثانية.. إذا قام اللص الشريف.. باقتحام المخازن مرة أخرى..

وقالوا جميعاً فى صوت واحد..

– نحن سعداء ياسيدى.. والأمر أمرنا جميعاً.. وسوف نعود إليكم فى أسرع وقت ممكن..

ولما انصرفوا كان المحافظ يقلب فى الأوراق والخرائط التى أرسلتها له الرئيسة، وهى الأوراق التى استطاعت كارولين تصويرها وجلبها من مكاتب الضباط.. وأرسل المحافظ أحد أعوانه ليجلب له مترجماً من قرية تقع على الحدود..

الفصـل الثانـي

وكان يتقدم كل عربة يجرها فرس عجوز أو بغل امرأة قبيحة الملامح تشوح بذراعيها يمنة ويسرة، وتتكلم بكلمات ليس لها معنى، بغرض صرف نظر الجنود الذين يقفون من نقطة إلى أخرى.. وتزوج عادل خطاب من امرأة سوقية ترقص أمام الناس جميعاً عارية الساقين، وكانت تقف فى مقدمة العربة ترقص حتى تشغل الغزاة عما تحمله العربة، وكان عادل يقول بصوت عال وهو يضرب بغله:

– شيه.. خللى القحبة ترقص علشان البلد..

وفى يوم أوقف عربته أحد الجنود قائلاً له وهو يمسك فى خناقه:

– هل تستهزئ بى أيها الصعلوك.. ماذا تفعل بهذه الحجارة ؟..

وأخذ يرمى بالحجارة من فوق أجولة الطعام، فارتمت عليه الراقصة تضربه بيدها على وجهه قائلة:

– حتى الطوب عايز منه أيه.. يابن الدايخة..

ودفعها الجندى بكلتا يديه فوقعت على الأرض عارية أمام المارة، ونزل عادل من فوق الكارو واندفع إليه بحجر صغير وضربه على رأسه، فسال الدم بغزارة حتى وقع على الأرض، وانقض عليه عادل كالمجنون يشده تحت عجلات العربة التى أطلقها تنهش جسده وتمزقه، ومن خلفه مرقت عجلات عربة كل من فتحى حسنى وعبدالرحمن منزلة فتكسرت عظامه وأصبح الجسد قطعاً متناثرة تلطخ الأرض بالدماء، واحتار كل من سيد أبو عاطف وثروت المناديلى فى كيفية حمل الجثة المبعثرة ودفنها.. وجرى أبو عاطف ليأتى بجوال من أحد البيوت وجمع فيه أجزاء الجثة.. وحمله معه المناديلى، حتى وصلا إلى تبة رمال عالية ودفناها.. والغريب أنه لم ير جندى آخر هذه الفعلة الشنعاء.. لكن الناس رأوها أمام أعينهم، وانتشر الخبر بين أهل البلدة جميعاً، فتشجعوا وهرولوا إلى المنفذ يحملون الطعام على عجلاتهم وأكتافهم وحميرهم إلى السوق.. وبعد أيام علم

الغزاة بمقتل الجندى وأخذ القائد يفكر كيف ينتقم ؟ وقدم المحافظ إلى القيادة تقريراً يفيد بأن الجندى حاول الاعتداء على المرأة فقتله زوجها.. لكن من هى المرأة ومن هو الزوج لايعرف ؟ وكانت رئيسة المدينة تتابع تلك الأعمال الكبيرة، وشاهدت أهلها خلية نحل حتى امتلأت الأسواق بكل أنواع الطعام، وقامت هى بنفسها تشرف على توزيع الإعانات الشهرية لكل بيت، وكما جلب الناس الطعام، جلبوا معهم الرمال والحجارة ليقيموا بيوتاً لهم.. وقدم إلى المدينة كثير من البنائين فى القرى المجاورة وحتى البعيدة.. حتى يعملوا ويجدوا الطعام الوفير الذى إنهال على البلدة وملأ أسواقها وحوانيتها، وكان سلامة يذهب فى الليل ومعه برهوم ليحضروا الطعام من المنفذ إلى الأسواق والتجار، وفى بعض الجولات كان يأخذ ابنه الصغير.. ورغم توافر الخيرات فى المدينة، علم من الناس أن امرأة اسمها رباب تدير شارعاً بأكمله لبيع الهوى للجنود وأهل المدينة وكل من يدفع..

ولما كان يفكر فى دور أكبر، أرسل إلى رباب مندوبا يتفاهم معها فى إمكانية قفل هذا الشارع ووقف نشاطها، غير أن المندوب عاد من مأموريته خائباً، وأوصته المرأة بأن يبلغ سلامة أن العودة إلى بلده أفضل من الدور الذى يريد أن يقوم به، وفكر سلامة فى الأمر، وشغله أن موضوع البغاء لايمكن أن ينتهى برسالة امرأة، وخطر بباله أنه ربما تكون رباب هذه هى الفتاة التى سكن فى دارها فى أول عهده فى المدينة، وفى اليوم التالى عندما أسدل الليل نقابه، امتطى فرسه ورافقه برهوم إلى دار رباب، ولما فتح الحارس لهما باب الدار، وخرجت رباب من غرفتها لتستقبل الزائرين.. كان سلامة والمرأة كلاهما فى حالة اندهاش شديد إذ عرف كل منهما الآخر، غير أنها فى بجاحة بادرته قائلة:

– لم أكن أعرف لماذا هجرت بيتنا، حتى تصبح فى زمن قصير زوجاً لرئيسة المدينة، وهل يهون عليك أن تحارب المرأة التى كنت تريد أن تتزوج بها..

وقال سلامة فى رباطة جأش وهو يمسك بيده اليمنى كرباج الفرس:

– لقد تركت بيتكم لما سمعت بأذنى.. أنكما ستذهبان إلى رجل من غير دينك ينكحك حتى تقيمى صلحاً مع الشيطان، ولما كانت هذه معتقدات بالية بل وسافلة، وأدركت أن التى سأتزوجها ممكن أن ينكحها أى رجل فى أى وقت حتى ترضى شيطانها.. أو شيطان تلك الأفكار الغريبة، تركت الحى الفقير كله.. وسألت الله أن يرزقنى من أبوابه الواسعة..

– إذا كانت تلك أفكارك.. فلماذا لاتتركنى وحالى.. إننى أريد أن أكون سيدة.. وهذا شارعى وكل واحدة فى هذه الدور راضية وسعيدة بعملها.. فلماذا تنغص علينا حياتنا..

– أنا لا أستطيع أن أعود كاسف البال لخيبة مسعاى إليك.. لقد امتلأت المدينة بالخيرات، والمال يصل كل بيت، وسوف يأتى يوم تتحرر فيه بلادنا من الغزو ويصبح حال الناس جميعاً أفضل..

– إننى أقوم بعمل وطنى.. إننا نأخذ من الجنود أموالهم ونسلب منهم إرادتهم ونستطيع أن نفعل المزيد..

– ماهو المزيد ؟ إذا طلبنا منك قتل كل جندى يدّخل هذه الدور.. فهل تفعلين.. إننا ممكن أن نكّلفك بمهمة مثل هذه..

فأفاقت مذعورة من قوله:

– إننا نريد للجنود جميعاً أن يدخلوا بيوتنا.. ويخرجوا أحياء.. حتى يعودوا مرة ثانية.. هل نقطع أرزاقنا بأيدينا ؟!!

– إذاً أهدافكن جميعاً أيتها البغايا.. أن تغزو البلاد فرقة أخرى حتى يصطف الجنود أمام بيوتكن فى طوابير..

– دع الناس تعيش فى حرية.. لقد ولدنا أحراراً..

– يالك من سافلة.. ليست هذه حرية.. وهل كانت الحرية فى يوم إمرأة تعمل فى الدعارة..

– اتركنا وحالنا.. إننا نعمل وسعداء بعملنا..

وضربها بالسوط على مؤخرتها فصرخت، وتجمعت نساء عاريات من الداخل كدن يصرخن جميعاً، وكانت الغرف خمساً.. وخرج مع النساء من الغرف خمسة جنود.. وكان ثلاثة جنود آخرون يجلسون فى ردهة صغيرة ينتظرون دورهم ويحتسون أكواب البيرة، وشعر سلامة بالأسى، وأطرق رأسه نحو الأرض فى حزن شديد، وأمسك برهوم بكتفه قائلاً فى لطف شديد:

– تعال ياسيدى نذهب إلى المدينة، إن هناك ناساً آخرين غير هؤلاء..

ولم يفهم سلامة مغزى كلامه.. فقال حائراً وناظراه تائهان فى وجوه النساء:

– هل تعنى شيئاً محدداً فى المدينة ؟..

– لا ياسيدى.. ولكنى أعنى أن المدينة تمتلئ بقوم آخرين ليسوا هكذا، ومازالت الحياة الطاهرة هى الأعم.. لاتشغل بالك ولاتقنط.. هيا ننصرف..

ولكن قدما سلامة تسمرتا فى الأرض، وكان جسده يرتعش، فأخذه برهوم من يده كمن يشده وقال بصوت مسموع للنسوة:

– ليست الليلة نهاية الدنيا، إن غداً لقريب.. سنعالج تلك الأمور المريبة ياسيدى فلا تحزن.. وبصقت رباب فى الهواء وتبعتها النساء، فانقلب سلامة إليهن يضربهن فى قسوة بسوط الفرس.. وأسرع إليه الجنود بملابسهم الداخلية، وقام جندى كان يحتسى البيرة يمسك مسدسه ويتجه نحو سلامة قائلاً بعربية ركيكة:

– دعينى أقتله..

واندفعت إليه رباب قائلة:

– لاتعرف من هذا حتى تقتله..

– من ياسيدتى ؟.. (وأدخل مسدسه ثانية فى جيب بنطاله)

– زوج رئيسة المدينة..

– هذا هو الرجل الكانى.. ومن أتى به إلى هذه البلاد ؟

– هذه حكاية طويلة.. وهكذا أبناء كان قد رحلوا عن بلادهم بعد حرب ثلاثة وسبعين يبحثون لهم عن دور فى بلاد أخرى..

وكان سلامة وبرهوم يتقدمان نحو الباب.. وثلاثة من النساء يقذفن نحوهما بأكواب وقناني البيرة الفارغة ورباب تحاول أن تمنعهن.. ولما امتطى كل منهما صهوة جواده وانطلقا إلى القصر قال سلامة وكأنه يدبر أمراً:

– لقد دافعن عن بيتهن بضراوة.. كل واحدة منهن فى غرفتها وكأنها فى قصر، وصالة البيت حديقته.. تكلمن جميعاً وصرخن وكأنهن إمرأة واحدة.. إنهن أقوياء ولابد من قوة لضربهن..

– المشكلة ياسيدى أن هذه الدور تنتشر فى كل أحياء البلدة..

ودخلا القصر وهما لايعرفان كيف يخبران السيدة بالأمر.. وكانت كلمات الجندى تدوى فى أذن سلامة.. لما قال للعاهرة رباب.. هذا هو الرجل الكانى.. من أتى به إلى هذه البلاد..

ولم تكن سندس فى حاجة لأن تتلقى دروساً فى الأنوثة والإغراء، ولكن الرئيسة أعطتها دروساً فى السياسة، وكذلك زودتها كارولين بمواضيع مهمة تناقشها مع القائد الكبير، وكانت كارولين تجعل القائد الصغير الذى يعشقها.. يرقد كل ليلة بين ذراعيها ويقول لها كل شئ، فتجمع المعلومات وتأخذ أوراقاً وخرائط تدسها فى صدرها وهى عائدة إلى جناح الرئيسة آخر الليل، صهرته فى حبها وأعطته كما لم تعط لرجل من قبل، لأنه كان يركع تحت أقدامها مولعاً بحبها مجنوناً بعشقها، وهى المرأة التى كان يقضى معها الرجال أوقاتاً ينتزعون فيها لذة عارمة.. ثم ينفضون عنها وكأنها امرأة أتوابها من الشارع، غير أنها كانت دائماً تتذكر بلادها فلم يغلبها عشقه لها.. لكنها أعطته كل شئ حتى يرتع ويشبع، ولابد أن تجعله فى كل ليلة يخون بلاده مائة مرة.. حتى تعود فى آخر الليل بكل شئ، وكان دائماً يقول لها فى أول كل ليلة:

– أنا مستعد لأن أتنازل عن كل شئ فى سبيلك.. وأن آتى لك بالنجوم فى

السماء كى تتزينى بها..

وكانت تصر دائماً أن تقول له كل لقاء:

– لاتضرب المدينة ثانية بالطائرات.. ألست قائداً من القادة.. حتى لو أمرك قائدك بذلك.. قل لى ياسيدى أهناك بارود تستطيع تدمير أى طائرة فى مرقدها..

فيهلع من سؤالها لحظة.. ثم يقول وهو ينام على صدرها.. يوجد كل شئ.. وأخذت تلح عليه فى كل ليلة.. حتى أخذ فى كل وقت يقضيه معها يشرح لها كيفية تدمير أى طائرات وأى بارود يستخدم فيها.. وحتى تطمئنه كانت تضحك قائلة.. أنت حبيبى وأريد أن أعرف أسرار عملك لأنى من حبى لك أريد أن أقوم فى يوم ما بعمل قائد الطيران فى بلادنا.. هذا بعد مئات السنين عندما تصبح بلادنا حرة.. فيضحك القائد ويثرثر لها فى مواضيع شتى، وكانت تسعده أكثر عندما تجده يسمعها وتسأله فى هدوء شديد وبلا ملل.. وتقول له دائماً.. إنك رجل حرب ورجل حب، لقد دمرت ومن معك من القادة بلادى، ولكنك منحتنى السلام والحب.. عمرت حياتى وملأت علىّ الدنيا بالحب والعشق اللامنتهى، فلما لاتبقى أنت فى بلادى وتساعدنى على أن تذهب تلك الحرب عن مدينتى أبداً.. إن رئيسة المدينة والمحافظ يمنحانك كل شئ.. تحالف معى أيها القائد فأنت رجل حياة ولست رجل حرب.. وكان يسمعها ويسكت ولكنه يفكر طويلاً فى كل ما تطلبه منه ولايجيب.. ومرت الأيام وكان معها فى كل ليلة اجتماع الحب والخيانة.. خيانة قائد لمهمته ولزملائه، وكان فراش كارول حريرياً ناعماً فيلتصق بصدرها وينهار رأسه فوق شفتيها.. وينسدل الشعر الأسود من رأسها على جبينه وعينيه.. فيصبح الموت حياة.. وتصبح حياة العرايا والجائعين من المدينة خيالاً سابحاً فى خير لاينتهى، وتصبح تلك البيوت المهدمة والخربة والقديمة قصوراً مشيدة شاهقة البنيان، لكنه عندما كانت تذهب وتنفض من فراشه كل ليلة وتعود إلى جناحها عند الرئيسة.. كانت تفتح النافذة وترى المدينة من بعيد وبيوتها

مازالت خربة.. وأهلها جميعاً يتضورون جوعاً، وحى البغاء وحده تنبض فيه الحياة.. وإن كانت رذيلة.. ولما كانت تخبر الرئيسة بكل أسرارها معه.. كانت الرئيسة تقول لها.. استمرى فى مهمتك.. إن عملك الآن أصبح خطيراً.. ولا رجعة فيه ولاتخافى فإن ما تأتين به من أسرار لن يذهب هباءً.. وإن هناك من الناس فى تلك المدينة من سيجعلون من تلك الأسرار فجراً جديداً..

ولم يكن أحد يدرى من يريد القائد الكبير من النساء الثلاث، لقد ظهر من نظراته أنه يطمع فيهن جميعاً، وفى ليلة تمادى وهمس فى أذن الرئيسة قائلاً:

– إن جمالك ياسيدتى لايقاوم..

– إن زوجى كانى غيور لو سمع ماقلته لقتلك.. وآه لو عرف أبى..

فتلعثم الضابط وقام إليها وانحنى يعتذر.. فقالت له بحزم وهو منحن..

– لاتكرر ماقلته مرة ثانية..

– حاضر ياسيدتى.. إلى من أتجه من النساء ؟..

– لقد أحضرنا لك سندس.. أليست جميلة ؟..

– إنها جميلة حقاً.. ولكنها تتدلل علىّ ياسيدتى..

– لن تتدلل عليك من الليلة.. إذهب إلى مكتبك الآن حتى تنهى أعمالك وعد إلينا قبل منتصف الليل.. العاشرة مساءً.. وقت مناسب..

– أيكون عشاءً فاخراً ياسيدتى..

– عشاء فاخر.. ولن تتدلل عليك سندس من هذا المساء..

وانحنى وكاد يقبل يدها غير أنها لم تعطها إياه.. فانصرف..

وتزينت النساء وارتدين الملابس الحريرية الشفافة، ولم يكن هناك رجل يحرسهن، لم يكنّ فى حاجة إلى حراسة، إن هذا الضابط قد ترنح عند أول السحر.. والليلة سيرى السحر كله فسيكون طى إصبع أضعف واحدة منهن. كانت سندس حارة العواطف مشبوبة الإحساس.. امرأة جميلة أنيقة ساحرة لها وجه الفاتنات وجسد الراقصات عند ناصية الهرم، ولم تكن تعرف السياسة التى

دربوها عليها، إنها تفهم فقط فى هذه الليلة أن تغرق هذا القائد فى بحر عميق ويكفيها أن ذلك الرجل الذى قاد الحرب ودمر مدينتها.. يكفيها أن تجعله الليلة يركع تحت ساقيها.. بل ستجعله يقبل قدميها.. ثم بعد ذلك تفيق من حد إغراقه وتبدأ السياسة.. ولم تكن تعلم أن السياسة جميعها فى رأس أى قائد فاسد تندلع على فراش إمرأة ساحرة مثلها.. ولما أسدل الليل عباءته كان المطر ينهمر بغزارة فوق المدينة.. فاغتسلت الأسقف وارتوى الشجر وغاصت الأرض فى أوحالها، وراح الماء الغزير ينطلق فى جداول كثيرة وقوية، ويملأ كل مكان منخفض فى البلدة.. ولما سال المطر من السماء كأن صنابير من الماء قد انهالت، وبدأ الماء يزحف إلى الطرق.. وأصبح حول كل بيت بركة تهدد جدرانه، ودخل الماء إلى قصر السيدة الكبيرة، مما دعا سلامة وبرهوم إلى أن ينزحا من الجبل رملاً ملأ عربتين لإقامة ساتر حول كل باب وحجز الماء الذى يندفع من الشارع إلى فتحات القصر من كل جانب، وقفلت الملاهى والحوانيت أبوابها وخلت الفنادق من زبائنها.. وهرع الناس إلى بيوتهم وخيامهم ليشعلوا النار فيها حتى يدفأوا، وكانت النار مشتعلة فى بيت ثروت المناديلى، التف حولها جماعته يشربون الشاى ويدخنون الشيشة ويثرثرون.. ولم تكن نيروز أروع إمرأة فى المدينة فحسب.. بل كانت هذه الليلة أجمل إمرأة فى الشرق.. حتى أن الضابط ما أن دخل الحفل الجميل الصغير غاب عن وعيه لما رآها، وجلس على مقعده مبهوراً، ولم ينطق ببنت شفة، وجلست قبالته.. ولكنها كانت تنظر إلى الداخل كمن تنادى على كارول وسندس، وجاءت كارول من الداخل فى ثياب حريرية عارية وشفافة، ولما اقتربت تهادت فى خطواتها وتدللت وكانت مع كل خطوة تصفو ضحكاتها ويسرى نسيم عطرها، ووقفت خلفه تمسك بمقعده فابتسم، وكان يشعر بأن صفحة من سحاب أبيض تلامسه، وأن عطرها النفاذ الساحر قد سكن على الأرض حواليه.. لدرجة أنه خيل له أن السجاد المفروش على الأرض سحابة أخرى قد نزلت من السماء متناهية فى الرقة والشفافية، ولم يكن

يعرف أن هناك امرأتين تقفان خلفه، إلا حينما قالت الرئيسة:

– تعالى.. أليس الحفل لك ياسندس ؟.. تعالى ياساحرة.

وتقدمت سندس كأميرة، ترتدى فستانا طويلاً من الشوفان الأزرق، وقد شقت المانيكان جانبه الأيمن فبانت كل سيقان أميرات أوربا فى القرن الثامن عشر فى ساقها المحبورة الملفوفة الناصعة البياض، لامعة كالماس، زاهية كالذهب، إن خطوة واحدة بساقها تدعو كل قادة الحروب لأن يسلموا أسلحتهم. ويدركوا تماماً أنه من أجل كل النساء الجميلات الرائعات اللائى لهن ساق سندس يجب أن ينشروا السلام بدل الحرب، وأنه فى هذا العالم مئات مثلها يجب أن يعشن ويتمتعن بالحياة، فلماذا لايكون السلام ؟!.. إن على الحرب فقط أن تدمر كل الأحياء الفقيرة والنساء القبيحات التى تمتلئ بها كل مدن هذا العالم.. إن العالم يجب أن يعيش في سلام من أجل إمرأة واحدة مثل سندس. هكذا قال القائد لنفسه عندما دارت نفسه وتاه عقله، وكأن النفس حلت محلها نفس أخرى وذهب عقله وقامت كارولين إلى سيدتها لتهمس فى أذنها:

– إذا كانت القضاء عليه الآن..

– والنتيجة.. زملاؤه يدمرون المدينة..

– فلنجمعهم جميعاً فى حفل واحد..

– أؤمن أن تكون الهزيمة من صنعنا نحن ؟..

وهرولت كارول إلى إسطوانة الموسيقى وأدارتها، فانسابت الموسيقى كالسحر.. وكان القائد قد انتبه من ذهوله قليلاً.. وانشغل باختلاس النظر إلى ساق سندس.. لكنه بعد برهة التفت إلى تلك الساق بعينيه فى وقاحة.. ونادته بنفس الوقاحة.. لقد أدركا الأمر معاً.. ولم يستطع أن ينتزع عينيه عنها، فقامت إليه وأخذته إلى ذراعها.. فقام ومد لها ذراعيه وضمها إلى صدره.. وأخذا يرقصان على أنغام الموسيقى الحالمة، ولما قطعا شوطا كبيراً فى الرقص.. كانت كل من الرئيسة وكارول قد قطعا شوطا كبيراً فى الحديث عن بداية سقوط

القائد.. وكانت الرئيسة تقول بين الفينة والأخرى:

– بدأ مشوار الانتقام.. لن أرحمه..

وكانت كارول فى شوق لأن تذهب إلى عشيقها.. فأذنت لها الرئيسة ولكنها قالت لها:

– أخبرى سندس بأن تأخذه من هنا..

وغمزت كارول لسندس ففهمت إشارتها وأخذته فى يدها كالسكران قائلة:

– تعال نذهب هناك بعيداً عن الرسميات..

وسبقته إلى الداخل.. وهرول خلفها كالكلب الذى يلهث من الجوع..

ولما كان يقترب منها كالوحش منعته بيدها قائلة:

– كيف أعطيك نفسى وانت قاتل أبى ؟.. لقد مات أبى أول الحرب..–قال ويده ترتعش وكأنه يحلف:

– ليس ذنبى.. أنا مكلف من بلادى.. لو كنت أعرف أن أباك فى هذه المدينة لما دخلتها محارباً..

– بينك وبين المحاربين فرق شاسع..

– كيف ؟..

المحارب هو الذى يدافع عن حق أو يدخل أرضاً ليستردها من يد الذين سلبوها.. ولكنكم أيها القائد دخلتم مدينة أهلها جميعاً عزل من أى سلاح..

– ماذا تقصدين ؟..

– أنت قائد المعتدين والظالمين وسفكة الدماء..

– هل أتيت إلى فراشك لتوبخينى ؟!..

– ماذا تريد أيها القائد ؟.. قالتها فى سخرية..

– كل شئ..

– وماذا بعد..

– لم أر إمرأة فى جمالك..

– وزوجتك..

– إنها فلاحة كورشية.. قصيرة بدينة كبرميل الطورشى..

– إذهب إليها..

– كنت فى شوق إليها قبل أن أراك..

– ولكنك فى يوم ستذهب..

– إننى مستعد من الليلة أن أغير كل شئ فى حياتى من أجلك، وأن أعيش فى هذه المدينة أبداً..

– ارفعوا أيديكم عن مدينتى.. لاتضرب المدينة مرة أخرى حتى لو صدرت أوامر صارمة بذلك.. إن بلادى لا تتحمل خراباً بعد خرابها..

وأعطته قليلاً.. وتركته يقترب من جسدها وعلمته كيف يأخذها برقة، وليس كما ينتزع عدة الحرب.. وتهدجت أنفاسه.. فقالت له

– كيف تلهث وأنت قائد حرب ؟..

– من الليلة لست قائداً..

فضحكت فى دعة وأمسكته من رأسه وقالت..

– من أنت إذاً ؟..

– أنا عاشق لسندس..

– ولكن ليس كل ليلة..

– أرجوك كل ليلة..

– ومن يضرب المدينة ؟..

– لن يحدث ذلك أبداً مادمت لى..

ومدت يدها له قائلة:

– صافحنى.. دع يدك فى يدى.. عاهدنى هذا العهد..

ووضع يده فى يدها بقوة وهزها وقال:

– أعاهدك على أكثر من ذلك..

وتركت له كل شئ.. ولما اقترب الهزيع الأخير من الليل.. كان قائد الحرب ينام بعمق شديد عند جسد سندس.. جسدها الذى مايزال قوياً منتصباً، وارتدت ملابسها.. وذهبت إلى غرفة كارول.. وأيقظتها بصعوبة، وذهبتا إلى رئيسة المدينة التى كانت مستيقظة تقلب بعض الأوراق على مكتبها.. وهرولت النساء الثلاثة إلى غرفة سندس، فوجدن الضابط جثة هامدة.. وسعدت الرئيسة سعادة بالغة قالت وهى مفعمة بما حدث:

– اقتربت النهاية..

وتثاءبت كارولين قائلة:

– أستأذنك ياسيدتى أنا فى حاجة إلى النوم..

– متى أتيت ؟

– منذ ساعة..

– وماذا فعلت ؟

– ألا تكفيك الأوراق التى جلبتها الليلة..

– أقصد هل مازال متيماً بك ؟..

– إنه يركع تحت قدمى..

ودخلت كارول غرفتها، وذهبت سندس لتنام فى فراش القائد.. وأخذت توقظه حتى يشبع.. أما الرئيسة ففتحت نافذة مكتبها وأخذت نفساً عميقاً وقالت:

– أنا فى حيرة.. ماذا سأفعل بعد ذلك.. هل نقضى عليهم واحداً بعد الآخر ؟.. ألا يجب أن يقوم رجال المدينة بعمل يتوازن مع أعمال النساء ؟.. ترى هل سيفعل سلامة وجماعته عملاً بطولياً.. لقد أرسلت إليهم الأوراق والخرائط كافة.. وكانت السيدة الكبيرة محزونة منذ أن أبلغها سلامة بفشله مع رباب صاحبة دور الدعارة، وكان دحروج يمت لرباب بقرابة، فأرسلته سيدته ليقنعها بطريقته عسى أن تستجيب له، وناولته سوطاً ليستخدمه عند اللزوم، ولما دخل

بيت رباب، ورأى النساء عرايا، وجنود الغزو يملأون الدار ارتعدت أوصاله، تمالك نفسه وسأل إحدى العرايا:

– أين رباب ؟..

فضربته على صدره:

– رباب حاف يابن الخدامة..

وطوح بيدها وهو يسعل:

– كلنا ولاد خدامين يابنت القحبة..

– إش جاب لجاب.. يعني لو كنت.. مش كانت فرصة وتعمل زيها

وضربها بالكرباج فصرخت وهرعت إلى إحدى الغرف فخرج ج

وتبعته رباب، وبحلقت فيه ولما تبينت أنه يخروج ابن خالها عبدالرازق الحر قالت له:

– لماذا تضربها يادحروج ؟..

– بتشتمني يابنت عمتي..

– عمتي.. عمتك ماتت من زمان .

– لو كانت عايشة كنت هاتعملي اللي بتعمليه ده ؟..

– عمتك كانت هاتعمل أكتر من كده..

– عمتي كانت شريفة يارباب..

– إسألني أنا عن عمتك.. دي كانت بتاخدني للرجالة في القصور

وبصقت في وجهه.. وأردفت قائلة.. عرفت بقه عمتك.. هي أمي بس كانت أكبر قحبة في البلد.. وعلشان كده أنا طلعت زيها.. خلاص عرفت كل حاجة.. اقفل كمان عن عمتك..

ودون أن يدري انهال عليها ضربا مبرحاً بالسوط.. أصابته لوثة في عقله، وأخذ يشتمها بأقبح الشتائم.. وانهال عليها بالسوط فوق وجهها وصدرها حتى نزفت الدماء من كل مكان في جسدها وانطرحت على الأرض تصرخ، وانقض

عليه جندى وأمسك بيديه من الخلف، ونزعت إحداهن السوط من يده وأوقعته أرضاً بعد مقاومة، وأخذت النساء تضربه بالعصى وقلل الفخار.. حتى تجمعت الدماء حول رأسه.. وجرت واحدة منهن إلى المطبخ واستلّت سكينا.. وانحنت عليه فى جنون وذبحته حتى جعلت رأسه منفصلة عن جسده، وفتح باب الدار ليدخل رجال ونساء وأطفال من أهل الحى.. وهرب الجنود من الدار، وأخذت كل النسوة من أهل الحى يلطمن خدودهن ويمزقن ثيابهن.. إلا رباب وأهل بيتها فلقد استمرت رباب فى لعنها له.. والنساء خلفها يرددن ماتقوله.. وبلغ السيدة الكبيرة خبر مقتل عبدها، وكادت تسقط على الأرض، وأمسك سلامة بها، وتهالكت على مقعد بالغرفة، وتهدجت أنفاسها وراحت تبكى، وانحنت عليها ريما تحاول تهدئتها، وهمست السيدة فى أذن سميرة التى هرولت إلى دولاب الأسرة الكبير لتأخذ منه بندقية صغيرة.. وانقلبت إلى أمها.. التى رفعت البندقية بيدها إلى أعلى قائلة:

– أين الرجل فيكم ؟.. من يأتينى بدم دحروج ؟..

فتقدم إليها برهوم:

– ومن غيرى ياسيدتى ؟.. إنه زميل عمرى وصديقى..

وجاءتها من خلف الباب سعدية بنت منصور. تلطم خديها وقد شقت جيوبها وصدرها تصرخ قائلة:

– لن يأتى أحد بدمه غيرى..

– ستقتلك النساء هناك كما قتلته..

وأزاحها برهوم خطوات عن السيدة.. كأنه يقول لها.. أين الرجال إذاً فى القصر ؟.. وأردفت السيدة:

– إذاً برهوم سيذهب . والآن.. هكذا يكون الثـــأر..

غير أن ريما أمسكت بذراع زوجها وقالت ترجو أمها:

– ومن يضمن عودته سالماً يا أمى.. إنهن كثيرات فاجرات، يتحصن

بالجنود المسلحين.. وقالت الأم فزعة محزونة:

– دعيه يذهب ياريما.. دا.. وصرخت صرخة عالية وتشنجت وراحت فى غيبوبة وجسدها كله يرتعش بشدة..

وهرول سلامة إلى الهاتف واتصل بالرئيسة وأبلغها ماحدث، وذهلت مما سمعته وأخبرته بأنها ستتصل بالقصر بعد قليل، وأرسلت سندس إلى القائد تبلغه بالخبر وأنها تطلب من القائد ضرب حى البغاء بطائرة واحدة، غير أن القائد ردَّ على الرئيسة برسالة شفهية عادت بها سندس..

.. يقول القائد أنه مستعد لأن يفعل كل ماتطلبين.. ولكن أين يذهب جنوده بعد ذلك.. لولا هذا الحى لفرَّ الجنود عبر الحدود إلى زوجاتهم أو دور أخرى فى بلاده مثل هذه الدور.. ولما يهرب الجنود ستكون المسئولية جسيمة عليه.. إنه يقترح عليك إعدام من قتل دحروج فى ميدان عام ليكون عبرة للجميع.. ولم يكن أمام الرئيسة إلا الموافقة على الحل الأخير.. وذهبت سندس لتخبره بموافقة الرئيسة، فأمر الجنود بإقامة مشنقة فى الميدان الكبير الذى يفصل الحى الفقير عن باقى المدينة.. وحملت سندس خبراً بأن الجنود ذهبوا فى التو إلى الميدان لاعداد المشنقة.. وأن العملية ستتم فى الوقت الذى تريده، وأن القائد وجنوده تحت أمرها.. وسعدت الرئيسة لما حملته سندس إليها..

وأخبرت الرئيسة القصر بموضوع الإعدام، وهدأت السيدة قليلاً.. وشاع جو من الارتياح لدى الناس جميعاً فى البلدة، وكانت سعدية بنت منصور تجرى فى الشوارع المحيطة بالقصر كالمجنونة، وأرسلت الرئيسة كارول إلى المستشفى لتشرف على إجراءات تجهيز جثة دحروج لدفنها فى صباح اليوم التالى.. ولما انتهوا من غسله وضع فى صندوق نعش به رجل مسيحى، وفى الصباح وعندما حل موعد الدفن، أدخلوا الصندوق فى عربة يجرها فرس أبيض تقدم بها نفس الرجل لشدة حبه للعبيد فى المدينة.. وقاد الرجل عربته.. وتقدمتها رئيسة المدينة وكارول وسندس فى سيارة مرسيدس سوداء يقودها أحد جنود قائد الحرب،

وذهب الموكب الحزين إلى القصر القديم.. حيث كان الناس من أهل المدينة قد ملأوا الميدان والشوارع المحيطة بالقصر، وكانوا حزانى يبكون ولما وصل المحافظ علا بكاؤهم وصراخهم، وكان المحافظ قد وصل فى موكب رسمى تتقدمه العجلات البخارية التى يقودها الجند، ثم مركبتان فيها كبار موظفى المحافظة والموظفات، بعدها عربة المحافظ الشيفورليه الفاخرة، وفى نهاية الموكب عربتان جيب يقلهما الجند وقد صوبوا بنادقهم من فوق صدورهم، ولما بدأ موكب الجنازة كان موكب المحافظ يتقدم الجميع ثم تبعته عربة رئيسة المدينة، وعربتان تحملان السيدة الكبيرة وأهل قصرها جميعا بمن فيهم زوجة دحروج، ثم عربة الرجل المسيحى الطيب التى تحمل جثة دحروج.. والتى يقودها الرجل على مهل بفرسه الأبيض العجوز.. وتظاهر الناس جميعاً خلف الميت يمشون على أقدامهم.. تظاهروا مظاهرة كلها حزن وبكاء وألم.. وكان برهوم قد ردد فى أول سير الموكب قائلاً..

الميت مات مات والقاتل عايش فى تبات.. وردد الناس خلفه، لكن رجلاً شيخاً قاطع هذا الهتاف قائلاً: دعكم من هذه الهتافات الثقيلة وقولوا معى حتى يرحمه الله ويرحمنا:

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. والدايم هو الله..

ولما كانت المدينة كلها تقول كما يقول الرجل.. كان نهر من الدموع ينساب من عيون السيدة الكبيرة وأهل قصرها جميعاً.. لقد كانت تلك الكلمات العظيمة جديرة بأن يعود الناس جميعاً بعد الدفن، ليقتلعوا جدران بيوت الدعارة جميعها.. وفى مدفن العائلة الكبيرة وجدوا مجموعة من العامة يتوسطهم كركور، كانوا يقرأون القرآن ويرفعون أيديهم نحو السماء، وكان سيد أبو عاطف وثروت المناديلى ضمن هؤلاء.. وقام كل منهما بتهدئة من بلغت ذروة حزنه المدى، وتقدم كل من عبدالرحمن منزلة وفتحى حسنى ليحملا الصندوق مع آخرين إلى فوهة القبر حتى ابتلعته فى لحظات، ولما صرخ الجميع صرخة الفراق.. كان كركور يقاطعهم جميعاً بصوته:

– اتقوا الله.. فلندعوا للميت بالتثبيت.. وردد الناس خلفه فى خشوع. حتى تبين للناس أن صخور الجبل قد اهتزت، وكانت تلك الصخور بيضاء لامعة ناصعة.. جديرة بأن تحضن المدفن الكبير.. وانصرف الناس إلى بيوتهم.. ولم ينصرفوا لكى يهدموا بيوت الدعارة.. لقد قام برهوم بمنعهم فقد أمرته رئيسة المدينة، بألا يذهب أحد إلى الدار التى حدث فيها القتل.. إن رئيسة المدينة ستقوم بما يجب أن يكون.. انصرف الناس إلى حاجاتهم فى الدنيا لتعود حياتهم كما كانت من قبل.. غير أن هذه الليلة لم تنم المدينة.. ونام أهلها فى أول نهار اليوم التالى نوماً عابساً مقهوراً فيه طردت المدينة أحزانها.. لقد خيل لهم أن الأحزان لن تعود.. ألم تكن هذه آمال كل ضعفاء العالم فى كل بلد أينما كانت.. ومرت ثلاثة أيام والسيدة الكبيرة فى قصرها لاتستطيع قض أحزانها ونادت لسلامة لتقول له:

– إنى أشعر يابنى أن المدينة لم تعد مدينتنا وأن الفاجرات أصبح لهن شأن، فهل يجب أن يستمر هذا الأمر ؟!..

– ياسيدتى هدئى من روعك.. لقد اعتقلت الرئيسة رباب وكل نسائها فى سجن المدينة..

– والدور الأخرى هل اعتقلت أهلها ؟.. إن بيوتا كثيرة فى البلدة هكذا.. الحرام ينتشر بطريقة فظيعة..

– إنها لن تستطيع اعتقال كل هؤلاء.. من أين تأتى بالمعتقل الذى يسعهن جميعاً ؟..

– فلنحول قصرين من قصورنا إلى معتقلين..

– إن القصور كلها فى المدينة لاتكفى.. ياسيدتى المصيبة أن كل الفقراء تحولوا إلى ذلك من شدة الحرب، وحتى بعد امتلاء الأسواق بالسلع.. فإن هؤلاء لم يعودوا كما كانوا من قبل.. وكأنهن وجدن لذة أو وجوداً جديداً لم يكن من قبل..

– ومن جعل أهل المدينة أقرب إلى هذا العمل يابنى ؟..

– إنها رواسب قديمة ياسيدتى.. فكثير من النساء يقلن إنهن وجدن سيادة وعزة فى هذا العمل.. وإن هذا العمل يغنيهن عن الذهاب للقصور.. وإن القصور إذا فتحت مرة ثانية فانهن لن يذهبن أبداً إلى هناك..

– وكيف يتمردن على الأعمال الشريفة ؟..

– إن المادة والاستقلال وشعور كل واحدة بالسيادة يدفعهن للاحتفاظ بهذا العمل، إنها عقدة الفقيرات ولايهم الشرف..

– لهن حرية التمرد وليقمن أحياءهن.. لكن ليس من البغاء..

– الحل الوحيد ياسيدتى الآن هو طرد الجنود جميعاً من بلادنا.. لتعود المدينة مرة ثانية بلا رجال.. وعندما يموت نساء هذا الحى، فلنأت برجال من بلاد أخرى ليتزوجوا الفتيات الصغيرات ويقيموا مجتمعاً جديداً.

– ويعدن مرة ثانية للخدمة فى القصور..

– لا ياسيدتى.. لابد للمدينة أن تقيم مجتمعاً اقتصادياً يختلف تماماً عن المجتمع القديم..

– ومن أين نأتى بالخدم ؟..

– فليخدم أهل القصور أنفسهم..

– كيف وقد تعودوا على أن يخدمهم الآخرون ؟..

– فليقم كل حى مجتمعه الجديد.. المهم بهذا المجتمع الجديد يكون الناس أحراراً فى أعمالهم..

– إنه كالحلم المستحيل يابنى..

– ألا تريدين مدينة حرة طاهرة ؟.. فلنبدأ أولاً ياسيدتى بطرد الجند من بلادنا..

– لقد أصبحت تائهة يابنى.. أنا معك فلنطرد أولاً هؤلاء الجند..

– إن جماعتى قد أعدت العدة للهجوم على معسكرات الغزاة من خلال

الخرائط التى جلبتها لنا الرئيسة..

– ودون هذه الخرائط أليست لديك مبادئ حرب ؟.. ألم تكن جندياً باسلاً فى حرب أكتوبر ؟..

– كنت أحد الجنود الذين قاموا بواجبهم..

– إذا كنت تريد أن تذهب إلى بلادك فاذهب، وإلا فلتعمل فى هذه المدينة أيام الحرب كما كنت أيام السلم.. إننى لا أجد أحداً غيرك يستطيع أن يقود جماعة تعمل على طرد هؤلاء الجند.. إننا ياسلامة فى حاجة إلى تحرير البلدة من كل شئ يدنسها..

– وزوجتى ياسيدتى.. إننى فى حاجة إليها..

– غريب أنت.. ألم أقل لك منذ لحظات أنك رجل سلم فقط، ولايجب أن يكون الرجل هكذا، فليكن الرجل مناسباً لما يكون عليه الحال، الرجل هو الحما يابنى.. ماذا أقول لك ؟.. لاتبحث عن زوجتك الآن ولا تفكر فيها، لأن هذا الامر قد يطول كثيراً.واستأذن سلامة من السيدة وخرج من القصر، وتبعه برهوم قائلاً وهو يمسك بذراعه:

– إلى أين ياسيدى ؟ لقد سمعت كل شئ..

– وهل كنت تتنصت على السخرية منى ؟..

– لا ياسيدى العفو.. كنت قادماً إليك لأخبرك بمرض الفرس العجوز..

– ثم وقفت بالباب..

.. وقفت بالباب لما سمعت السيدة تكلمك بلهجة شديدة.

– دعك من أمر وقوفك بالباب.. ما رأيك فى حديثها معى ؟..

– أنا معها ياسيدى.. إنك تستطيع أن تقوم بدور أكبر.. عد معى لترى حال الفرس العجوز.. إنه يتألم من شدة المرض..

وفى الحظيرة وجدا الفرس يحتضر.. وأخذ سلامة يداعبه ويدلّك رأسه ورقبته، ولكن الفرس كان جثة هامدة.. وشهق الحصان شهقتين عاليتين.. وضرب

الأرض بقدميه.. ثم رفس الأرض بقدمى مؤخرته وارتخى جسده وتحجرت عيناه.. وقال برهوم وهو محزون:

– لقد مات ياسيدى.. مات.. هل تعرف أنه كان فرس دحروج ؟.. لقد كان يحب دحروج حباً شديداً..

– ياإلهى.. هل تعنى أنه مات حزناً عليه ؟..

– هذا ما أعنيه تماماً ياسيدى.. منذ ثلاثة أيام والفرس لا يأكل ولا يشرب..

– إذهب واحضر الدفان حتى ينقله من هنا..

وكما بكت السيدة الكبيرة دحروج بكت الفرس وكانت تقول وهى تبكيه.. لقد مات حزناً عليه.. هكذا جلبت الحرب لنا.. الموت ولاشئ غيره.. وتجدد حزنها ثلاثة أيام أخرى، وبعدها مرضت السيدة مرضاً شديداً.. وجلب لها المحافظ طبيباً كبيراً فى العاصمة، وعلى يديه شفيت بأمر الله، بعدها أخذ سلامة يجتمع مع جماعته فى دار ثروت المناديلى يتكلمون ويخططون ويقلبون الأوراق والخرائط..

وفى يوم كان برهوم يرافقه فى جولة بالخيل حول المدينة فقال له:

– هل وصلتم إلى شئ فى دار ثروت المناديلى ؟..

– توصلنا إلى كل مانريده تقريباً.. ونحن الآن ندرس النتائج..

– وهل وصلتكم الذخائر التى يجب استخدامها..

– المحافظ رجل همام.. لقد أرسل لنا كل أنواع المتفجرات والعتاد..

– إنه سيد المدينة الحقيقى.. منذ أن شبت أظافره وهو رجل قوى.. ولكن لماذا يطول الوقت فى دراسة أية نتائج ؟..

– إننا فى الحقيقة لاتهمنا النتائج.. ولكن المحافظ أبلغنا بهذا الأمر.. وسوف يبلغنا متى نبدأ..

– حقاً إن هذه المدينة مدينتك.. وإن أبناء الشرق أصحاب كل بلاد

الشرق..

– هل تلتقى بزوجتك يابرهوم فى أيام الحرب ؟..

– زوجتى هى التى تلتقى بى.. لقد عادت لقاءاتها حارة وشديدة وكأنى سأموت غداً..

وضحك سلامة وأردف قائلاً:

– إذاً أنت أسعد رجل فى المدينة..

– إن الأمر يختلف بين النساء، فالرئيسة لايساورها هذا الشعور وبالتالى لاتلتقى بك ياسيدى..

– مهما كانت ماسى الحرب فإن تلك الويلات لايجب أن تمنع لقاء الزوج بزوجها..

.. وكيف يصدر حاكم فاسق أمراً كهذا ليمنع حكام المدينة عن حلالهم، وفى نفس الوقت يغمض عينيه عن شوارع كاملة تقوم علناً بالدعارة..

– قد تطول أيام الحرب ومعها يكثر ألمك ياسيدى.. لم لا تتزوج من امرأة سراً ؟.. إن هناك إمرأة بين يديك..

– إمرأة بين يدى ؟.. ماذا تقصد ؟..

– المرأة التى مات زوجها..

– تقصد العبدة سعدية بنت منصور..

– أليست العبدة إمرأة ياسيدى ؟.. إنها حلوة ولن تتمرغ فى الوحل معها.. ألم تقل فى يوم إنها عبدة جميلة..

وعض سلامة إصبعه وقال وكأنه يحدث نفسه:

– ولو افتضح هذا السر فى يوم ماذا يكون مصيرى ؟..

– الهلاك ياسيدى.. لقد دفعت فيك الرئيسة كل غال..

ولما اقتربا من القصر كانت هناك جلبة غير عادية.. وسعدية بنت منصور تهرول نحو الباب الكبير كى تخبرهما قائلة:

– الرئيسة وصلت ياسيدى..

– أهناك أمر مهم ؟..

– وصلت للزيارة ياسيدى.. إنها على خير مايرام..

ولما كان يصعد الدرج وخلفه برهوم.. كان يقول فى نفسه.. ليتها تريدنى حقاً.. وقامت إليه الرئيسة من بين أهلها.. لتأخذه فى أحضانها بعنف شديد.. وكأنها جاءت من بلاد بعيدة.. وهرولت نيروز بعد ذلك إلى غرفتها ترتب أثاثها وتبدل الشراشف والأغطية، ولحقتها سميرة وبسنت فى الغرفة.. وفرح سلامة لما رأى الرئيسة فى بيتها زوجة كما كانت من قبل تذهب لتهيئ فراش زوجها شأن كل الزوجات.. وأعدت غرفة لكارول وسندس لتستريحا فيها، واستأذن سلامة سيدته للذهاب إلى غرفته، ولما دخل قفلت نيروز الباب.. وتهيأت له ثم دخلت إليه فى فراشه واحتضنها فقالت له:

– خذ ماشئت ولكن..

– ولكن ماذا ؟..

– لاتلمس صدرى ولا تثعرنى لأنى تعبة.. اعذرنى ياسلامة.. خذ بعد ذلك ماشئت..

– بعد عام ونصف تأتينى ضجرة من لقائى..

– أنا أحبك طيلة عمرى.. ولكن أعصابى راحت منى.. لقد احترقت من أفعالهم.. فلا تركيز ولا بال حتى أكون إمرأة كاملة لك.. ألا يكفيك جسدى الآن؟.. إن من يحب لابد أن يضحى.. فلقد مضت أيام كلها حب، أما هذه الأيام فاعتبرها أيام سياسة وجهاد.. خذنى بهذا الحال وتعلم كيف تضحى ولو بالقليل، ولاتجعلنى أندم لمجيئى.. لقد أتيت من أجلك.. ماذا تريد بعد ؟!.. إنى أفعل لك ما أستطيع..

وأخذته إليه وأخذته إليها.. ولما انتهيا قالت له:

– دعنى أنام قليلاً فى أحضانك..

وطرق الصغير الباب وفتح له سلامة قائلاً:

– تعال إلى أحضان أمك.. لاتوقظها.. ولكنها شعرت بوليدها فأخذته فى أحضانها برفق شديد ونام الطفل فى كنف أمه كما كان ينام من قبل..

وكانت السيدة الكبيرة تعلم أنه يجب أن تعود الرئيسة بموكبها قبل بزوغ الشمس إلى مبنى المدينة، فبقيت السيدة الكبيرة دون أهل القصر جميعاً مستيقظة على مقعدها حتى توقظ ابنتها فى الوقت المناسب، وكانت الرئيسة حريصة على ألا توقظ زوجها وطفلها لما استيقظت قبل الفجر بقليل، وحرصت السيدة الكبيرة هى الأخرى أن تنقر الباب برفق منادية فى صوت حنون.. نيرو.. ياحبيبتى استيقظى.. لقد أذن الفجر.. قومى لتصلى حتى يفتح الله لنا ولك.. لكن جلبة الرئيسة ومن معها أيقظت أهل القصر جميعاً عدا سلامة وابنه، وكما جاءت الرئيسة فى موكب رسمى عادت فى نفس الموكب الذى كان أفراده ينامون فى غرفة عند باب القصر أعدها لهم برهوم.. اعتلت الرئيسة جوادها وكذلك فعلت كارول وسارت سندس خلفهما بجوادها، وتقدمتهم عربة جيب صغيرة يقودها جندى ومعه قائد الموكب.. وخلف الفرسان الثلاثة عربة جيب أخرى بها أربعة جنود مسلحون ببنادقهم يحرسون الرئيسة من الخلف، وانتبه الجند خوفاً لما رأوا رجلاً يمتطى ظهر جواد ويقف عند ناصية شارع ضيق، غير أن الرئيسة لحقتهم قائلة:

– لاتخشوا شيئاً إنه برهوم أرسلته أمى ليتبعنى حتى أدخل المبنى سالمة.. وثبت كل جندى فى مقعده وأعاد بندقيته إلى كتفه.. وانحنى برهوم حتى كاد رأسه يلامس عنق فرسه قائلاً:

– نعم ياسيدتى.. لقد أرسلتنى سيدتى لأكون فى صحبتك حتى تدخلى إلى مقرك..

– تعالى وامش بجانبى يابرهوم حتى أسألك عن الطريق..

ومشى بفرسه بجانب فرس الرئيسة وكان فخوراً بهذا التكريم.. وتنهدت

الرئيسة متسائلة لما رأت أن هناك بعض الناس يقفون فى مثل هذه الساعة على ناصية الشوارع.. فأخبرها قائلا.. إنه منذ انتشار البغاء فى المدينة وهذه الدوريات من أهل كل شارع يقفون ليحرسوا بيوتهم من عبث أى جندى قد تسول له نفسه الدخول إليها، وكانت كل جماعة من هؤلاء الناس تقترب من موكب الرئيسة لتصفق لها أو تدعو.. وكانت الحجارة وأكوام الرمل وبراميل قديمة فارغة تملأ الشوارع، وكان صوت الكلاب الضالة والقطط الجائعة يدوى فى الطريق كله حتى وصلت إلى مقرها، وكانت الرئيسة قد صمتت بقية الطريق وكفت عن سؤال برهوم.. كانت تبكى مدينتها بانهمار شديد.. وأقسمت وهى تصعد الدرج إلى مقرها بأنها لابد وأن تخلص مدينتها من كل هذا الخزى والفقر والخراب الذى رأته الليلة بأم عينيها..

.. كانت سندس قد أوصلت القائد أن يكون مجنوناً بحبها. ومن شدة شوقه إليها، أنه بات ساهراً حتى الصباح ينتظرها حتى تأتى، ولم تكد رئيسة المدينة تدخل إلى فراشها حتى سمعت طرق الباب، وهرعت كارول لتفتح، فإذا بالقائد يقف أمامها قائلاً:

– كنت قلقاً عليكن طيلة الليل..

فقالت كارول وهى تشير إليه بالدخول:

– كيف تقلق ياسيدى القائد ونحن ذاهبات إلى أهلنا ؟..

– الأمر لايسلم.. وقعد على أول مقعد قابله.. وبدا عليه قليل من الحرج وتابع قائلا:

– أين سندس ؟!..

فضحكت كارول وهى تجلس قبالته:

– قل لى بصراحة أيها القائد لقد جئت من أجل سندس ؟..

– من أجلكن جميعاً.. هل دخلت غرفتها ؟.. أهى متعبة ؟.. أين الرئيسة؟..

– الرئيسة نامت ولا أستطيع إيقاظها..

– نوم الصحة والعافية.. هل لى أن أذهب إلى سندس ؟..

– شئ طبيعى أيها القائد أن تسأل عليها وتذهب أيضاً، ولكنى متعبة وسوف أقفل الباب الكبير لأننى متعبة وأريد أن أنام.. إننا لم ننم طيلة الليل..

– إقفلى كل الأبواب..

– لقد ملأت سندس ليلك أيها القائد !..

– صدقينى ونهارى..

– أفهم أنك لم تعد رجل حرب !..

– لم أعد أعرف أى شئ عن الحرب.. إن بلادكم جميلة.. وجعلتنى رجلاً للحب والعشق..

– إن بلادى لم يعد فيها أى شئ جميل بسبب الحرب..

– تقصدين بسببى..

– هذه هى الحقيقة.. إذا كنت تريد السلام حقاً فارفع يدك عن السلاح وفى إمكانى إبلاغ الأمر إلى الرئيسة، وتكون لكَ سندس زوجة إلى الأبد.. لماذا لاتسلم للمدينة بكل شئ وتصبح واحداً من أهلها ؟.. وستكون بعد ذلك بطل السلام تتوجك المدينة فى يوم ميلاد جديد لك وللناس جميعاً..

– هذا موضوع كبير دعينى أفكر فيه..

– والآن تعال معى أيها القائد..

ومشى خلفها.. وتقدمته كارول لتبلغ سندس بقدومه..

وفوجئت به سندس ولكنها قابلته فى بشاشة فانحنى وقبل يدها أمام كارول.. ولما خرجت كارولين لتذهب إلى فراشها كى تنام.. كان القائد وسندس يسهران فى فراشهما.. لقد كان الحب والعشق هو النوم واليقظة.. كان القائد مندفعاً ينحنى ويقبل ويقسم بشرفها.. لقد خلع بزته العسكرية وعاد عارياً.. وكان يفكر فى شئ واحد قالته كارول له.. لماذا لايصبح بطلاً للسلام ؟.. ولم يكن

يستطيع أن يجيب وسندس تغرقه فيها إنه لن يستطيع أن يفعل أى شئ بعد الآن إلا إذا وافقت عليه سندس.. هكذا استطاعت هذه المرأة الفاتنة أن تخلص منه هذا النهار بهذا الوعد.. وفى الظهيرة راح فى نوم عميق وشدت عليه الغطاء، وذهبت إلى الرئيسة لتبلغها بما وصلت إليه، وبما عاد عليه حال القائد.. كانت الرئيسة لاتصدق ولكنها قالت وهى تتثاءب:

– المهم ألا يكون هذا وعداً فى الفراش..

– سأضحى بالكثير معه حتى يصبح الوعد حقيقة..

وانصرفت إلى غرفتها.. تمشى فى خيلاء وزهو كأنها ستفتح باباً للسلام الأبدى.. وشدت الرئيسة الغطاء على رأسها وانقلبت على جنبها وقالت تحدث نفسها:

– آه يا أنيتة.. سيكون من عجائب الدنيا أن يفتح باب السلام إمرأة مثلك..

وبعد يومين اتفقت الرئيسة مع كارولين وسندس بأن يقمن للقائد عشاءً يليق به، على أن تبدأ الرئيسة فى هذا اللقاء معه مرحلة جديدة فى الحصول على امتيازات للمدينة، خاصة بعد أن هيأته سندس وأصبح لها عشيقاً ولهاناً.. ولما أقبل قابلته سندس وحدها بالقبلات الحارة والأحضان.. ولما أقبلت كارول قبل يدها.. ثم جاءت الرئيسة فى أبهة فقام الجميع يستقبلها، وقبل يدها وهو منحن فقالت له الرئيسة:

– اجلس أيها القائد الهمام.. كيف حالك ؟..

– أهلاً ياملكة هذه الدنيا..

وجلست قبالته تبتسم ابتسامة عريضة، وسندس تشعل له سيجارة، وانطلق لسان الرئيسة كما لم ينطلق من قبل:

– أنا سعيدة بحسن علاقة رئاسة المدينة مع قائد مثلك.. وأنا أثق دائماً فى أنك إنسان طيب، وأظنك كنت لاتنام الليل عندما كان يصل إليك نتائج أى

ضربة من ضربات الطائرات للمدينة، وأنه لولا وشاية زملائك القادة بك لقدمت أشياء كثيرة لنا.. ومع ذلك فإننا نطمع فى الكثير لثقتنا بك..

وكان القائد مبهوراً.. من أين كان له أن يجلس وسط هؤلاء النساء الساحرات.. لقد كان لعبق العطر والملابس الشفافة التى تفصح عن مفاتن الصدور وجمال السيقان، والشعر المنسدل على الأكتاف والعيون الكحيلة والشفاه الحمرزية وسحر الجيد.. وتبلات سندس وأحضانها عند قدومه، وقبلة يد الرئيسة وكارول.. كان لكل ذلك سحر لايوصف فى داخله، فقال وهو يجمع تلابيب نفسه التى تكاد يمسها شئ من جنون السعادة والغبطة التى بلغها:

– ماذا تريدين ياسيدتى ؟.. قولى وسأفعل الكثير..

– مزيداً من الدلعام والعلاج.. افتحوا مخازنكم لأذهب إليها بنفسى وآخذ منها للمدينة ماشئت.. ليفتح الناس حوانيتهم ومعاملهم وليذهبوا إلى مزارعهم ولتسهر المدينة كما كانت حتى منتصف الليل.. فلا يغلق باباً لمطعم أو حانوت أو حتى ملهى أو فندق.. أريدها مدينة حرة..

– فلتبدأ الحياة من الغد ولكن واحدة بعد أخرى ياسيدتى.. سندع الناس تذهب إلى أعمالها فى سلام ودون أن يعترضهم جندى من جنودنا.. وليكن ذلك من الغد.. إننى أستطيع أن أؤثر فى كل القادة زملائى.. عدا قائد الطيران..

ودارت الرئيسة بناظريها إلى كارول قائلة:

– هل تعرفين هذا القائد ؟..

– أحاول ياسيدتى..

– أذهبى إليه ياكارول..

وابتسمت سندس قائلة:

– أنا أذهب إليه لأعرض عليه السلام..

فقام القائد من مقعده دون أن يدرى قائلاً:

– اسمحى لى ياسيدتى.. ألا ترسلى سندس لأحد..

فضحكت سندس بصوت عال، وكادت الرئيسة وكارول تفعلان مثلها.. ولكن الرئيسة قالت له:

– لماذا.. أيها القائد ؟.. أتريدها لك وحدك ؟..

– هذا رجائى ياسيدتى..

– ولكن ذلك سيكلفنا كثيراً..

– سوف أقدم ما أستطيع مقابل أن تكون سندس لى وحدى..ثم إن المدينة فيها الكثيرات.. إنه قائد غبى لايحب النساء.. إن أى إمرأة لن تفعل معه شيئاً..

– بصراحة أيها القائد نحن نقدم السلام لكم جميعاً من أجل المدينة.. إننى فى أول عهدى بمعرفتك لم أتوان لحظة فى تقديم أجمل إمرأة فى المدينة لك.. إنها هدية لرجل قلبه طيب ويريد السلام والخير للناس..وهذه عاداتنا منذ زمن قديم.. لقد قدمنا لك قطعة من أرض المدينة.. وإننا نتعشم بعد ذلك أن تكون من أهلينا.. وعليه فإننى من الغد سوف أرسل العمال لتجهيز أحد البيوت التى نملكها فى المدينة لتكون مقراً لسندس.. فتذهب إليها وقتما تشاء..سيكون بيتاً جميلاً وهو تكريم لك.. وحتى تكون بعيداً عن عيون القادة الآخرين والجند.. ماذا تريد بعد ؟..

وقام إليها وانحنى وهى جالسة.. ومد يده وأخذ يدها فى رقة متناهية وقبلها.. ثم عاد إلى مقعده وقبل أن يجلس قال:

– ماذا تريدين منى بعد ذلك ؟.. أى طلبات أخرى أنظمها فى جدول حتى أنفذ منها واحدة بعد أخرى ؟..

– رباب العاهرة وزميلاتها.. أريد أن تعدم فى ميدان عام حتى يقلع الناس عن الزنا..

– علمت أن قاتل العبد دحروج إمرأة تدعى نيقين جوركى.. فلماذا لانعدمها هى ؟..

– إن رباب تدير أكبر دار للدعارة.. سنعدمها حتى تخاف أصحاب الدور الأخرى.. ونحد من هذا النشاط.. لقد أصبح وباءً خطيراً وينتشر بطريقة مخيفة..

– ولكن جنودى فى حاجة إلى شوارع الهوى.. حتى لايهربوا عبر الحدود.. دعينى ياسيدتى أفعل مايحقق المصلحتين معاً..

– إذاً من أجل جنودك ندع هذا العمل ينتشر فى بلادنا..

– دعينا أولاً نقتص من القاتلة.. وفى الجانب الآخر فإننى سأحقق لك بقية طلباتك واحدة بعد الأخرى..

– لأول مرة فى حياتى أعرف قائداً يتيح تلك الحياة لجنوده..

– أنا لست قائد حرب شريفة.. ولكنى قائد حملة مأجورة.. كل شئ فيها مزيف وقاهر لكل حقوق البشر.. أنا ياسيدتى أستطيع أكثر من أى محام فى العالم أن أقدم مبررات كلها حق وعدل للحكم بإعدام هذه الحملة من أصغر جندى لأكبر ضابط.. لقد أقدمت على عمل غير قانونى وغير إنسانى، ولو كان فى هذا الزمان حقوق للإنسان كما يدعون ماحدث هذا أبداً.. إنهم يطالبون بحقوق الإنسان بعد أن تخرب الدنيا كما حدث لهذه المدينة.. إنها شكل من أشكال السياسة المزيفة لهذا العالم الباغى..

– تتكلم وكأنك رجل صالح مبعوث من بلاد طيبة.. غريب هذا الزمان.. لماذا لايعمل الناس بقولهم أو بمعتقداتهم ؟!..

– سوف أكمل لكنى.. وجال ببصره نحوهن جميعاً وكأنه سيقول خبراً مهماً.. اتفقنا على إعدام قاتلة دحروج وهى فى الأصل زانية.. ماهو موقعى بصراحة.. فى علاقتى من سندس.. ألست عاشقاً وزانيا و..و.. وهى أيضا. ألا استحق أنا أيضاً الإعدام..

واندهشت النسوة من يقظته المفاجئة فقالت له كارول قبل أن تنطق الرئيسة بشئ:

– منذ قليل قلت إن جنودى فى حاجة إلى شوارع الهوى حتى لايهربوا.. كيف تطلب هذا لهم وترجوه أن يستمر.. ثم تقول على نفسك إنك تستحق أن تحكم.. إذاً فلنبدأ أولا بقفل بيوت الهوى وليهرب الجنود.. دعنا نقيم الحق وليحدث بعد ذلك مايحدث..

– أقمن الحق علىّ أولاً..

وقالت الرئيسة وهى تحاول أن تمسك بمشاعرها المتضاربة نحوه:

– هل نبعد عنك سندس ؟.. هل ستقدم لنا السلام والغذاء دون إمرأة ؟.. ألم تلهث وراء هذه اللذة ؟.. حتى أننا جئنا فى يوم وجدناك نائماً فى فراشها تنتظرها فى لهفة شديدة.. قل لى أيها القائد لقد زودناك بشئ تحبه.. وقلنا إنك ستفعل كل شئ من أجل السلام.. ماذا تريد بالضبط وسنفعل لك مانستطيع ؟..

– زوجينى من سندس..

وقامت النساء الثلاث من مقاعدهن.. واتجهت الرئيسة إلى النافذة وفتحتها ونظرت إلى رحاب السماء.. هل تفتحت أحد أبواب الرحمة فيها ؟.. هل هذا أول فاتحة للسلام ؟.. وكانت سندس وكارول فى حالة ذهول تام.. وانعقد لسان سندس بالذات عن الكلام.. وراحت فيما يشبه الغيبوبة.. وانقلبت إليه الرئيسة قائلة:

– أما زلت عند طلبك أيها القائد..

– أقولها ثلاث مرات.. زوجينى منها.. زوجينى.. زوجينى أرجوك..

هزت رأسها فى سعادة بالغة ثم طفقت قائلة:

– نحن الآن بعد منتصف الليل.. ولكنى سوف أرسل كارول فى حراسة الجند.. لتأتى بالشيخ حلمى عمار ليعقد قرانكما حالاً..

– أرسلى ياسيدتى.. وقام إلى الهاتف وتحدث مع نوبة الحراسة لتجهيز عربة لهذا الأمر..

وارتدت كارول ملابس أخرى ووضعت قبعة على رأسها وذهبت إلى الشيخ

فى موكب يخترق شوارع الليل المظلم.. وفى ساعة كانت فيها سحب السماء البيضاء كثيفة منورة.. وكانت هناك فى الأفق نجوم مازالت ساطعة، أحضرت الشيخ وعرجت على دار ثروت المناديلى لتحضره ومعه زميله عبدالرحمن منزلة ليكونا شاهدين على العقد..

وفى صباح اليوم التالى نقلت الرئيسة كل ما يخص القائد وزواجه من سندس إلى المحافظ، وكان مندهشاً وسعد كثيرا بتلك الأخبار ووصفها بالتحول السياسى الكبير، وأرسل لهما مفاتيح البيت الذى سيسكنه القائد مع زوجته.. حتى يتم الانتهاء من تجهيزه.. وأخبرها المحافظ بأنه يزمع إنشاء بنك فى المدينة وأنه ينتظر موافقة الرئيس فى العاصمة..

وكانت الرئيسة تعرف أن الرئيس فى العاصمة يحب النساء، فكلفت كارول بالبحث عن إمرأة تكون مناسبة له حتى يرسلوها إليه.. ليكون بعد ذلك أمر الموافقة على إنشاء البنك سهلاً.. وبعد انتصاف النهار أرسل القائد إلى الرئيسة أمراً لتوقعه بالإفراج عن رباب والنسوة اللائى معها، فوقعت على قرار الإفراج، وبقيت نيڤين جوركى القاتلة حتى يحين يوم إعدامها، وأرسلت الرئيسة برهوم ليبلغ رباب والنساء جميعاً فى حى البغاء بأن يقلعن عن نشاطهن، وأن هناك إعانة شهرية ستصلهن ولكن رباب ومن معها رفضن الإعانة وأبلغن برهوم بأنهن سيمارسن نشاطهن دون قتل أو عنف، وأن عملهن هذا يضعف من قوة العسكر بالمدينة وأن ذلك عمل كبير لاتشعر الرئيسة بأثره.. وفى نهاية الرسالة الشفهية قالت رباب لبرهوم:

- أبلغ الرئيسة أنه عمل وطنى بالدرجة الأولى..

وانتشر خبر إنشاء البنك فى المدينة، وكذلك أخبار النسوة اللائى أفرج عنهن ورفضهن إيقاف النشاط.. وكان أمر إعدام القاتلة يفرض لدى الناس جميعاً إضافة أخرى.. بأنه يجب قتلهن جميعاً حتى تطهر المدينة.. وكان كركور يجرى...

يجرى فى الشوارع حافى القدمين قائلاً بصوت عال:

النخاعة نيڤين.. وأنا صابر.. والخير هاييجى وأنا شاطر..

وكان يقصد أن الخير فى قتل نيڤين.. والشعب صابر حتى ييجى الخير.. وأنا زكى لأنى أبلغكم بالطيب.. وفى يوم القصاص من القاتلة ارتدى كركور ملابس نظيفة وحذاءً أحضرها برهوم له.. ومشى فى المدينة كلها أمام الناس متباهياً بملابسه الجديدة.. كان يوم عيد للناس جميعاً آملين بأن هذا الردع سيؤدى إلى قفل هذا النشاط، وكان يوماً أسود على صاحبات تلك البيوت والسماسرة والوسطاء الذين يتعاونون معهن.. وكان برهوم يكفل كركور.. بالمال والطعام والملبس ما استطاع.. فلم يجع أو يتعرى فى يوم، وكانت رئيسة المدينة تريد إعلاناً كبيراً لهذا اليوم، حتى يشعر الناس جميعاً ببداية عهد جديد، وارتدت لأول مرة قبعة لاحتمال سقوط الأمطار، فكانت كملكة حضرت من أوربا لتشريف مشهد اليوم، وارتدى الضباط المشتركون بزة عسكرية لامعة بها إشارات حمراء بارزة على الأكتاف، وتقدم الموكب طابور طويل من العسكر المشاة.. خلفه ركب قائد الحرب عربته الجيب وحوله ثلاثة من الجنود يحرسونه، وكانت الرئيسة قد أعدت شيئاً جديداً همست به فى أذن برهوم منذ مساء أمس، ودخل طابور الركب فجأة عربة جيب قديمة يقودها أحد الجنود ويقف فى أعلاها برهوم شاهراً سيفه.. وكان هناك عدد كبير من الأهالى قد هرعوا إلى المبنى منذ الظهيرة ليتابعوا الموكب من بدايته، أطفال صغار وبنات فى عمر الزهور ارتدت كل منهن أحلى ماعندها من ثياب، وشيوخ شابت رؤوسهم وعمال تركوا أعمالهم.. وجاء أهل القصر القديم فى عربة مرسيدس بها السيدة الكبيرة وسلامة وولده وسميرة وبسنت، وتبعتهم عربة أخرى فيها ريما وصديقة لها، وقعدت فى المقعد الخلفى سعدية بنت منصور تبكى وتندب زوجها.. وكانت ريما متأثرة بنواحها فسالت الدموع من عينيها بين الفينة والأخرى، واندهشت من زوجها لركوبه عربة فى أول الطابور.. وقالت لصديقتها.. يبدو أن نيروز كلفته

بمهمة ما.. لماذا يشهر سيفه إذاً.. وقد تكون مهمته ترويع قلوب من تسول لهم نفوسهم اقتراف جرائم مثل القتل والسرقة.. وراحت بعد ذلك تبكى كلما صرخت سعدية ونوحت.. وحرس الموكب عشرة جنود يعتلون عربة عسكرية مدججين بأسلحتهم.. وكان الناس يقتربون من عربة السيدة الكبيرة ويلوحون لها ثم يهتفون عاشت السيدة الكبيرة، فكانت تفتح زجاج السيارة قائلة لهم:

– قولوا تحيا الرئيسة.. تحيا الرئيسة.. (فيقولون بصوت هادر.. تحيا الرئيسة ويهرولون إلى مركبتها فتلوح لهم بيدها، وكانت كارول تجلس بجوارها وسندس خلفهما ترفع بيدها مظلة كبيرة تحمى بها رؤوسهن من رذاذ المطر الذى بدأ يتساقط..

وقالت كارول للرئيسة:

– هذه هى أنت فى قلوب الناس محبوبة من جميع أهل المدينة، وسيزداد حبهم لك يوماً بعد يوم عندما يصلهم الخير ويشعرون بالأمان..

وداعبتهما سندس قائلة:

– لماذا لاتهتفون بسندس.. ألم أقض على قائد الحرب.. إن السلام لن يدخل المدينة إلا عن طريق راقصة مثلى لها وجه جميل وساق .. و ..

ولم تستطع الرئيسة وكارول كتمان ضحكاتهما العالية.. لقد انتزعت سندس ضحكات أخرى من قلب الرئيسة وكارول.. غير أن كارول أرادت أن تهدئ من قفشاتها المتتالية فقالت لها:

– ألا يكفيك أن تكونى فى عربة الرئيسة ؟.. أنت لاتعرفين أهل المدينة كما أعرفهم.. صدقينى ياسندس إنهم سيقولون من الآن أن سندس ستصبح أمينة للمدينة.. وأنك ستقيلينني من مكانى بجوار الرئيسة..

– لا .. لا .. أنا أعرف مكانى ولا تبالغى ياكارول.. إن مهمتى تنحصر فى إزاحة أى قائد عن موقعه.. وفزعت الرئيسة والتفتت إليها وقالت

– إننى لن أستخدمك مرة ثانية فى أى مهمة أخرى.. لقد تزوجت من

أكبرهم.. وسوف ترحلين خلال أيام عن المبنى وتذهبين إلى بيتك.. وكل ما أطلبه منك بعد ذلك أن تبعدى القائد عن الحياة العسكرية وتجعليه ينسى تماماً لماذا جاء إلى هنا..

وفجأة ظهر وكأن الناس قد ذعروا من شئ.. فاذا بخمسة جنود يمتطون صهوة جيادهم.. وكان وقع الحوافر قوياً ووجوه الخيالة قد بدا عليها الكبرياء والصرامة.. ومرقت عربة المحافظ بصعوبة بين الناس.. وظهر خلفه طابور من العاملين فى مبنى المحافظة يهتفون:

– عاش المحافظ.. عاشت الرئيسة.. عاش آل الخالدى..

ولم تستطع السيدة الكبيرة أن تقاوم مشاعرها المتضاربة فبكت.. وأخذت تردد قائلة:

هذا يوم السعادة يوم النصر.. هذه ابنتى وهذا زوجى.. إنه حقاً يوم العدالة..

وكانت عربة مثل عربات الأثاث تسير ببطء خلف هذا الركب.. وكانت الجموع الغفيرة قد ملأت الميدان، ولما وصل أول الموكب، وجدوا أكثر من خمسين جندياً ينزلون من عربة نقل كبيرة وقد حمل كل منهم بندقيته على كتفه.. وكونوا شبه دائرة حول سرادق صغير فى قلب الميدان.. صُفَّت فيه مقاعد ومناضد وفرشت أرضيته بسجاد رمادى.. وأمسك الجنود بحبل سميك جعلوه فى أيديهم حزاماً يمنع الجماهير عن السرادق وخيمة كبيرة تغطى طبلية المشنقة التى أعدها الجند فى ساعات قليلة.. ونزل السادة من مركباتهم وتوجهوا إلى مقاعدهم يتقدمهم المحافظ ثم الرئيسة بحاشيتها.. وكان القائد يرسل حارسه بين الفينة والفينة للاطمئنان من قائد المشاة على النظام والأمن بين الجماهير وفى داخل الميدان.. ولما اطمأن ذهب ليصافح المحافظ بحرارة ويجلس بجواره، وتم إزاحة الخيمة من فوق الطبلية فخفقت لها القلوب خوفاً وفزعاً، وتقدم برهوم فى خطى ثابتة يقف عند المشنقة وقد شهر سيفه لأعلى وأخذت الجماهير هذه المرة

تصرخ..لوابتعدوا عن الحبال التى يمسك بها الجند.. وكأن سيف برهوم وحده كفيل بالحيلولة بين الجماهير والسادة وكانت ريما تشعر بالفخر لما شاهدت دور برهوم أمام عينيها.. رمزاً للقوة والسيطرة يؤثر فى الصغير والكبير. وكانت العاهرات يقفن مع بعضهن تتقدمهن رباب يبكين ويندبن حظ زميلتهن فى أسى.. وأحاط الجند بباب عربة النقل الخلفى حتى خرجت نيڤين جوركى وقد عصبوا عينيها بقماش أسود وأمسك بيديها جنديان.. كانت مذعورة تلتفت يمنة ويسرة، وكان بعض الجنود من الخلف يدفعونها دفعاً إلى الأمام كلما وقفت، وعلا صراخ الناس وكانت العاهرات تنوح وينادى بعضهن عليها بأصوات خافتة واهنة، وسقطت من بين أيدى الجند مرتين.. وحملوها بصعوبة ثم جروها إلى المشنقة، وأخذ جمهور من الناس يهتف.. الله أكبر.. الله أكبر.. يسقط الدنس.. فلتشنق كل العاهرات، ولفوا الحبل حول رقبتها فلما تهاوت نحو الأرض.. شد الجنود الحبل فرفعها عن الأرض.. ولم تعد تستطيع أن تتهاوى نحو الأرض وإنما تهاوت إلى الفراغ بين قدميها وخشب الطبلية، ونفخ جندى فى بوق فسكت الناس، وعوت نيڤين.. ثم طالت رقبتها فانقلبت بوجهها مرتين يمنة ويسرة واهتز الجسد كأنه يرتعد.. ثم بدا وكأنه ذبيحة سيتم سلخها بعد قليل.. ارتخى الجسد تماماً وعاد خاليا من أية حياة.. لقد ماتت.. ثم تقدم برهوم فى جسارة وهوى بالسيف على رقبتها ففصل الجسد عن الرأس.. وهنا جرى كثير من الناس مذعورين إلى دورهم.. وراحت كثير من النساء العاهرات فى غيبوبة، وأخذت رباب ترمى بالتراب فوق رأسها ثم تشنجت وارتمت على الأرض فحملتها زميلاتها وأخذن ينصرفن جميعاً إلى شوارعهن.. وأخذت السيدة الكبيرة ابنتها ريما فى أحضانها تحاول أن توصل إليها معنى دور برهوم وأنه بذلك رمز للردع وقوة النظام كله.. غير أن ريما كانت تبكى وتقول.. لم يعد زوجى.. لا أستطيع ولا أتصور أن يكون زوجاً لى بعد اليوم.. لقد تلطخ بالدماء.. كيف أقبله فى فراشى بعد اليوم.. وأخذ الناس طيلة الليل يحكون كيف شنقت نيڤين، وكان أكثر ما

أدخل الرعب فى قلوبهم هو مشهد برهوم لما فصل الرأس عن الجسد بسيفه.. وفى صباح اليوم التالى كان قائد الطيران يقوم بالقبض على قائد الحرب ومعه بقية القادة.. لقد كلفته قيادته فى بلده بالقيام بهذا العمل لما علمت منه إنحراف القائد عن مهمته.. وكانت التعليمات التى وصلته بأن هذا القائد قد خان بلده فعليه أن يلقى به فى السجن حتى يحين موعد محاكمته.. وفى هذا اليوم هرب كثير من الجنود وعدد من الضباط فارين إلى بلادهم.. وكان المحافظ وأعوانه يساعدون العسكر على الهرب عبر الحدود بحملهم فى عربات نقل حتى يصلوا إلى نقطة داخل حدود بلدهم.. ولما علم المحافظ بأن العلاقة قد ساءت بين الرئاسة فى العاصمة وبين الدولة المجاورة صاحبة هذه الحملة.. وأن سبب ذلك هو الاختلاف على المبالغ الواجبة الصرف لهذه الدولة حتى تتم مهمتها على الوجه الأكمل.. أرسل المحافظ فى طلب سيد أبو عاطف حتى يقوموا بعملية تخريب كبيرة داخل معسكراتهم.. وفى مساء ذلك اليوم ذهب سلامة إلى مبنى المحافظ ليبلغ المحافظ، بأن الوقت أصبح مناسباً للقيام بعملية تدمير الطائرات وأنهم سيقومون بهذه المهمة قبل بزوغ صبح هذه الليلة، وأرسل المحافظ مندوبا إلى المسجد الكبير ليبلغ شيخه بأن يبتهل إلى الله كثيراً هو وجماعته فى صلاة الفجر.. ثم عرج المندوب على الكنيسة ليبلغ القس بأن تدق الكنيسة أجراسها قبل بزوغ الشمس.. وكانت الجماعة قد تدربت على تنفيذ عمليتها فى بطن أحد الجبال وكيف يخترقون سور السلك الذى يلف مهبط الطائرات، وفى بيت ثروت المناديلى الخال من الأثاث ومن الطعام.. إلا من خبز قديم وطبق به بقايا جبن.. أخذت الجماعة تقتات منه قبل تحركها من البيت.. ثم قاموا إلى الماء وصلوا معاً ركعتين يسألون فيها الله السداد والنجاح.. وحمل كل منهم بندقيته وكيساً من القماش فى داخله القنابل التى تدربوا عليها.. وفى الثالثة خرجوا من البيت فى موكب صغير.. واجتازوا شارعاً بعد الآخر.. وكأنهم يمشون تحت الأرض.. كانت ظلمة الليل وسكون المدينة ونوم أهلها العميق فى هذا الوقت خيل لهم أن يمشوا

حتى وصلوا حدود البلدة دون أن يراهم أحد وجاءتهم عربة كارو تبرع بها صاحبها لتحملهم بسرعة، وفوق العربة انبطحوا جميعاً وتصنعوا النوم، وقام داود عوض صاحب العربة بتغطيتهم ببطانيات قديمة، وكأنهم عمال ذاهبون لأعمالهم ويأخذون قسطاً من الراحة.. وقال عبدالرحمن منزلة لصاحب العربة:

– اذهب من منزل عامر.. طريق ضيق بين مزارع الغاب ولايسير فيه أحد هذا الوقت.. وضرب داود حماره قائلاً:

– من منزل عامر يابيومى..

وبعد كيلو مترين كانوا جميعاً يغطون فى نوم عميق، وأوقف داود حماره لينام معهم قليلاً، لكنه بعد قليل من الوقت هجم كلب ضال على الحمار الذى أخذ يرفسه وينهق مستغيثاً بصاحبه، فهرول داود بسوطه خلف الكلب الذى فر مسرعاً.. ولما عاد ساق حماره وأخذ يغنى حتى لا تأخذه غفلة مرة ثانية، ومرت العربة بمزارع للشعير والذرة وأشجار التوت والنبق.. وكذلك كثير من العشش التى قد تكون آهلة بسكان عملهم فلاحة هذه المزارع، لكن الحمار وصاحبه لم يصادفا مخلوقاً ابن يوم واحد.. لكن شخير الجماعة الشديد كان يشد صاحب الكارو بأن يوقفها ويذهب فى نوم يغالبه، وتوقف الحمار عند ترعة مملوءة بالماء تسد عليه الطريق.. وأيقظهم داود بصعوبة واحداً بعد الآخر.. ونزلوا حاملين أدواتهم، وقال لهم داود:

– إن حمارى لايستطيع تجاوز الترعة.. هل تريدوننى لشئ آخر..

فقال له سلامة:

– عد إلى بيتك لقد قمت بعمل كبير..

وزعق داود فى حماره قائلاً:

– النخاعة ولد.. النخاعة صابر.. ولسع الحمار بالسوط على مؤخرته.. ولما كان الحمار يسرع إلى بيته.. كانت الجماعة تعبر مياه الترعة على فرع شجرة.. وفى الجانب الآخر كان عليهم فى هذه الظلمة الحالكة أن يجتازوا غابة كثيفة

تمتلئ بالثعالب والجرذان والثعابين.. وتقدمهم سلامة يناديهم ويرشدهم.. ومن خلفه سارت الجماعة واحداً بعد آخر،، غير أن فتحى حسنى وقع على الأرض لثقل وزنه.. فتركوه يحاول مواصلة السير خلفهم، وصرخت الجرذان لما هبط عليها، واندعرت الخفافيش فطارت فوقهم محاولة الزود عن أعشاشها التى أقامتها فى قمم الغابة، وبدأت تضطرم برؤوسهم ووجوههم، وبدأوا ينحنون محاولين إخفاء وجوههم من هياج الخفافيش، وكان الطريق يعلو بهم ويهبط، وزعق ثروت المناديلى لما داست قدمه جحراً للجرذان وعضه واحد منها فى إصبعه، ومن صعوبة الطريق وظلمته وتخبطهم فيه، اعتقد عبدالرحمن منزلة أنهم ضلوا وسط الغابة فلن يصلوا لنهايتها حتى يطلع الصبح وقال:

– ألم يكن هناك طريق آخر.. لقد أنهكت قواى هنا ولم يعد منها شئ..

ورد عليه سيد أبو عاطف مطمئناً:

– لقد اقتربنا.. إن الرياح بدأت تلفحنى.. وأرى من بعيد أشجار المطار وكأنها ضباب كثيف.. وتوقف سلامة فى نهاية الغابة وقال بصوت خفيض:

– وصلنا هلموا ياجماعة.. إن الأسلاك تكاد تحضن البوص..

– أية أسلاك..

– تعال ياثروت.. أسلاك السور الذى ترقد فى أحضانه جيوب الطائرات..

وشهق ثروت:

– يا إلهى وأين الطائرات ؟..

– فى داخل جيوبها – أنفاق محفورة بالأرض..

وجلسوا على الأرض ليلتقطوا أنفاسهم.. وأخذ سلامة يشرح لهم قائلا:

– سوف أدخل واتبعونى فرادى واحداً بعد الآخر.. وإذا قابل أى منا جندياً التحم معه وضربه بالسونكى فى مقتله ولا هوادة فى الالتحام.. إن لم تقتله قتلك وافتضح أمرنا.. كل منا سيدخل مهبطين للطائرات أو ثلاثة حسبما ينتهى يهرع إلى مهبط آخر.. يضع تحت كل طائرة ثلاث قنابل، بين كل قنبلة

مسافة ثلاثة أمتار تبعد عن الأخرى حتى لايبقى فى الطائرة شئ.. ضبط الفتيل مهم كما تدربنا.. لاينقصنا غير الشجاعة والهمة وسرعة التنفيذ، ماننا متر تقع بأنفاق، كل منا يقتحم فى اتجاه كأننا ننطلق لنشكل نصف دائرة، وبعد أن ينتهى كل منا يذهب إلى الآخر ليساعده.. ثم نلتقى فى نقطة.. بعدها نفترق ونعود.. إلى نفس هذا المكان فى حماية هذه الصخرة كما نحن الآن.. سنعود جميعاً بأمر الله كما نحن الآن.. وتقدمهم سلامة واجتازوا سور السلك الشائك، مروا منه كالثعالب الذكية.. فى ظلمة من ليل بقيت تغطيهم، وفى سرعة مذهلة كان كل منهم داخل نفق من الأنفاق، ولم يجد أى منهم صعوبة فى وضع قنابله تحت طائرتين أو ثلاث، والغريب أنهم جميعا لم يقابلوا جندياً واحداً يحرس تلك المطايط، ولم يكن أحد منهم يعرف أن الرئيسة وكارول وثالثتهم سندس.. وقد ارسلن خمس نساء من حى البغاء إلى خيمة جنود الحرس، فلما وصلت النساء عند منتصف الليل إلى خيام الجند اعتبروها هدية نزلت عليهم من السماء، ولم يدر الخبر فى المطارين الجنود اختفى كل جنود الحراسة حول تلك الانفاق وداخلها، ذهبوا جميعاً إلى خيامهم ليأخذ كل منهم دوره فى تناول الوجبة الشهية.. وكان معلوماً أن جنود الطيران يدخلون المدينة يعبثون طول الليل فى ملاهيها ودور العاهرات. ولكن الرئيسة ونساءها أردن بهذه البعثة التى أرسلوت إلى خيام الجند.. القضاء على البقية الباقية منهم.. ولما عادوا جميعاً مسرعين تمالأهم البهجة.. جلسوا قليلاً عند الصخرة.. ثم أخذوا فى اجتياز الفاة مرة أخرى عائدين منتصرين إلى ديارهم، لكنهم فى العودة.. كان كل منهم يرى موضع قدمه.. لقد بزغ أول ضوء للنهار، ولكنهم بعد وصولهم إلى الترعة. اقترح عليهم سلامة بأن يعودوا. واحداً بعد الآخر إلى دار ثروت المناديلى.. فضحك ثروت من هذا الاقتراح وقال:

– هل عجبك ياسيد سلامة الخبز الناشف والجبن والمش ؟..

– سوف أذهب إلى القصر لأحضر طعاماً دسماً تستحقه أفواهكم

العطرة..

وقالوا جميعاً فى صوت واحد:

– نحن فى حاجة إلى وجبة طيبة.. نتمنى أن تفعل ياسيد سلامة..

ولما دخلوا المدينة اتخذ كل منهم مساراً مختلف عن الآخر، واتجه سلامة إلى القصر ليخبر السيدة الكبيرة بما حدث، ومن سعادتها أخذت بيدها تملأ حقيبة كبيرة بما لذ وطاب من الطعام.. وهناك كانت الجماعة قد أشعلت ناراً قوية من حطب أشجار العنب، وتجمعوا جميعاً يجلسون القرفصاء حولها ليشبعوا من دفئها وهم فى قمة سعادتهم.. ولم تمر لحظات من دخول سلامة بالحقيبة.. حتى انفجرت المدينة ونورت مشارفها من ناحية المطار.. كان أهل كل بيت يعتقدون وهم يفزعون من نومهم على تلك الأصوات الرهيبة، أن حملة أخرى جاءت تدك المدينة.. لكنهم وجدوا شيئاً آخر أسعدهم وشفى مافى صدورهم.. كانت المدينة كلها عن بكرة أبيها فوق الأسطح وفى الشرفات وفوق قمم المساجد والكنائس ترى بأم عينيها طائرات العدو وهى تحترق.. وأخذ قائد الحملة يجتمع مع ضباطه ليومين متتاليين.. وكانت سندس تحب زوجها قائد الحرب الذى زج به فى غياهب السجن.. والتى قامت بتنظيم مظاهرة من النساء تطالب بالإفراج عنه، ولما طلع إليهم قائد الحملة الجديد ناداهم من الشرفة قائلاً:

– إذا كنتم تريدون حقاً الإفراج عنه.. أخبرونى عن الجماعة التى دمرت طائراتنا.. وكان الضباط حوله مذعورين من مظاهرة للنساء.. لم يتبق أى شئ فى أيديهم حتى يدكوا المدينة كما كانوا يفعلون من قبل..

وجالت سندس بعينيها حواليها ثم زعقت قائلة:

– لك جنودك باستطاعتهم معرفة من ضرب طائراتك، وأنا إمرأة ضعيفة فى مدينة لكم فيها اليد القوية التى تستطيعون بها أن تفعلوا أى شئ.. أخرجوا زوجى من السجن ودعونا نعيش..

وفوجئ القائد بما تقول فتلفت حوله مندهشاً وقال لمساعده:

– تقول زوجى.. هل تزوجها حقاً ؟!..

فقال له الضابط فى جسارة:

– وماذا يهم ؟.. إذا كان هذا صحيحاً فهو فى كل الأحوال ينتظر محاكمة..

وهز رأسه كأنه يعلم ذلك لأول مرة وقال:

– اذهبوا إلى رئيسة المدينة وأبلغوها أن القائد يريدك فى الشرفة..

وهرول أحد الضباط إلى جناح الرئيسة.. التى كانت منذ وصلت المظاهرة تحييهن هى وكارول من نافذتها فى محاولة لتشجيعهن.. لترى فى نهاية الأمر علامات تأثير هذه المظاهرة على قائد الحملة خاصة بعد فقده آلته الحربية الفاعلة.. ولما طرق الضابط الباب أسرعت كارول وفتحت له قائلة:

– ماذا جرى أيها الضابط ؟..

– أخبرى الرئيسة بأن القائد يطلبها فى الشرفة..

– الشرفة ؟.. لماذا ؟.. هل هناك شيئ بالخارج ؟ إننى أسمع صراخ نساء منذ وقت..

– إنها سندس.. ألا تعرفين وهى تعيش فى جناحك ياكارول ؟..

– لقد تركت الجناح منذ أن اعتقلتم رجلها..

– رجلها.. هل هى حقاً زوجة له ؟..

– لقد علمنا بهذا منذ أن غادرتنا.. علمنا كما علم الناس جميعاً..

– أرجوك هات الرئيسة..

– الرئيسة كانت تنوى قبل أن تطرق الباب أن تنزل لهؤلاء.. أظنها الآن قد أكملت ارتداء ملابسها.. إذهب.. وأبلغ القائد بقدومها.. ومشت الرئيسة بخطوات ثابتة إلى الشرفة وخلفها كارول، ولما دخلت إليهم لم تنتظر حتى تسمع من القائد لماذا يريدها، ولكنها توجهت إلى المظاهرة قائلة بصوت عال جداً:

– ماذا تردن ؟

فصحن جميعاً وقد حملن على أكتافهن سندس.. ولكنها لم تفهم شيئاً.. كان الصياح قد غطى على صوتها المبحوح.. لم تعد سندس قادرة على إخراج صوتها.. وكأن كرة صغيرة قد سدت حنجرتها، فزعقت إمرأة منهن:

– تريد زوجها القائد.. أفرجوا عن زوجها القائد السابق.. أخرجوه لها من السجن.. وفغرت الرئيسة فاها ونظرت حواليها وكأنها تسمع الخبر لأول مرة فقالت وهى تمسك بأذنها فى محاولة للتأكد مما سمعته:

– ماذا تردن ؟..

– القائد السابق أطلقوا سراحه.. إنه زوجها..

وهمست فى أذن القائد الجديد قائلة:

– ماذا تريد أن أقول لهن حتى ينصرفن فى هدوء..

– قولى لهن كما تقول رئيسة المدينة..

– انصرفن من هنا.. وسوف أبحث الأمر مع القائد..

– خراب ياغزاة.. ارحلوا عن بلادنا.. وأخذت سندس تصرخ بهاتين العبارتين، وتردد خلفها النساء، وكأنها لم تسمع الرئيسة، وعلا صوت الرئيسة مرة أخرى.

– إذهبى ياسندس.. إن القائد سيلبى طلبك..

– قولى له أن يرفع صوته ليعدنا بذلك..

– وزعق القائد قائلاً:

– كما تقول الرئيسة.. أعدك ببحث طلبك معها..

وكانت الجياد بوقع حوافرها وطرقعتها حول المتظاهرات، واتخاذها شكل حبل دائرى ملأ الميدان ولف جموع النساء جديرة بتفريقهن.. وبعضهن خرجن عن نطاق المظاهرة وأخذن يهربن إلى الشوارع والأبنية المجاورة، ولم تجد سندس رداً آخر من الرئيسة غير أنها ستبحث مع القائد هذا الأمر، وفى ومضة عين كانت سندس ترفع يدها نحو الشرفة علامة بانتظار الوعد، وتقدمت أمام

النساء وأخذن ينصرفن جماعة بعد الأخرى.. وهمست سندس فى أذن إمرأة:

– عند هذا الحد يكفى.. لقد روعتنى هذه الجياد.. كنت أريد أن أصرخ وأشتم كل من كانوا فى الشرفة..

– حتى الرئيسة..

– كنت أريد أن ألعنهم جميعاً.. ولكن من يضمن عدم اختراق الخيالة أجساد النساء بخيلهم كما حدث فى جموع سابقة..

– مازالت الحملة قوية.. أليس سلاح الفرسان هذا من علامات قوتها والمدرعات والذخيرة.. ألا تدل على أنهم مازال لديهم الكثير ؟..

– ولكنهم ليسوا بقوتهم حين كانوا يملكون سلاحاً للطيران..

وأسرعن الخطى إلى بيوتهن.. كانت النساء تهرول خائفة من طرقعة حوافر الجياد بالأرض وقد أخذت تتفرق وتجتاز الشوارع المحيطة بمبنى المدينة. حتى يطمئن الفرسان إلى أن النساء لن يتجمعن ثانية فى مكان آخر، وأن كل واحدة منهن دخلت بيتها وقفلت بابه..

وكانت آخر ماتوصلت له الاجتماعات، أن صدر تكليف الضباط والصف بحصر الأعداد والأطقم وعدد الدبابات الصالحة. والعربات المدرعة الجاهزة والأخرى التى تلزمها صيانة، والأفراد الهاربين بعد ضرب المطار، وناقشت الاجتماعات فكرة إعدام حرس مهابط الطائرات، ولكن ماذا يفيد إذا تم وضع أعداد كبيرة فى السجن.. من يضرب المدينة انتقاماً من عملية المطار ؟ واكتفى القائد والضباط بجزاءات مالية وطوابير ذنب وتعذيب قاسى.. حتى إذا حلّ الليل ذهب كل منهم إلى عمله.. وكانت رئيسة المدينة قد أرسلت للقائد مذكرة مفادها أن المجاهدين فى الجبال هم الذين قاموا بهذه العملية الكبيرة، وهى إذ تأسف لهذا العمل التخريبى.. فإنها تضع يدها فى يد القائد وضباطه من أجل معالجة الأمور بالحكمة، ولم تكن هناك أية حقيقة ظاهرة للقائد حتى يتصرف بطريقة مناسبة.. ترضى سادته وتسيطر على المدينة كما يريدها مجلس الرئاسة فى

عاصمة هذه الدولة.. وبعد أيام بدأ تدريب شامل لكل الفروع فى ممرات المطار.. وكانت الرئيسة لاتنام.. تسهر حتى فجر كل يوم مع كارول لتدبير ماتقوم به من عمليات تقضى على هذا القائد الجديد، وأرسلت رسالة إلى القائد الجديد تفيد.. بأنه منعاً لمظاهرات أخرى للنساء. فإنها ستحدد حرساً على بيت سندس حتى لاتخرج من بيتها أبداً لقد أبرزت أنها تحب زوجها بجنون وقد تقوم فى الأيام القادمة بأى عمل يتنافى مع الأمن والاستقرار، ورد عليها بالموافقة ولها أن تفعل.. وأخذت كارول جندياً تعرفه وأقامته حارساً على بيت زوجة القائد.. وكان هناك جندى آخر يقوم بشراء حاجياتها من السوق، أما الراقصة سندس فقد اختارت صديقة شبابها امرأة تدعى إيناس جاسر لتشاركها حياتها فى هذا البيت الكبير الذى أعدته الرئيسة لها.. وكانت إيناس هذه امرأة خمرية اللون بضة الجسد رشيقة الحركة، كثيراً ماتفكر لسندس وترشدها ماذا تفعل من أجل زوجها.. وفى يوم قالت لها إيناس:

– فى إمكانك استخدام محمد كمال لإخراج زوجك من السجن..

– محمد كمال.. وماذا يعمل هذا الرجل ؟..

– إنه اللص الشريف الذى استولى على مخازن الأعداء من قبل.. وهو متخصص فى فتح الأبواب المغلقة.. واعتدلت فى جلستها وأردفت قائلة:

– ولكن هذا الرجل لايقوم بأى عمل إلا إذا كان مقتنعاً به..

وراقت الفكرة لسندس ولمعت عيناها وقامت تمشى نحو النافذة، وتطلعت بعينيها فى الأفق اللامحدود.. وإيناس تراقبها.. ومكثت قليلاً ثم ألقت نظرة سريعة فى عرض الشارع الضيق، وامتلأ قلبها بشعور الاحترام لإيناس، وأقبلت نحوها قائلة:

– ما الذى يحبه هذا اللص ليقتنع بالعمل الذى يقوم به..

وابتسمت إيناس لتخبرها بما لم تكن تعلمه:

– عندما كنت ترقصين فى الملاهى قبل الحرب، كان هذا اللص من أشد

الرجال انبهاراً بك..

– وهل يريدنى أن أرقص له فى الملاهى.. لقد تغيرت أحوالى وتبدلت..

– لن ترقصى له.. إن كثيراً من الرجال يقومون بأعمال كثيرة من أجل النساء.. خاصة إذا كانوا يميلون نحو امرأة بشعور ما.. إننا لن نخسر شيئاً إذا أرسلنا فى طلبه لنبلغه بالفكرة..

– أتركبين الخيل ؟..

– عندما كنت صغيرة.. كان أبى ميسور الحال وترعى فى أرضه الخيل..

– إذاً خذى الحصان من مربطه واذهبى حالاً إلى الرئيسة وكارول لتبلغيهما بالفكرة..

وكان ظلام الليل قد بدأ ينسدل، وبرشاقة امتطت إيناس ظهر الفرس الذى حملها بسرعة إلى الرئيسة وكارول.. وانبهرت إيناس بأضواء وممرات وردهاليز المبنى الكبير، فشعرت بابتهاج رائع أكسب خيالها بلاغة عالية حين بدأت تعرض فكرتها على الرئيسة وكارول، حتى أنهما ظنا أن القائد قد خرج قبل أن تنتهى من تفاصيل حكايتها عن اللص وبراعته فى تنفيذ مثل هذه المهام، ولكن الرئيسة رغم انبهارها بطريقة إيناس فى الإلقاء واستحواذ الفكرة على حواسها، كانت قد أيقنت بأن دخول القائد السجن بيد زميله انتقام من الله، وأنه لابد أن يأتى يوم على الظالمين يقضى كل منهم على الآخر، أليس هذا الرجل هو من سفك الدماء وخرب الديار.. ومازال الخراب يهيمن على كل أثر للحياة فى المدينة ؟.. كل هذا ماصنعت يداه.. فلينتقم الله منهم واحداً بعد الآخر.. لكنه فى نفس الوقت خامرت رأسها أفكار كثيرة.. لماذا لاتلعب بكل شئ حتى نهايته ؟.. لقد صنعت بنفسها وكارول الكثير مع هذا الرجل من أجل القضاء على الحملة جزءاً بعد آخر.. انه يعرف كل أسرار مخابئ الذخيرة والعتاد والمدرعات، وأوهجت فكرة إيناس ذهنها كما لم يحدث من قبل، رسالة أتت بها امرأة لم تعرفها.. امرأة جديدة تكسبها جماعة النساء التى تعمل معها.. أليس فى ذلك زاد وقوة؟..

لابد أن تكمل كل شئ حتى النهاية.. ولو دخل كل الضباط الكبار السجن.. ستخرجهم جميعاً مادام فى ذلك دفعة لتحصل المدينة على سيادتها.. هكذا دارت الأفكار ولمعت فى الأفق البعيد..

وأخذت إيناس من يدها فى رفق كمن تبلغها ثناءً على رسالتها وقالت:

– هل أنت من هنا ؟..

وخفق قلبها وسرى فى جسدها رعشة وقالت:

– هل قلت شيئاً خطأً ياسيدتى ؟.. نعم أنا من هنا..

– فى أى حى نشأت..

– أنا ياسيدتى لست من الأحياء.. ولكنى أتيت إلى المدينة من قرية صغيرة تبعد كيلو مترين من هنا، وكنت صديقة قديمة لسندس..

– وهل تستطيعين مع سندس واللص الشريف تنفيذ هذه العملية..

– جربى ياسيدتى.. اعطنى إشارة البدء لأذهب بها إلى صديقتى..

وصافحتها الرئيسة بقوة وقبلتها ثم قالت لها:

– سوف أنتظر ماتسفر عنه مشاوراتكما مع اللص الشريف.. أبلغانى بكل شئ أولاً بأول.. والطريق إلى مكتبى مفتوح..

وأخذتها كارول من يدها حتى الباب وقبلتها بعنف..

ولما كان القائد الجديد يريد عرضاً عسكرياً يدخل البلدة ليعيد الهيبة لعسكره، كان هناك ضباط آخرون غير راضين عنه، ولقد حاولت الرئيسة أن تثنيه عن هذا العرض ولكنه أبى، وكثيراً ماحدثته فى الهاتف محاولة إقناعه أن تخريب الطائرات تم بفعل المجاهدين فى الجبال، وأنه لا أحد فى المدينة يجرؤ على مثل هذا العمل، غير أن هذا القائد كان يرتاب كثيراً فى قول الرئيسة، ويعتقد إن لم يكن هناك رجال فى المدينة يستطيعون القيام بذلك.. فإن نساءً عاهرات فاجرات قمن به ليكفرن عن ذنوبهن أمام المحافظ والرئيسة، غير أن الرئيسة فى محاولة أخيرة أرسلت كارول إلى سلامة للإعداد لمظاهرة تجوب

البلدة مستنكرة التخريب الذى حدث.. ثم تتجه بعد ذلك إلى مبنى المدينة.. تهتف وتندد بالإرهاب.. تؤكد أن المدينة جميعها مع القائد الجديد.. وفى صباح أحد الأيام تجمع مئات الرجال والنساء وجابوا المدينة شمالاً وجنوباً حتى تمركزوا أمام المبنى بهتافاتهم وصرخاتهم التى رجت الميدان، وخرجت الرئيسة إليهم ومعها كارول تحييهم وتشجعهم، ولما أرسلت فى طلب القائد ليطل معها من الشرفة على المتظاهرين.. أرسل لها جندياً يعتذر عن لقائهم.. وأشارت لهم بأن ينصرفوا..

ولكزت إيناس الفرس فانطلق بها إلى دار اللص الشريف، كانت الأحلام والأمانى تتجلى فى رأسها، وإنه لحظ من السماء نزل عليها أن تقوم بأى عمل يخدم المدينة، ولما طرقت الباب خرج إليها رجل طاعن فى العمر فقالت له:

– أين محمد كمال ؟..

– محمد.. ومن أنت ؟.. سيدة تركب فرساً تريد إبنى.. ولماذا تريدينه ؟.. قالها وهو يدفع الباب بكلتا يديه ليقفله.. فلكزت الفرس ودخل بها.. وضرب الباب برأسه فوقع الرجل على الأرض وأخذ يتهته بكلمات تخرج من فيه وكأنه يبصق ويلعن.. وضربته إيناس بطرف السوط وهو يحاول أن يقف ويتمتم قائلا:

– أتضربينى فى بيتى..

ونزلت عن صهوة جوادها وقالت فى عصبية وهى تضرب بقبضتها باب الغرفة الوحيدة فى البيت:

– أهو بالداخل ؟.. من أنت أيها الرجل الرث ؟!.. وأخذت تضرب الباب بسوطها.. واندفع الرجل يمسك بمقبض الباب حتى لاتستطيع أن تدخل.. ولكن الرجل لم يستطع أن يقاوم محاولتها كسر الباب، ولما أتاها صوت بالداخل تمهلت قليلاً، ففتح لها رجل حاسر الرأس مهزولاً وقال وهو يرتعش خوفاً:

– لست أنا محمد كمال.. أنا رجل غريب لست من هنا..

وتقدم الرجل العجوز إليها قائلاً:

– هذا رجل ضل طريقه فى المدينة فأويته فى بيتى حتى الغد ليخرج إلى حال سبيله.. وإندفعت إلى الفراش فى عصبية وهى تقول:

– ولماذا لايكون هذا هو اللص الشريف وأنت تنكره منى.. إننى أريده فى مهمة هائلة..

وأزاحت الغطاء عن جثة راقدة فإذا بها ترى امرأة عارية تماماً من ثيابها..

وتقدم صاحب الدار مذهولاً وهو ينحنى على ركبة إيناس محاولاً تقبيلها.. ولما دفعته عنها أخذ يقول:

– إنها زوجته.. إنها..

ولحقها دوار شديد واستشعرت خطأ أنها اندفعت إلى الدار اعتقادا منها أن اللص الشريف بالداخل وأن أباه ينكره، وخرجت من الغرفة آسفة على مارأته، وأمسكت بلجام فرسها وقالت للرجل الذى مازال يحاول تقبيل يدها:

– أليس هذا البيت بعيداً عن شوارع البغاء ؟.. أهناك بيوت أخرى فى المدينة هكذا ؟.. ولم تنتظر حتى يرد عليها صاحب الدار فتابعت قائلة:

– أين أجد ابنك..

فتقدم الرجل يلهث نحو الباب ويقول:

– تعال ياسيدتى إنه فى بيت صديقه نبيل محمود.. تعال ياسيدتى إن بيت صديقه قريب من هنا.. ومشت خلفه تمسك بلجام فرسها حتى كان بيت صديقه.. وطرق الرجل الباب فإذا بامرأة ترتدى ثياباً ممزقة تظهر فى فتحة الباب فدفعها الرجل من أمامه ودخل البيت ليأتى بابنه.. وبرزت المرأة نحوها وقالت:

– وماذا تريد السنيورة من اللص ؟..

وقالت إيناس: أوه.. سبحان من صبرنى.. ومن تكونين أنت لهذا اللص ؟..

وقالت المرأة فى بجاحة:

– أنا واحدة من نسائه..

– زوجته ؟..

– ليس متزوجاً..

– أيسهر كل ليلة هنا.. ومعه أنت ؟..

– بالداخل كثير من النساء والرجال.. قلت لك كل شئ.. وماذا تريدين بعد ياسنيورة ؟

– أريد اللص..

واختفت المرأة من فتحة الباب ودخلت إلى البيت، وأمسكت إيناس حائط الباب بيدها وخارت قواها ثانية وكادت تسقط على الأرض، لولا أن اللص خرج إليها وأمسك ذراعها مرحباً فأفاقت فزعة:

– يالك من لص جرئ..

وأخذها برفق إلى داخل الدار قائلاً:

– أنا أعرفك ياسيدتى.. وأجلسها على مصطبة مَن الطين خلف الباب، والتفت خلفه ليقفل باب الدار اصطدم بالفرس الذى يقف فى فتحة الباب، فأخذه على مهل من لجامه حتى أصبح واقفاً أمام صاحبته وقفل الباب ثم جلس بجانبها مرحباً آسفاً عما حدث لها فى دار أبيه.. فقالت له فى صوت منهوك:

– أنا قادمة إليك من رئيسة المدينة لكى تقوم بمهمة خاصة جداً..

واستأذنها لحظة ليدخل من باب خشبى يفصل نصف الدار الداخلى عن الجزء الخارجى، وضرب بيده على باب الغرفة ففتح له نبيل محمود صاحب البيت فقال له يرجوه:

– هل تعلم من بالخارج إنها إيناس جاسر، رسولة رئيسة المدينة.. جاءتنى فى مأمورية خاصة سنقوم بها.. ألا تريدون مالاً ؟.. قل للنساء بالداخل يخفضن من أصواتهن المزعجة..

فانحنى نبيل رأسه تقديراً واحتراماً لرئيسه قائلاً وهو يقفل الباب:

– حاضر ياسيدى سيكون كل شئ كما تريد.. ودخل إلى ثلاثة نساء ورجل يشتمهن ويؤنبهن على أصواتهن العالية، وحثهن على الهدوء التام حتى ينهى زعيمهن الصفقة التى ستدر عليهم المال والكساء.. وكان الرجل العجوز والد اللص يختبئ فى صومعة خالية من القمح يتنصت على مايدور بين المرأة صاحبة الفرس وابنه.. وكان اللص دنيئاً مع النساء وأبلغها بأنه مستعد ليقبض نصف المبلغ الذى ستعرضه عليه ولكن فى مقابل أن يلتقى بالراقصة سندس ليلة قبل عملية الإفراج عن زوجها سليماً معافى حتى يصل إليها دون أن يصيبه أدنى أذى.. فقالت له فى قرف:

– المهم فى العملية أن تقدم عملاً وطنياً خالصاً..

– إن كل الذين يقومون بأعمال وطنية يأخذون نصيبهم من النساء فى كل خطوة يمشون فيها.. ومن قال إن النساء تنقص من قيمة الأعمال الوطنية..

ولما وجدت أمامها رجلاً عالياً فى فكرة قالت له محاولة السيطرة عليه:

– لا تحصل على امرأة زوجة.. اطلب امرأة أخرى ليس لها رجل..

– أريد امرأة من رائحة القصور.. امرأة من النساء اللائى يعشن فى بلاط الحكم.. وهز رأسه ساخراً.. إن المدينة ملأى بالنساء.. لكنهن جميعاً زبالة.. أنا لص لكننى نظيف.. بالداخل ياسيدتى ثلاث نساء، لكنهن على مستوى عال من الجمال والأخلاق.. لم تذهب واحدة منهن إلى ملهى أو إلى دار العاهرات.. تأتى مرتبتهن بعد نساء القصور القديمة، أو بعد نساء أهل الحكم الآن، بل إنهن عندى أضمن، وهل أعلم ماذا يحدث للنساء اللائى فى بلاط الحكم ؟..

– لقد دخلت بى فى مواضيع ليس لى بها شأن، وهل تصف النساء اللائى يسهرن معك فى دار صديقك بأنهن صاحبات أخلاق ؟..

– صاحبات أخلاق عالية، وأنا حر فى أن أصف نسائى، المهم ياسيدتى هذا مطلبى.. اذهبى إلى الرئيسة وأبلغيها..

– إذا ذهبت إلى الرئيسة وأخبرتها بمطلبك فسوف يكون فى ذلك ضرر كبير لك..

– أستطيع أن أدافع عن نفسى..

وأمسكت بلجام فرسها ثم قامت تضرب بقبضتها عنق المهر وقالت له غاضبة..

– افتح الباب.. اسحب الباب كاملاً.. حتى أخرج..

وأمام البيت وفى تلك الزقاق الضيقة الشديدة الظلمة اعتلت إيناس ظهر فرسها وانطلقت فى الظلام الدامس حتى بيت سندس، وهناك عرضت عليها كل شئ، وسلخت قرابة الساعة تفكر فى طلب هذا اللص، واحتضنت إيناس بقوة وأخذت تبكى، بعد ذلك ذهبت كل منهما إلى فراشها.. وفى الصباح مدت سندس يدها لتمسك بكوب الشاى فوقع من بين أصابعها المرتعشة، وطفقت بصوت متحشرج تقول:

– ماكنت أظن يا إيناس أننى سأحب هذا الضابط إلى هذا الحد.. وسأستعدة للتضحية فى سبيله بأى شئ..

– أى تضحية تريدين أن تقدمى عليها ؟..

واصطكت أسنانها وفغرت فاها وقالت فى ألم:

– مايريده هذا اللص.. من أجل هذا الرجل..

– يؤسفنى أن ترضخى لمطالب لص.. وهذا الرجل الذى تريدين أن تضحى من أجله، لاتنسى أنه وحملته القذرة دمروا المدينة وقتلوا أهلها.. كنت أتمنى أن تضحى من أجل شئ كبير.. وليس هذا معنى التضحية..

– أليس لى أن أضحى من أجل رجل أحببته ؟..

– المرأة تضحى بمالها ووقتها وعمرها من أجل رجل.. أو من أجل أطفالها.. ولم أسمع قط بامرأة تسمح لرجل بمضاجعتها وتقول إن هذه تضحية..

– إن هذا شئ فعلته كثيرا .. ولكن هذه المرة أفعله لأجل زوجى ولأننى أحببت هذا الرجل..

– وهل ستخبرينه عندما يأتى إلى بيتك بهذه التضحية ؟..

– ولم لا ؟!..

– وهل يقبل بعد ذلك أن يعاشرك معاشرة الأزواج ؟..

– أعتقد أنه يقبل.. ألم أفعل هذا من أجله ؟..

– هل هذه أخلاق كل الراقصات ؟.. وإذا كانت هذه أخلاقه فإنه إذا تمكن من ضرب المدينة مرة أخرى فإنه سيفعل من أجل راقصة وليس من أجل مبدأ قد وعيه حتى ولو تقدمت إليه كل راقصات هذا العالم ليضاجعهن.. ولكنى أصبحت الآن مندهشة لما يحدث فى هذا العالم المخيف لقد أصبح كل شئ فيه يزنى..

– إننا بشر يا إيناس.. نعطى لنأخذ من هذه الدنيا .. أنا لا أعرف غير هذا..

– سوف أذهب إلى رئيسة المدينة لأبلغها بأننى لا أستطيع أن أشاركك بقية مسيرتك..

– لا أرجوك.. إذهبى وأبلغيها بمطلب اللص.. عسى أن تجدى عندها حلاً آخر..

وفكرت إيناس قليلاً.. ونظرت إلى سندس فبدت لها إنسانة مشرفة على الغرق.. كانت عيناها خامدتين نحو الأرض.. اعتقدت إيناس بأنها لاترى أى شئ وأنها فى حالة نفسية سيئة.. وأنها لاتعى ماقالته، وعليها أن تكمل المشوار معها وتلازمها حتى لاتقع فى أية مزلة مع اللص أو غيره.. وفتحت دولابها وأمسكت بالسوط وطوحت به فى الهواء، وفجأة قالت لها سندس:

– اضربينى بالسوط.. فأنا استحق ضرباً مبرحاً، منذ زمن بعيد كان لابد لى أن أضرب.. لم أر أبى.. كنت صغيرة أحبو يوم مات وكانت أمى جميلة لم تتزوج بعده.. لم يكن هناك رجل يتزوجها .. ولكن كان هناك رجل يعشقها .. جاء

إلى بيتنا وأنا صغيرة.. وبعد ذلك كان يأتى فى أى وقت بالنهار أو الليل.. لم يمنعه أحد.. وكان بيتنا الصغير منعزلاً بعيداً عن البيوت المزدحمة.. ورأيته مع أمى فى كل الأوقات.. عريانين أو يرتديان ملابسهما.. تعانقه أمى بعنف.. يحملها بشدة وقوة إلى فراشها.. يقفلان الغرفة عليهما.. أو يتركانها موارية.. كل هذا لايهم.. لم تبال أمى بى أو بأى شئ آخر.. وكنت صغيرة.. ولما كبرت كنت أجمل من أمى.. وذهبت إلى الفنادق والملاهى دون ترخيص.. كان الرجال فى تلك الأماكن يقفون تحية لدخولى أو خروجى أو جلوسى.. أخذت كل شئ من الرجال وأعطيتهم بعضا من جمالى الصارخ ثم تعلمت الرقص.. وكنت أجمل امرأة فى المدينة يتمنى كل رجالها الوجهاء أن أشير إليهم بأصبعى.. وانتصبت سندس فى جلستها وركنت رأسها على مؤخرة المقعد.. وسكتت قليلاً.. وإيناس مازالت تمعن النظر إليها وتتفحصها.. إنها لأول مرة تسمع مالم تكن تعرفه عن صديقتها.. وبادرتها إيناس قائلة:

– ولكنى لم أكن أعرف عنك كل هذا..

– كان مبلغك منى عندما قدمت إلى المدينة أن أقدّم لك عملا.. وقدمت لك هذا العمل فى حينها.. ولم تسألينى عن أى شئ..

– عندما أقمت معك بعد ذلك.. لم أكن أدفع فلساً واحداً مقابل تلك الحياة التى قدمتيها لى، وكنت أقوم مقابل ذلك بالطهى وترتيب البيت ثم أذهب إلى عملى كل مساء.. وعندما كنت تعودين إلى البيت لم يكن هناك أى رجل يعود معك..

– كنت أذهب إلى بيوت الرجال.. وعندما أعود إلى بيتى أكون متعبة.. فى حاجة إلى الراحة بعد عناء.. وراعنى أننى إذا عدت برجل إلى البيت فقد ترانى بنتى.. وأنى أخاف عليها مما رأيته من أمى.. وعندما أتيت وأقمت معى.. أصبح لى ابنة حقيقية وكنت حريصة على ما أخفيه.. فلم تر شيئاً فى بيتى.. وكنت دائماً أخاف عليك وأتمنى دائماً أن لاتسيرى فى طريقى.. حافظت عليك فى بيتى

وكنت حريصة على ألاّ ترحلى عنى.. حتى أحافظ على بيتى نظيفاً.. دفاعاً عن ذلك الماضى فى داخلى..

وكانت إيناس قد ألقت بالسوط من يدها.. وجلست تستمتع منبهرة لحديثها الذى أوضح سر علاقتها بها بل وسر حياتها كلها من كلمات قليلة وصادقة.. وأخذت تبكى.. تبكى وترتعد.. كأن شيئاً فى رأسها يغتسل.. تبكى لأن المدينة كلها لو اجتمعت ما أعطت إيناس حناناً ودفئاً وإيواءً كما فعلت لها سندس، وبعد وقت طويل من البكاء والاستغراق فى ذلك الماضى الغريب.. قامت إيناس لتغتسل ثم عادت لتجد صديقتها فى نوم عميق على المقعد.. فقبلت رأسها.. قبلتها فى رفق شديد.. وأخذت السوط ونزلت إلى حظيرة الفرس.. وكان نصف النهار قد انقضى لما وصلت إلى مبنى المدينة.. وهناك أوقفها الجندى عند الباب الكبير.. حتى استخرج لها اذن دخول إلى الرئيسة.. وحسب التعليمات الجديدة ودواعى الأمن فى داخل المبنى.. ولما دخلت إلى الجناح قابلتها كارولين وينفس العنف قبلتها، وأبلغتها أن تنتظر قليلاً فى البهو الكبير حتى تبلغ الرئيسة.. وفكرت قليلاً فى لقاء كارول لها، ثم أخذت تفكر فى ترتيب حديثها مع الرئيسة، ولما جاءتها كارولين أخذتها من ذراعها فى رفق شديد.. حتى دخلت بها وأجلستها فى ركن بالغرفة الكبيرة.. واجتازت كارول ستارة سميكة حتى دخلت إلى الرئيسة التى تقعد إلى مكتبها منذ الصباح تعمل بلا كلل.. ورحبت بقدوم إيناس وطلبت من كارول أن تأتى بها بسرعة.. وقامت الرئيسة لتصافح إيناس باحترام شديد، ولما جلست الرئيسة.. جلست إيناس بعد أن أشارت لها الرئيسة.. جلست على مقعد وثير ملاصق للمكتب، وتلعثمت إيناس قليلاً فبادرتها الرئيسة قائلة:

– هل ذهبت إلى اللص ؟..

– ذهبت إليه وعرضت عليه الأمر..

– وماذا قال لك ؟..

– له مطلب صعب.. صعب المنال..

– يريد مالاً كثيراً ؟..

– لا.. إنه يريد.. وسكتت..

– ماذا يريد ؟.. قولى.. قولى..

– يريد سندس..

– زوجة.. ألم تبلغيه أنها متزوجة ؟..

– لا.. أبلغته بذلك وأنها متزوجة من القائد الذى نريد إخراجه من سجنه.. ياسيدتى إنه يريدها ليلة واحدة..

وصرخت الرئيسة وضربت بقبضة يدها على زجاج المكتب.. وهرول كارول إليها من خلف الستارة.. قائلة وهى تنحنى على سيدتها

– ماذا حدث.. لاتنزعجى ياسيدتى.. ونظرت إلى إيناس تستبين منها الأمر وهى مقطبة الجبين:

فقامت إيناس وتقدمت نحوهما.. وقالت فى صوت خفيض تهمس فى أذن كارول

– أبلغت سيدتى.. بأن اللص يريد سندس ليلة واحدة شرطاً كى يقوم بمهمته.. وأخذت تضرب الرئيسة المكتب بقبضتها حتى كاد الزجاج يتهشم تحت قبضتها، وحاولت كارول أن تمسك بيدها وجثت على ركبتيها قائلة وهى تمسك بذراعيها:

– أرجوك ياسيدتى.. صحتك.. لاتنفعلى.. أرجوك إهدئى حتى نستطيع تدبير الأمر..

– لا.. لايمكن أن يكون هذا الثمن ؟.. أهناك رجال بهذه الخسة ؟!!..

وانطوت على كارول وهى تردد.. نعم هناك رجال فى منتهى الوضاعة.. وهناك نساء أيضاً.. لاتنزعجى من الناس فلقد غيرت الحرب كل شئ.. أصبح كل ماهو كائن يباع ويشترى.. ولايبقى فى المدينة خير ينتظره الناس.. إذا كانوا

جميعاً عادوا أشراراً.. ولكن مازال النبات والحيوان والجماد بخير.. أرجوك ياسيدتى تعالى نبحث الأمر بهذه الواقعية.. لماذا تتعاملين مع أهل المدينة بهذا العطف ؟.. إن أمثال هذا اللص مكانهم السجن ولامكان غيره.. أنت الرئيسة ياسيدتى..

وتراجعت الرئيسة بمقعدها إلى الخلف ثم قامت قائلة:

– السجن.. ومن يأتى بهذا اللص إلى هنا وهو كثير الحيل والآلاعيب ؟..

وقامت إيناس باكية إلى الرئيسة، تكفكف دموعها، وتقبل رأسها، وتقول لها: آسفة ياسعادة الرئيسة، لقد سببت لك كل هذا العناء، لكن كارولين تلاحقها قائلة.. بالعكس أنت تساعدينا فى عملنا.. لقد قمت بعمل كبير.. ومالت على الرئيسة مرة ثانية تقبلها وتمسح دموعها التى انسدلت على وجنتيها..

تنبهت قليلاً ومشت بخطوات وئيدة حتى النافذة وتبعتها المرأتان.. ورأت المدينة لأول مرة ظالمة مظلمة.. البيوت كالحة والشوارع متربة متعرجة والأرصفة مشقوقة.. والصخور الثقيلة جاثمة على أنفاس الطرق.. وكان ضوء الشمس حانيا يكاد يلامس الجدران والأسطح بصعوبة بالغة.. ولما جالت بناظريها إلى السماء لم تجد قبة زرقاء، ولكنها قبة تزحف فيها سحب تكاد تحجب ألوان السماء الجميلة.. وأمسكتها كارولين من ظهرها قائلة:

– لم يعد هناك شئ جدير بالتأمل.. ولندع تلك الأحلام جانباً.. إن المدينة ياسيدتى فى حاجة إلى محراث يحرث أرضها السبخة..

والتفتت إليها فى ذهول.

– والأطفال والشيوخ والناس الغلابة ياكارول..

وردت عليها إيناس قائلة:

– والله ياسيدتى أنى أرى المدينة كلها مثل ذلك اللص..

– إنه فى كل الأحوال.. لايمكن أن يكون لحادث عارض مثل هذا التأثير فى معاملة الناس.. ولماذا لاتكون هذه شراسة بعد الحرب.. وهذا يحدث فى بلاد

كثيرة.. لقد مرت مدن أخرى فى العالم بهذه التجربة.. وقالت كارول فى ثبات

– إن هذه ليست مدينة كمدينة القاهرة.. كان الناس فيها بعد الحرب يشبعون عندما تؤذن ألف مئذنة آذان الفجر، ويذهبون إلى أعمالهم فى جسارة عندما تدق أجراس كنائسها بعد طلوع الشمس.. إن الناس فى مدينة كهذه يملأون نفوسهم بطونهم من الإيمان وكل فرد فيها حتى اللصوص والقوادون يستغفرون الله بعد كل أعمالهم، وإذا عادوا إلى أعمالهم عادوا إليها نادمين.. إن الناس فى مدينة القاهرة جميعهم أغنياء حتى هؤلاء الذين يعيشون فى القبور . إنه لو دقت ساعة الحرب لانقضوا جميعاً كرجل واحد يدفع بلاء تلك الحرب.. و ذهبى هناك لترى تلك المدينة بعد أن دقت فيها طبول السلام بعد صبر طويل..

– ولماذا لاتكون مدينتى مثل مدينة القاهرة ؟..

– إنها لن تكون مثلها أبداً.. إن مدينة يقع فيها مساجد صغيرة مهملة لاتمتلئ حتى فى صلاة الجمعة بالمصلين.. وكنائس قديمة آيلة للسقوط.. كيف تكون مثل مدينة القاهرة ؟.. إنها قلعة تجمع كل آثار العالم القديم وفى نفس الوقت تشهق فيها أبراج ذلك العالم الحديث..

– دعينى أتمنى ياكارول.. لابد أن تكون آمالى كبيرة حتى أنجو بمدينتى..

وقالت إيناس لسيدتها:

– إنك لزعيمة حقيقية.. كل ماتحلمين به سيتحقق ياسيدتى.. وعلينا أن نعمل ولانقارن أنفسنا بغيرنا..

وشدت كارول من يدها ومشت بها حتى جلستا حول المكتب وقالت لرئيسة يحدوها آمال كثيرة:

– فلنعمل كما قالت إيناس.. سوف أقبض على اللص وأضعه الليلة فى السجن.. وكادت إيناس تخر على ركبتيها من فرحتها وشهقت قائلة:

- من يأتى معى ياسيدتى ؟.. سوف أرشده إلى داره أو دار صديقه..

- إنها جماعة كاملة.. اذهبى الآن يا إيناس إلى قصرنا القديم لتبلغى سلامة بطلبى الآن له.. ولاتعودى إلا ومعك سلامة على صهوة جواده..

وسعدت بتكليف الرئيسة لها وانصرفت كالفارس الشجاع.. وكان فرسها يعدو فى ظلام الليل الذى بدأ يخيم على البلدة.. كما يعدو فى صباح يوم مشرق.. ولم تجد سلامة فى القصر.. ولم تجد برهوم ليرافقها إلى داخل المدينة لتبحث عنه.. غير أن سعدية بنت منصور أبلغتها بأنه ربما يكون هو وبرهوم فى دار ثروت المناديلى.. وأخذت تصف لها أين تقع الدار.. وكان الفرس يدق بحوافره أرض الشوارع الوعرة.. كأنه يسير فى أرض ممهدة.. وفى حى مريان سألت عن الدار حتى اهتدت إليها، طرقت الباب فى رفق، وقال من بالداخل.. ادخل.. فقالت بأعلى صوتها.. كيف أدخل على رجال لم أعرفهم.. وجرى ثروت نحو الباب وفتحه.. فلما رأى امرأة شابة لم يعرفها من قبل.. قال لها:

- ماذا تريدين ياسيدتى ؟.. أنا صاحب الدار..

- هل هذه دار ثروت..

- نعم أنا ثروت المناديلى..

- السيد سلامة هنا ؟..

- نعم ياسيدتى.. تعالى هو بالداخل..

وفتح الباب حتى التصق عقبه بالحائط ودخلت راكبة فرسها وتوقفت فى فتحة الباب قائلة:

- أين هو إذاً ؟..

- فى الغرفة.. وجرى إليه ليبلغه أن امرأة شابة تركب فرساً تريده.. كانت الدار عارية.. بلاسقف وبلا أثاث.. دار كالبلاطة الكالحة.. قالت تحدث نفسها إلى هذا الحد بلغ الفقر.. أهنا يجتمع الرجال الفدائيون ؟.. ولما ارتدى سترته وحذاءه خرج إليها فإذا به يقف فى مواجهة امرأة لايعرفها فقال لها:

– من أنت ؟..

– أنا إيناس..

– إيناس أى إيناس أنت ؟ ومن أين أتيت بهذا الفرس ؟.. إنه فرس الرئيسة..

– إيناس جاسر.. هذا إسمى كاملاً.. أسكن مع سندس.. امرأة جديدة تعمل مع سيادة الرئيسة.. أنا مبعوثة الرئيسة إليك..

– وماذا تريدين الآن ؟..

– الرئيسة تريدك الآن وفوراً فى أمر هام..

– هل حدث شئ ؟..

– يبدو أنها ستكلفك بأمر هام أنت وجماعتك..

– أستأذنك دقيقة واحدة..

ودخل الغرفة وترك باب [illegible] تسمعت اصواتاً لرجال كثيرين الشيشة والدعيرة والشاى يتباع عمك منزلة.. وبرهوم كمان راح معاك.. مدبا - هذه المرأة حلوة.. يابختك دايماً مع الستات الحلوة.. أنا نفسى بعد العمر يرجع القلب ده أتجوز واحدة لميم.. دا الواحد عينه ورمت من حضرة وستين وشلبية.. أنا نفسى أتجوز واحدة اسمها نورا أو نيفين.. أكيد اللى اسمها حس تكون حلوة.. جتك الغم كل الأول وبعدين اتجوز.. أى واحدة حلوة ماترضاش تجوزك يابو رجل مقشفة..

ولم تتمالك إيناس نفسها فراحت تضحك بلا إنقطاع وحاولت كتمان ضحكاتها.. ولما خرج إليها سلامة ومعه برهوم بعد دقائق كانت تحاول أن تظهر على وجهها علامات الجد.. غير أن سلامة قال لها:

– إنهم كثيرو الكلام.. وحديثهم دائماً يثير الضحك.. ولكنهم جادون فى أعمالهم..

– حديثهم لطيف للغاية.. كنت فى حاجة لأن أضحك..

وكان برهوم يبتسم فقال له سيده وهما يخرجان من الدار خلفها:

– سنذهب إليها مشياً..

– وإذا كانت المأمورية عاجلة وتحتاج إلى الجياد.. سأذهب لأحضر الفرسين وسألحق بك فى الطريق ياسيدى..

فوافق سلامة وقال لإيناس..

– اذهبى أنت وأبلغى سيدتك بأننى فى الطريق إليها.. فهزت رأسها وقالت:

– شكراً ياسيدى.. طاب مساؤك.. سأبلغها أنك قادم..

– يفضل أن تسرعى فى العودة.. حتى لايصيبك أى أذى وأنت تسيرين بالجواد على مهل..

وضربت بالركاب بطن الفرس.. الذى حملها فى دقائق إلى مبنى المدينة.. وكأنه يطير وعلى ظهره يمامة.. وشعرت الرئيسة ببهجة لما علمت أن سلامة قادم.. وحررت ورقة إلى البوابة حتى يسمح الحرس بدخول القادمين.. ولما دخل عليها زوجها كان يريد أن يشدها إليه ويحتضنها ويقبلها، ولكنها شدت على يده وضغطت بقوة عليها حتى لايستطيع أن يندفع نحوها وقالت له:

– كيف حالك أيها العزيز.. وحال فارسنا الصغير ؟..

– بخير.. بخير.. أيتها الرئيسة..

وجلس على مقعد لما أشارت له بالجلوس.. ووصل برهوم فوقف خلف سيده وكأنه يحرسه فقالت تلاطف برهوم:

– هكذا أنت وفى يابرهوم.. ولكن ممن تخاف عليه هنا..

وسعد برهوم بمداعبتها له وقال وهو ينحنى:

– ليس لنا غيره ياسيدتى.. إنه بطل المدينة الأول.. وهو زوج سيدة المدينة الأولى ورئيستها فكيف لا أخاف عليه.. إننى أخاف عليه من العصفور الصغير..

– ونعم الرجل أنت.. لقد سمعت أن السيدة ريما لم تقبلك زوجاً بعد يوم

لمشنقة هل هذا تم بالفعل ؟..

فقال فى أدب جم:

– نعم ياسيدتى منذ هذا الوقت وأنا عبدها فقط.. إننى عبد للجميع ياسيدتى فى هذا البيت الكبير.. فهزت رأسها وابتسمت ممتنة.. ثم قالت لسلامة:

– منذ بدأت الحرب وحياتنا ملأتها قسوة شديدة.. حياتنا عادت جوفاء ونحن جميعاً نعيش على الأمل.. الأمل حتى الآن أجوف.. لقد فعلت الكثير من أجل المدينة، وسوف تعرف تفاصيل كل شئ فيما بعد.. لقد كان بينى وبينك حب يكسو بيوت جميع البلاد دفئاً وسعادة، ولكن تلك الحرب اللعينة قضت على كل شئ، أردت أن أقول لك.. لاتعتقد أننى أصبحت رئيساً للمدينة.. أنا امرأة و ريدك.. ولكن لن تعود إلى تلك المرأة الأولى إلا بعد أن تنتهى الحرب ويذهب هؤلاء الأوغاد..

ونظر لها نظرة احترام وتقدير وقال فى صوت رخيم:

– كنت أظن أن هناك مهمة كبيرة سوف أقوم بها أنا وجماعتى..

– هو ذلك بالفعل.. اسمعنى بتركيز شديد.. أريد أن أخرج القائد القديم من سجنه.. وأنت تعرف أنه زوج لسندس التى قامت بدور كبير معنا ولن أدخل فى تفاصيل كما اتفقنا..

– ولما تخرجيه.. دعيهم يسجنوا بعضهم حتى يتم القضاء عليهم من داخلهم..

– سوف أخرجه أولاً مجاملة لسندس.. وبعد ذلك يتم مهمته المخلصة التى أتى بها معنا.. إنه يعرف كل شئ عن العتاد ومخزن السلاح، وقد نجد فى صندوقه وبين طيات ملابسه مفاتيح كل هذه المخازن وربما يرشدنا لأشياء ومخابئ أخرى لا نعرفها.. عندما يملك كل رجل وامرأة وطفل سلاحاً سوف ينتهى كل شئ ويخرجون جميعاً مذعورين من بلادنا.. ولن تستطيع حملة أخرى المجئ إلى

بلادنا ونحن شعب مسلح..

– شئ جميل حقاً لو تحقق نصف ماتقولينه.. ولكن ماهو المطلوب منى ؟..

– أن تحضر لنا اللص الشريف بالقوة..

– ولماذا بالقوة ؟..

– لقد ذهبت إليه إيناس تعرض عليه الأمر.. فطلب سندس ليلة واحدة ثم يقوم بمهمته.. وضحك سلامة بصوت عال وضحكت هى كذلك.. وابتسم برهوم خجلاً من طلب اللص.. وهز رأسه بعد أن خلص من ضحكاته وابتسم فى كثير من التدبير وقال فى ثقة..

– ليست إيناس هى التى تأتى بمثل هذا الرجل وسوف أتى به راكعاً وينفذ كل ماتطلبيه منه إيماناً بأن هذا العمل للمدينة.. لقد أطلقوا عليه اللص الشريف لأنه يستحق هذا المعنى.. وانبعث فى عينيها شعاع مثل شعاع شمس الصباح وقالت مبتهجة:

– أأنت واثق من أنه سيأتى معك ويقوم بما نأمره به..

– متأكد.. وكان عليك ألاَّ ترسلى إليه إمرأة.. هكذا يكون الرجال دائماً حينما تذهب إليهم امرأة فى أمر.. وهذا اللص بالذات..

– أريده الآن ياسلامة..

– قبل الثامنة مساءً سيكون واقفاً بين يديك..

ولاحظ سلامة وهو.. يهم بالخروج إيناس تبكى فاتجه بناظريه إلى الرئيسة وقال:

– لماذا تبكين ياإيناس..

فردت كارول وهى تربت على كتفها:

– إنها غيور على مهامها.. وكانت تريد أن تنجح فى المجئ باللص..

وأومأت إيناس إيماءة إيجابية فأردفت كارول.. إنها المرأة التى جاءت فى الوقت المناسب لتساعدنا.. فكيف تبكى وأنت فى منتهى اللياقة ؟..

وانصرف سلامة ومعه برهوم إلى دار اللص.. وقرع برهوم الباب بقوة.. وأقبلت امرأة لتفتح الباب حاملة بيدها عصا كبيرة، ووقفت فى فتحة الباب ترتدى جلباباً طويلاً ولكن صدرها عار رغم برودة الطقس.. وكان سلامة يريد أن يطمئن على وقاحتها لأنها ظلت جامدة لاتتحرك ولاتنطق بكلمة واحدة أو حتى تغطى قليلاً من صدرها البارز، وسألها: محمد كمال هنا..

– سيدى.. إنه بالداخل..

– افتحى الباب حتى ندخل.. وضرب سلامة الباب بقدمه..

فتلعثمت ووقعت منها العصا وشعرت بأنه رجل قوى.. وربما جاء ليقبض على سيدها فقالت وهى تمسك بتلابيبه:

– من أنت ياسيدى حتى أخبره..

وقال برهوم وهو يدفع يدها عن ملابس سيده:

– قولى له سيدى سلامة.. أمين المدينة يريدك..

ولطمت المرأة خدها وولولت وهى تجرى إلى الداخل.. يالهوى أمين المدينة رحنا فى داهية يانسوان ياللى جوه.. كانت الدار لها سقف من صفيح.. وخلف الباب مصطبة كبيرة من الطين.. وأرض البيت تكسوها طبقة سميكة من رمل وزلط.. ومزلاج خشبى قديم.. وحظيرة قذرة ليس بها من الحيوان غير فرس عجوز، وديك طاعن فى السن بدون ريش.. وتلك هى الحجرة الوحيدة التى يعيش فيها اللص ينام فيها ويطبخ وفى الليل يتسامر ومعه نبيل محمود وامرأتان أو ثلاث.. وكان وسط الدار ضيقاً لايسع حصانين، فقام برهوم بربطهما فى وتدين دقا بالأرض أمام دار اللص.. وعلى رف صغير قرب السقف أشعلت لمبة من صفيح ينبعث منها ضياء باهت تكاد لاترى من خلاله موضعاً لقدمك، غير أنك ترى بوضوح تلك الخنافس السوداء تزحف بين الزلط والرمال، وبين الفينة والأخرى تسمع أنيناً بعيداً تجلبه تلك النسمات الفائحة الكريهة التى تصل إليك من حظيرة الفرس.. ويبدو أن فأراً صغيراً داسته قدم ذلك الحيوان القديم، ولم

يكن الديك العارى يجد شيئاً ينقره غير روث الحصان ولحم الفئران الميتة.. ومرت دقائق وسلامة وبرهوم يجلسان على المصطبة، ولولا انشغال سلامة ورفيقه بتأمل حال الدار، لاقتحم الباب الصغير على أهله.. لكنه بعد دقائق أخرى كان اللص يرتدى ملابسه بعد أن خرج من طشت الاستحمام، كان اللص شريفاً ونظيفاً، حريصًا أن يستحم كل ليلة بيد تلك المرأة التى يعشقها وتقيم معه بصفة دائمة فى داره.. ولما فتح الباب ليخرج إلى أمين المدينة كان الأمين يلاحقه بوابل من كلمات اللعن والتوبيخ، غير أن اللص أخذ ينحنى وينحنى وتتداعى رأسه نحو الأرض حتى بلغت قدم الأمين فقبلها ولم يمنعه صاحبها.. تركه يقبلها وكان برهوم يكاد يفطس من الضحك وسلامة يبتسم.. غير أنه أمسك برأسه وقال: .. كفى.. هذا زيادة.. أمازلت تريد سندس.. لم أكن أعرف أنك دنئ إلى هذا الحد..

ووقف اللص وابتعد قليلاً عن القدم ولكنه مازال ينحنى تعبيراً عن الاحترام وتقديم الولاء وربما الخوف الشديد من زوج الرئيسة.. وقال وهو يضع أصابعه على شفتيه:

– عفوا ياسيدى.. لقد جاءت إلىَّ امرأة ولما رأيتها شابة جميلة.. عفواً ياسيدى واسمح لى مرة أخرى.. طلبت منها مطلباً أطلبه دائماً من امرأة..

وكظم سلامة غيظه وقال:

– ولكن هذه امرأة جاءتك من الرئيسة.. فكيف تطلب منها ذلك ؟..

وانحنى وكأنه يصل ركبتيه برأسه:

– لم أكن أعرف أنها ستبلغ بطلبى.. قلت هذا وأنا تحت تأثير ضعف رجل جردته الحياة من هناء الدنيا.. ووجد فجأة امرأة يافعة نظيفة ليست مثل هؤلاء النساء اللائى بالداخل.. وأشار بيده نحو الغرفة.. ياسيدى طيلة عمرى أعاشر النساء الروبابيكيا.. اعذرنى ياسيدى.. كل ماتأمرنى به أنفذه بلا أى مقابل.. لا أريد غير رضائك عنى.. لقد خلقت ياسيدى من أجل الأعمال الوطنية.. أليس هذا عملاً وطنياً ؟.. وسعد سلامة بكلماته وغير مجرى الحديث وقال له:

– وكيف تسكن فى هذه الدار القذرة ؟..

– إنه حال كل دور الحى الفقير ياسيدى..

– لقد دخلت بيتاً فى الحى الفقير منذ وقت بعيد ولم يكن بهذا السوء..

وضحك اللص وقال:

– ربما تكون صاحبته جميلة.. وكانت تذهب كثيراً إلى القصور..

– لم تكن جميلة.. ولكن ابنتها كانت جذابة..

– وماذا تنتظر بعد ذلك ياسيدى ؟..

وصافحه سلامة بشدة وربت على ظهره وقال:

– أنت خطير يالص.. ارتدى ملابسك وتعال معنا.. إن رئيسة المدينة نفسها تريدك الآن..

– أنا خائف ياسيدى.. ألا يكفى أن تبلغها بالطاعة الكاملة..

– لا هى تريدك الآن حتى تأمرك بالتفاصيل.. اذهب وارتد ملابسك..

– وهل هناك أفضل من هذه الملابس ؟..

– ولكنك حافى القدمين..

– حتى أتمكن من الجرى خلف فرسك.. إن الحذاء يعوقنى.. فى العودة ياسيدى اعطنى حذاءً من عندك..

وتقدم سلامة وخلفه يجرى اللص وفى المؤخرة يلهث فرس برهوم العجوز وعلى ظهره برهوم يبتسم ويضرب كفاً بالأخرى غير مصدق عودتهم بهذا اللص دون عناء..

وعند الرئيسة كانت المفاجأة، فعندما تقدم اللص نحوها لينحنى قرب قدميها، ضربته بالسوط على ظهره وكأنها تبعد حشرة.. ورجع إلى الخلف بعيداً عن مرمى ضرباتها وقال وهو يرفع رأسه بين انحناءة كتفيه:

– تحت أمرك ياملكتى..

واندهش الجميع بما فيهم كارول.. وتقدم سلامة يهمس فى أذنها.. لماذا

هذا ؟.. لقد جاء إليك خاضعاً.. فلا تضربيه من أجل خاطرى.. فردت عليه قائلة دون أن يسمعها أحد.. حتى يتوب عما قاله لإيناس وقال بصوت مسموع:

– لاتحاسبى الناس على زفرات أنفاسهم..

– دعينى أتدخل لأصلح الأمر واعطنى الفرصة يارئيسة..

فأومأت إليه بالموافقة.. وتنفس اللص الصعداء لما لاحظ تدخل سلامة وانتصب فى وقفته ولكن انحناءة كتفيه وسقوط رأسه الصغيرة بينهما ظهر كأنه مازال ينحنى احتراماً وخشية من وجوده فى هذا المكان.. وكانت الرئيسة تتصوره رجلاً فظاً خشن الطباع.. واقترب منه سلامة قائلاً:

– إن سعادة الرئيسة لم تكن تتوقع أن تقول لإيناس مثل هذه المطالب، لقد كانت تعتقد أنك رجل وطنى خالص فى وطنيته..

– ياسيدى أنا أحب مدينتى.. ولما تقدمت بهذا الشرط كنت أهزر، وأنا دائماً أحاول مع النساء.. لما كنت فتى صغيراً ذهبت إلى الملاهى.. ولم أجد هناك غير سندس.. إنها راقصة فاتنة حقاً.. لقد كانت رغبة قديمة لا أكثر.. أما الآن فأنا أحب مدينتى وأحب أن أطيع الرئيسة فيما تأمرنى به..

وتدخلت الرئيسة قائلة:

– يجب ألا نضيع وقتاً سوف أصدر أمراً بحبس اللص الشريف بتهمة العبث فى المدينة حتى تدخل السجن وترى الأبواب والأقفال والمخارج.. سوف ندخلك الزنزانة المواجهة لزنزانة الضابط حتى تدبر كل شئ، وعندما تصل إلى ساعة الصفر التى تكون فيها جاهزاً، سوف نؤمن لك الأمور الأخرى حتى تخرج بهذا الضابط..

– وهل أعود إلى السجن مرة أخرى ؟..

فضحك الجميع كما ضحكت الرئيسة.. وقالت:

– سأرسل لك فى دارك مكافأة تستحقها..

– أنا جائع ياسيدتى..

فضحكوا مرة أخرى.. وقالت له ثانية:

– سوف أرسل لك فى سجنك كل أنواع الطعام..

وفى غمرة الحديث الطويل الذى دار بين اللص والرئيسة.. كانت كارول قد ذهبت لتوقع أمر حبس اللص من القائد الجديد.. وفى دقائق أعدت زنزانته وتم حبسه ودفعت كارول بصرة من القماش بها طعام شهى إلى زنزانة الشريف..

وارتعد اللص وهو يأكل.. لقد فكر فى كل الاحتمالات إلاَّ أن يكون فى السجن.. لقد كان فى حاجة إلى النوم هذه الليلة.. وبدأ ينظر إلى كل شئ حوله..

وكانت الرئيسة قد ألقت أوامرها إلى كل شيخ فى مسجد بأن يكثر من الصلاة والدعاء.. وأن تعلن صلاة الفجر ليسمعها كل الناس.. آملة فى ذلك أن يبزغ صبح جديد على البلدة، وأرسلت بتعليماتها إلى الكنيسة الكبيرة وغيرها من الكنائس الصغيرة.. بأن يقرع ناقوسها لو استطاعوا فى كل ساعة من ساعات النهار والليل.. وفى الفترة الأخيرة انتشرت الحوانيت التى تبيع البقالة والدخان.. وكانت معظم هذه المحلات قد وضعت مقاعد خشبية مستطيلة أمام أبوابها، وفرشت حصيراً على الأرض حتى يجلس الزبائن.يتسامرون ويحكون أحداث النهار وهم يحتسون أقداح الشاى ويدخنون الشيشة، وكان لكل حانوت حكاية.. وأهم ماشغل الحكاة فى الفترة الأخيرة.. إنشاء بنك للمدينة.. والحدث الأخير نجاح الرئيسة فى هدم شوارع الدعارة.. ولكن رواد هذه الحوانيت كانوا يقولون دائماً وما الفائدة ؟.. لقد ذهبت الغانيات إلى الملاهى التى انتشرت بشكل لافت للنظر ويمارسن أعمالهن هناك.. وكان البعض يعتقد أن المحافظ بنفسه سوف يأتى يوم يقوم فيه بهدم تلك الملاهى.. وكانت الرئيسة حريصة ألاَّ تقطع الذراع المعتلة مرة واحدة.. وتعتقد أن عليها أن توفر لكل فرد العمل الصالح ثم بعد ذلك تستطيع محاسبته على كل صغيرة يقترفها.. إن القانون الذى يحارب الفساد والظلم والبغاء لايمكن أن يكون قانوناً إلاَّ إذا أدخل الناس جميعاً تحت

طائلته، لقد قال لها المحافظ فى يوم.. إن المجتمع كله يقترف الفواحش جميعها.. فكيف والناس لاتجد قوت يومها وهم جميعاً يسرقون وينهبون ويزنون.. كيف أقطع رقاب هؤلاء الذين لاحول لهم ولاقوة، وهم لايجدون مالاً.. حلالاً لكى يأكلوا ويلبسوا ويقيموا بيوتاً متواضعة لسكناهم.. لقد قطعنا شوطاً كبيراً فى مشوارنا ومازالت هناك بقية.. وكانت صلاة الفجر قبل بلوغ الصبح ترنيمة صافية يؤديها المصلون وتسمعها المدينة عن بكرة أبيها.. وقرع نواقيس الكنائس قبل شروق الشمس وبعدها قوة تعبر عن أصالة مدينة وصبر أهلها.. ومرت أيام ثلاث.. وفى الصباح الرابع أبلغ اللص إيناس وهى تعطيه صرة الطعام:

– فى هذه الليلة سوف أخرج الحمار من مربطه..

وشهقت إيناس من الضحك ثم تمالكت نفسها وقالت:

– إن جباناً مثلك لايجرؤ على القيام بأى عمل دون موافقة سادته..

فغمز لها بحاجبيه وقال:

– أبلغى الرئاسة وعودى إلى بالخبز.. (وأمسك حديد الزنزانة واقترب من وجهها وقال فى تحد: .. عندما ينتهى كل شئ فسوف تكونين أنت وسيدتك سندس محل اهتمامى ولن أترك أى منكما.. ولكن قليلاً من الوقت والصبر وحتى يحل السلام وتدب الحياة.. وكادت إيناس تبصق فى وجهه غير أنها استطاعت أن تضرب يده المتعلقة بالحديد بقبضتها فرجع إلى الوراء قليلاً وقال متظاهراً بعدم الاكتراث:

– حتى لو كنت وصيفة فى قصر الخالدى.. لن أتركك وشأنك.. أبلغى الراقصة أيضا.. تلك التى كانت تتسكع فى مواخير البلدة باحثة عن الهوى.. أهى اليوم صارت سيدة ؟.. وأخذ يضحك وكأن جنوناً أصابه.. وصعدت إلى جناح الرئيسة وهى تموت من الغيظ.. إنها ليست امرأة سوقية حتى يتجرأ عليها هذا اللص.. وهناك أبلغت الرئيسة وكارول غير أنهما لانشغالهما بأشياء أخرى أهم.. لم يعيرا كلامها عن اللص أدنى اهتمام.. وجلست إيناس بعيداً عن الركن

التى جلست فيه الرئيسة مع أمينة سرها.. كانتا تهمسان فتقول الرئيسة للكرول:

– إن تحت هذا المجتمع بئراً ضخماً مياهه ضحلة كمياه المستنقعات، موجوداً من قديم الزمان.. لكن الحرب أظهرته..

– لم نكن ندرى بالمجتمع من قبل كان المجتمع يرتع فى جهله.. ولم يكن هناك طريق غير طريق اللذة التى يمسك بها الغنى والفقير بين يديه فى أى وقت..

– كل الأشياء كانت تمشى فى طريق واحد.. فلا عمل للحى الفقير أو عامة الناس غير الخدمة فى القصور.. وأهل القصور يملكون الأراضى والمكاتب والشركات.. لكن معظمها شركات تجارة تستورد السلع الاستهلاكية.. لايوجد مصنع واحد فى المدينة.. وليست هناك حرف حقيقية يحترفها الناس.. لابد أن يكون لأهل البلدة مهن وحرف كثيرة حتى تقف المدينة على قدميها..

– على أى حال هذه مسائل كبيرة ياسيدتى لايمكن معالجتها الآن، ونعجز عن حلول لها حتى بعد جلاء العسكر.. لابد من إمكانيات كبيرة جداً.. وإعادة بناء الناس تحتاج إلى وقت..

– لقد أبلغت المحافظ من قبل بالحال المزرى للناس، وكان رأيه أنه لابد من إنشاء بنك قوى حتى نستطيع بعد ذلك بناء المصانع والشركات..

– ولماذا لم يفعل ؟.. هل ينتظر جلاء العسكر نهائياً عن البلدة ؟..

– لا.. أنه ينتظر موافقة الرئاسة بالعاصمة..

– وهل ستساهم الرئاسة فى رأس مال البنك..

– لا اعتقد.. ولكن أبى وحده يستطيع.. ولامانع من مشاركة أى غنى من أصحاب القصور..

– هل تريدين إيناس فى أى أمر ؟..

– إذا كان اللص يريد عدة أو أداة أو أى شئ آخر يلزمه.. ارسليها

معها..

– لقد زودته بكل الأدوات التى طلبها حتى ملابس الجند.. أرسلت له بدلتين للعسكر ليرتدى هو والقائد بزته لما يفلح فى فتح الأبواب الموصدة، بعد ذلك يخرج كل منهما من المبنى وكأنهما جنديان من جنود الحرس..

وقامت كارول إلى إيناس لتأخذها برفق إليها وتقبلها كما تعودت بعنف غريب، فاندهشت إيناس هذه المرة وقالت فى أذنها هامسة:

– لماذا هذا العنف ياعزيزتى ؟.. إنى امرأة..

– أريدك ياإيناس أنت نوع مختلف من النساء..

– تريدينني ؟.. أنت تريدينني.. وابتعدت عنها قليلاً وفغرت فاها ولكنها لم تنبس بكلمة.. غير أن كارول بادرتها قائلة:

– تكون ليلتى سعيدة لو بقيت معى الليلة..

– وسندس.. سوف أذهب إليها لأبلغها بما أخبرنى به اللص..

– أخبريها بالهاتف..

وارتعشت أصابعها الممدودة إليها مرة أخرى لتصافحها وقالت:

– أنا حريصة على ألا تنام صديقتى وحدها هذه الليلة..

وصافحتها كارول وضغطت على أصابعها ورافقتها حتى الباب، وكانت إيناس شاردة لقد شعرت الليلة بما تريده، ولما دخلت على سندس أخبرتها بما ينويه اللص هذه الليلة.. وكانت سعادتها لاتوصف، وشرحت لها ماحدث لها مع كارول وأخذت سندس تضحك بصوت عال.. ضحكت من كل قلبها.. إن هذا القائد الذى أحبته وتريده رجلاً لها يغنيها عن كل حياتها السابقة.. أصبحت عودته أمراً واقعاً، وكان حال كارول مع إيناس حديثة العهد بها يعبر عن رغبة جريئة منها.. جعلت الفتاة الصغيرة فى حيرة من أمر هذه الحياة، غير أن سندس حاولت أن تعالج اندهاش الصغيرة بحكمة فقالت لها:

– سوف تصادفين فى حياتك الكثير والغريب من أمور النساء فلا

تندهشي.. إن كارول تحب النساء، فإذا كنت ترغبين في ذلك فلا أحد يمنعك رجربي..

– هكذا في منتهى البساطة ياسندس.. ووضعت ساقاً على الأخرى.. وتهالكت رأسها على كف يدها.. وسكتت.. وأخذت تتفرس في وجهها ثم قالت:

– وهل هذا شئ عادى ؟..

– لقد فعلته معي كثيرا.. ورضخت لرغبتها لأنها سكرتيرة الرئيسة ولها سلطات، وإذا لم ألب رغباتها فسيكون الغضب شديداً علىَّ.. ومن يقدر على إمرأة في هذا المنصب ؟..

– بدأت أخاف من مبنى المدينة..

– ولكن لاتخافي مني.. إنني أريدك معي حتى بعد عودة القائد..

– ليس هناك داع لذلك.. لقد انتهى دورى..

– عند رئيسة المدينة بدأ دورك يا إيناس.. هل يكفيك الطابق الأول لتقيمي فيه ؟..

– سوف أذهب بعيداً عن هذا الجو.. أشعر بخوف شديد من هؤلاء النساء..

– وأين تذهبين.. إن المدينة مخيفة لن تقدرى عليها ومليئة بالذئاب.. ولاتنسى أنك في مكانة عالية.. كوني أكثر واقعية..

– ليست عندى تلك الرغبات الجامحة..

– لا أحد يجبرك على شئ.. وقامت إليها وأخذت تقبلها تقديراً لأخلاقها وقالت وهي تجلس على حافة الفراش:

– ليتني كنت مثلك.. أنا لم أشعر في يوم بهذه المشاعر الصافية.. وانحنت قليلاً ثم أردفت قائلة:

– وهل تستطيع امرأة رغم اختلافها الشديد عني في مثل هذه الأمور أن تظل صديقة لي.. وتساعدني على طريقي ؟..

– سوف أبذل قصارى جهدى..

الفصـــل الثالث

ولما كانت نيروز وكارول تنام كل منهما فى أحضان الأخرى بعد انتصاف الليل بقليل، انتهز اللص فرصة تغيير الحرس فى الساعة الثانية.. إذ تحدث جلبة عند انصراف الحرس عن الباب الذى يفضى لغرف السجن الخمسة.. وقتها يكون رقيب سرية الحرس قد راح فى نوم عميق.. فيضطر الحارس إلى ترك الباب بلا حراسة ويذهب إلى غرفة الجند ليوقظ الحارس الذى ينوب عنه.. وانتهز نبيل محمود صديق اللص الشريف فرصة غيابه.. ليعتدى على المرأة الخاصة باللص، وكانت تلك المرأة جميلة تبادل نبيل نظرات الإعجاب منذ وقت طويل.. ولما اقترب منها لينقض عليها تصنعت أنها تقاومه.. ثم تركت نفسها له عن طيب خاطر.. كانت تخاف من اللص فخضعت له.. ولكنه لم يكن يكفيها لضعف جسده.. وكانت فقيرة وتريد أن تأكل وتعيش فى بيت رجل يحميها.. وكان اللص يتمنى كثيراً من النساء ولكنه كان عاجزاً عن إشباع المرأة التى فى أحضانه كل ليلة، وكانت جماعة سيد أبو عاطف تسهر كل ليلة فى بيت ثروت المناديلى، وكل ليلة يأتى لهم عبد من سلالة العبيد القديمة يُدعى محمد سعيد.. يجلب لهم امرأة من السوق ليأتوها جميعاً فى شراسة.. يأكلون الخبز المقدد بالجبن القديم فى شراهة.. وكذلك يدخنون الشيشة.. ويقدم لهم رجل عجوز من سلالة قطاع الطرق منذ عهد بعيد.. يقدم لهم شاياً ثقيلاً بلون الحبر الأسود فى أكواب صغيرة.. وكان هذا الرجل المدعو سيد مرسى يهوى شى الجرذان على نار القصعة الحامية كل ليلة.. ويلتهمها ببقايا الخبز.. وكان سلامة قد بدأ يمل من حياته بلا إمرأة.. ولم يكن فى القصر غير الخادمة سعدية بنت منصور التى تعلف الخيل كل صباح ومساء.. وكان يندهش حين يراها تدخل الحظيرة شبه عارية كاحلة العينين منكوشة الشعر وكأنها تدخل إلى رجل تعشقه.. يفكر قليلاً ويثار أيضا ولكنه يهرش فى رأسه ويقول محدثاً نفسه.. دنيا.. ربنا يعوض علىّ.. العوض عند الله.. وربما التى طلقت ثورها برهوم تجد لذة لانهائية عندما تتلصص على

العبدة وهى تداعب وتلامس جسد الفرس قنطار.. وكانت وكأنها تداعبه هو الأخرى.. وفكرت أياماً أن تفعل كما تفعل سعدية بنت منصور.. لكنها تذهب إلى غرفتها بعد رؤية العاشقة مع حصانها وتفكر فى سلامة وكيف توقع به.. والسيدة الكبيرة مرضت مرضاً شديداً لزمها الفراش أياماً طويلة.. ولم تعد قادرة على القيام بأى عمل أو حتى مغادرة فراشها، وكانت تخاف على ابنتها سميرة من الشيطان، فلما صرحت لها فى يوم أنها تريد الزواج كما تتزوج الفتيات قالت لها الأم.. صبراً قليلاً فعندما تنتهى الحرب سيتحقق كل المراد ولكن سميرة قالت لها.. إن المدينة لايوجد بها رجال.. وإن فى القصر رجلين: برهوم طلقته زوجته وسلامة هجرته زوجته.. فكان انفعال الأم شديداً على إبنتها فزادها ذلك مرضاً على مرض، وكادت تروح فى غيبوبة ويسمعها من بجوارها تقول:

– كيف تتزوج العبد ؟!.. وكيف تذهب بتفكيرها فى رجل متزوج ؟!!..

المصيبة أنه لايوجد رجل.. لماذا لايجلب المحافظ رسالة شباب من الخارج ؟!.. لو كنت رئيسة بلدة لأسرعت فى ذلك الأمر حتى تتزوج النساء وتسعد المدينة.. وتكرر ذلك وتقول كثيراً وكأنها تهذى أو تحلم.. ثم تروح فى الغيبوبة مرة أخرى..

وبرهوم الذى ينام فى البدروم.. يوبخ سعدية كل ليلة حتى تكرهه ولاتفكر لحظة فى أن تطرق باب غرفته.. كان العبد برهوم حريصاً أن يفعل ذلك كل يوم وليلة.. يواظب على أداء الصلاة، ويخرج فى الظلمات إلى المسجد ليؤدى صلاة الفجر.. وعندما يعود يبدأ يومه بجولة على ظهر جواده حول القصر.. وفى ليلة من الليالى وهو ذاهب لأداء صلاة الفجر وجد عجوزاً تتكش فى كوم زبالة قرب القصر.. وانحنى عليها برفق حتى يعرف هويتها.. فوجد وجهاً بائساً شريداً، وقامت إليه بظهر شديد الانحناء قائلة فى صوت واهن:

– من أنت.. اتركنى وشأنى..

– أتبحثين عن شئ فى القاذورات يا أمى ؟..

– عن طعام.. سأموت من الجوع..

وأمسك بذراعها قائلاً والدموع تكاد تنفجر من عينيه:

– تعالى يا أمى لآت لك بطعام.. أليس لك زوج أو ولد ؟..

– كان لى زوج ومات قبل الحرب بقليل.. ولى بنت وحيدة كانت مصابة بالشلل وماتت هى الأخرى بسبب أمراض الحرب التى انتشرت فى البلدة.. ماتت بعد الحرب بأيام..

– أتوافقين أن أكون ابناً لك ؟..

وتشبثت بذراعه قائلة:

– معقول يابنى !!.. وتطعمنى كل يوم !!.. إن الطعام غال هذه الأيام ونادر الوجود..

– سأقدر على هذا يا أمى.. قالها وكان لايستطيع السيطرة على دموعه.. وبدأ يجهش ببكائه.. فاندهشت العجوز لحنانه وضغطت على ذراعه قائلة:

– أتبكى من أجلى.. صحيح أنك نعم الابن.. إنك تصلح لأن تكون ابناً لأمهات البلدة جميعاً..

ولما وصل بها عند باب القصر تركها عند الباب قائلاً:

– دقائق يا أمى..

وكان يعرف أن السيدة الكبيرة رغم مرضها، فإنها تقوم لتصلى فى فراشها وتقرأ فى كتاب الله قبل وبعد الفجر.. وعلى بابها نقر بأصابعه منادياً بصوت يرجوها فيه.. ياسيدتى الفاضلة أريدك فى أمر هام.. أنا برهوم.. معذرة ياسيدتى.. أعرف أنك يقظة ولذلك جئتك فى مثل هذا الوقت.. ومرت دقيقتان.. ولما انتهت السيدة من صلاتها الركعتين التى تؤديهما قبل آذان الفجر.. قالت بلهفة:

– تعال.. تعال يابرهوم.. ماذا حدث ؟..

ودخل إليها معتذراً ومنحنياً قائلاً وهو ينتصب بقامته قرب فراشها:

– إنى وجدت سيدة عجوزاً تنكش فى ركام زبالة قرب القصر وأنا ذاهب إلى المسجد قبل قليل.. وهى تكاد تموت من الجوع.. فهل لى ياسيدتى أن آخذ إليها بصرة من طعام.. وكانت الدموع تغطى عينيه حتى عاد لايرى سيدته.. فانزعجت السيدة لهذا الأمر وقالت:

– أفى مثل هذا الوقت سيدة مسكينة فى مدينتى تبحث عن الطعام فى كوم زبالة !!

– هذا ماحدث ياسيدتى..

– أين هى ؟..

– عند الباب..

– حرام عليك أتترك هذه المسكينة عند الباب.. يالك من قاسى.. افتح لها كل الأبواب.. فى مثل هذه الساعة يرحم الله من يرحم الناس ألا يكون لنا مثل هذا الثواب ؟.. هل تستطيع أن تأتى بها إلى هنا ؟..

– إنها قذرة الثياب ياسيدتى ورائحتها كريهة..

– ياحسرة علينا جميعاً..

– خذها يابنى.. قالتها لأول مرة.. خذها إلى البدروم وأيقظ سعدية لتعمل لها حماماً كاملاً وتلبسها ملابس من عندها وسأعوضها عنها..

– وبعد ذلك ياسيدتى..

– تعيش معكم فى البدروم.. إنه يتسع لعشرين امرأة مثل هذه.. أهناك كثيرات مثلها ؟..

– بالتأكيد ياسيدتى..

– من الغد وفى الهزيع الأخير من الليل تجول فى المدينة كلها لتبحث عن أى مخلوق ينكش فى القاذورات بحثاً عن الطعام..

– ليست كل أكوام الزبالة يبحث فيها عن شئ.. أنا أعرف أكوام الزبالة التى يذهب إليها هؤلاء.. هى التى قرب القصور وقرب معسكرات الجند وعند

مبنى المدينة والمحافظة..

– فهمت.. افعل هذا من الغد..

– ولكن ليس كل الذين يذهبون إلى تلك القاذورات جائعين أو مساكين..

– كيف يابرهوم.. إنهم أكثر من المساكين..

– لا ياسيدتى هناك الكثيرون الذين يأخذون هذه البقايا وينظفونها ويبيعونها فى الصباح عند مداخل الأسواق..

– وعاد إلى العجوز فأخذها إلى البدروم وأطعمها حتى شبعت.. ثم أيقظ سعدية لتغسلها.. وأبلغ المرأة أنها ستقيم فى القصر بصفة دائمة فلم تصدق.. ونامت قليلاً ولما استيقظت لم تر أحداً حولها.. وشعرت بالجوع ولم تجد إلا غرفاً مغلقة.. فخرجت من باب القصر فرحة بثيابها الجديدة.. وعند أول كومة للزبالة قرب القصر.. أخذت تنكش بحثاً عن الفتات الرث.. ولما ملأت حجرها منه.. ذهبت إلى دارها فى حارة حسنين حجاج.. وفى صباح اليوم التالى جلب برهوم امرأتين كانتا تنامان بجوار نفايات مبنى المحافظة، وأخبر سيدته بأنهما بلا دار فقالت له نأويهما.. ولكنه أخبرها بهدوء أن سعدية ضجرت من العجوز فلن تقبل هاتين.. وسكتت قليلاً وقالت:

– لنا دار فى حى أبو سمك.. لماذا لانجهزها لمثل هؤلاء النساء..

– ومن يتولى أمرهن..

– أنت يابرهوم..

– إن أعمال القصر كثيرة ياسيدتى.. وسيكون هناك أعداد منهن تدخل إلى الدار كل يوم..

– جهز الدار أولا.. خذ هاتين المرأتين واذهب بهما إلى الدار واعرض عليهما الموضوع..

وفى تلك اللحظة سُمع صراخ شديد عند باب القصر، ويبدو أنه شجار نساء.. وهلع إلى تحت.. فإذا بسعدية بنت منصور تضرب إحداهن على مؤخرتها

بالسوط قائلة:

– ياوسـ .. يابنت الكلب إنت وهية.. هوَ القصر زريبة..

ولحقها برهوم وأمسك بيدها قائلاً:

– حرام عليك ليه كدة..

وأمسكت برهوم من خناقه، وأخذت تجره بيديها حتى زلفت قدماه مرتين على الدرج.. وكان يقول.. إيه اللىَ جرى.. اهدى.. طيب سيبينى.. وتقول له وهى تكاد تخنقه.. يخرب بيتك وبيت أيامك السودة.. هاتعمل أخلاق على حسابى عملوا البدروم مرحاض أول مادخلوا عليه.. كل يوم جايب لى شوية.. وذهب برهوم لما رأى كومتين من الوسخ أفرزتهما المرأتان اللتان جلبهما.. فعض على إصبعه واعتذر لسعدية وطلع إلى سيدته ليخبرها.. فانزعجت وأمرته بأن يرجى هذا الأمر فيما بعد، وأن عليه من الغد أن يذهب إلى صلاته فقط..

ولما افلح اللص الشريف فى اخراج الضابط من السجن منحته الرئيسة مكافأة مالية، فاشترى ملابس جديدة وأصلح داره وأكل الدجاج وشرب المرق لكن الراقصة سندس لم تعطه شيئاً ولم تثن عليه ولو بكلمَة فاعتملها فى نفسه وأخذ كمن يفكر لها فى شئ يكسر أنفها فيه.. وتركت الرئيسة سندس تتمتع بزوجها أياماً.. ثم أرسلت إليه رسالة مع إيناس تقول فيها:

(إلى الرجل الذى قدَّم لنا الكثير.. لقد بذلنا جهداً كبيراً حتى نخرجك من السجن، لقد أصبحت واحداً منا ومازلنا ننتظر منك الكثير، فأنتم تعرفون مدى شراسة القائد الجديد، وأنه قد يدمر الدنيا حتى يعرف أين ذهبت وستكون الضحية مدينتى.. إننا أيها الرجل العزيز لن نستطيع أن نفعل شيئاً بدونك وحتى لانضيع وقتاً يجب علينا نحن أن ننقض عليه قبل أن يدمر لنا شيئاً عزيزاً نبكى عليه.. هل تسمح لى أيها القائد بأن أنصبك أميراً للمدينة.. وفى مقابل ذلك سوف أرسل لك رجلاً يدعى سلامة ومعه جماعة من الفدائيين وستكون مهمة هذه الجماعة الاستيلاء على مخازن الذخيرة والعتاد بالمعسكر

الرئيسىّ، وحسب معلوماتى أنكم تحتفظون بنسخة للمفاتيح حتى نستطيع فتح تلك المخازن فى هدوء.. ياسيدى سوف أرسل لك الجماعة هذا المساء فأنت المخطط لهم والدليل وكل شئ حتى نستطيع أن نعيش فى أمان وأن نجعل هؤلاء العسكر يرحلون وهم أذلاء.. وسوف يكون لكم نصيب كبير فى المدينة، ويكفى أننا حتى اليوم قد أهديناك أجمل إمرأة وأخرجناك من سجنك.. وفى الغد سيكون لك أولاد من أرضنا نرعاهم ونحبهم من أجلك.. لاتحدثنى فى الهاتف، فالقائد وجماعته فى اجتماعات مستمرة ولابد أن نضربه قبل أن يفعلها معنا.. أجبنى حالاً برسالة مع إيناس..

رئيسة المدينة..)

ولم تمر ساعة حتى أتتها إيناس برسالة من الضابط مختصرة يقول فيها:

(ياسيدتى تحت أمرك.. أرسلى الجماعة الليلة عندما ينسدل الظلام..

.. خادم المدينة..)

وسعدت الرئيسة بالرسالة، وكانت قمة سعادتها أنه لم يجادلها فى شئ، وعلى عجل أرسلت بمكتوب إلى سلامة وصلتها إيناس إليه فى القصر القديم قائلة:

(.. هناك مأمورية هامة.. أكبر أعمال المدينة فدائية وبطولة.. إنه العمل الذى بعده تتحرر المدينة ويرحل هؤلاء العسكر أذلاء إذا بقى منهم أحد.. اذهب الليلة بعد العشاء مع جماعة سيد أبو عاطف إلى بيت سندس، وهناك ستجد زوجها القائد السابق الذى سوف يخطط لكم كيفية الاستيلاء على المخازن.. وسوف يعطيكم كل مايسهل لكم هذه العملية.. اذهب الآن إلى الجماعة حتى تتهيأوا للذهاب.. وعلى فكرة اعط الجماعة مائة درهم حتى يأكلوا ويشبعوا، وأخبرهم بأن لهم مكافأة كبرى بعد العملية.. بشر أمى حتى تتحسن حالتها الصحية وقبّل لى حبيبى محمد..

.. زوجتك المخلصة..)

وقبل غروب الشمس كانت قد كتبت إلى القائد الجديد رسالة قالت فيها:

(.. أيها القائد الهمام.. قلبى معك.. لاتحزن على هروب السجناء.. فى خلال يومين سأقبض على الضابط.. حملات تفتيشية تدخل كل بيت وكهف وبعد أنتهى من هذه المهمة سوف أخبرك بما وصلت إليه.. ولكن أملى كبير فى العثور عليه.. هذا إذا لم يكن مجموعة من العسكر موالية له قد فعلتها وهربته إلى خارج البلاد.. قلبى معك وأمهلنى يومين..

رئيسة المدينة..)

وقامت كارولين بتسليمه الرسالة.. وأخذها منها قائلاً:

– أنا لست كالضابط الهارب تأتينى هكذا عارية.. أنت امرأة مصيبة..

ولم تبال بما قاله وجلست على مقعد خشبى عال قبالته وقالت وكأنها لم تسمع شيئاً:

– إننا ياسيدى سنتعاون معك.. وغدا عندما نأتى لك بالضابط الهارب ستعرف كم نحن مخلصون لكم.. وأنا أعرف أنك رجل لاتحب النساء وهكذا يكون القادة..

أنا معجبة بك ياسيدى لأنك رجل قوى..

وفتح عينيه عليها فى دهشة وهو يسمع الكلام الودود منها وقال يعتريه قليل من الحياء:

– أنا أحسد رئيسة المدينة لأنك أمينة أسرارها..

– ومستعدة لأن أكون أمينة سر لكل مكاتب هذا المبنى..

وضحك بصوت عال وقال وهو يتفرس بعينيه لمحات وجهها الماكرة:

– قولى للرئيسة سأنتظرها ثلاثة أيام..

– وبعدها..

– لاتلومونى على ما أفعله بعد..

– سنبذل قصارى جهدنا وتأكد إذا لم نجده فهو ليس فى البلدة..

- تريدين أن تقولى كما فى الرسالة أن عسكراً من الحملة قد هربوه..

- نحن لانسبق الأحداث، ولكن ثق أننا نضع أيدينا معك من أجل أمن المدينة..

- سوف أرى كل شئ فى حينه..

وقامت إليه وصافحته وانصرفت.. وأخذ الضابط يقرأ الرسالة مرة أخرى وراح يفكر ماذا سيفعل لو لم يعثروا عليه..

وذهبت الجماعة إلى بيت سندس.. وقابلت الضابط الذى طلع إليهم بوجه صارم.. لكنه صافحهم واحداً بعد الآخر.. ولما جلسوا جلس فى وسطهم.. وأخرج ورقة بيضاء من جيبه وقلماً.. وأخذ يرسم الطريق المؤدى إلى المخابئ التى بداخلها صناديق الذخيرة والعتاد، وكان كل واحد من الجماعة منتبهاً إلى كل كلمة يقولها.. وحسب توصية الرئيسة قدّم لهم عشاءً فاخراً.. وبعد أن شبعوا أكد عليهم أدوارهم فى العملية، وبعد قرابة ثلاث ساعات كانوا جميعاً يعرفون واجبهم.. وسلم سلامة نسخة المفاتيح التى معه حتى يفتحوا الأبواب ولايهشموها.. وقامت سندس بإبلاغ الرئيسة فى الهاتف فى كلمة واحدة هى كلمة السر التى اتفق عليها:

- أنا خادمتك ياسيدتى.. وكررتها ثلاث مرات..

ونامت الرئيسة نوماً عميقاً.. ولما جاءتها كارول تداعبها فى الساعات الأخيرة من الليل، طلبت منها أن تتركها وشأنها لأنها مجهدة.. وفى صباح اليوم التالى كان شئ كبير يعتمل فى قلبها.. وكان صدرها يتنفس ملء رئيته هواء نقياً وكأن كنزاً من الطموح قد دخل إليها.. وأخذت تردد عبارات.. ألست بعد كل هذا امرأة.. لقد شعرت بذلك قبلاً ولما ذهبت إليه طلبت منه ألا يثيرنى.. ياإبنة الخالدى أنت امرأة عاطلة.. لعنة الله على المدينة كلها، لقد سلبتنى رئاستها كل حياتى، إنى لشديدة الشوق هذا الصباح وأتوق لأن ألوذ بفراشى القديم لماذا لا أذهب إليه الآن.. لا ليس الآن.. عندما ينتهى من مأموريته سوف أجرى إليه،

وقتها ستكون المدينة حرة.. تلك الحرية التى لم ترها من قبل.. ولكن كيف وأ
الرئيسة أشعر بأنى مكبلة ضيقة الحركة وكأن العالم كله يراقبنى ويعاتبنى.. هذ
العالم حولى ملك لى ولكنه سجّان ظالم، فهل لى أن تخلص من تلك الملكية حتى
أقتل هذا السجان الفاجر.. هل ذهبت الإنسانية فى داخلى ولم يعد غير الحر
والجوع والفقر، هل أنا كفيلة العرايا ومصلحة الغانيات فى بلدة فقيرة فى كل
شئ، وإذا كان الله يريد لها هذا الفقر.. فهل أغير إرادة الله، أخوفى من كل
أنواع التردى هذه جعلنى أنسى تماماً أننى كنت فى يوم منظومة للحب، عاشقة
تنسكب فى قوالب شعرية وموسيقية لذلك الزوج ؟.. ألم أكن أنهل عشقه ؟.
تحديت أبى وأهلى جميعاً من أجله.. مرضت وضعفت من أجل شبابه، فى يومه
كنت أخاف من المدينة كلها أن تخطف منى هذا الرجل.. كان كل واحد من البلدة
عدواً لى، فى تلك الأيام كان كل من أراه يصفعنى ويقذفنى بكلمات قبيحة، كنت
فى ذلك الوقت أدخل عليهم رجلاً غريباً هم جميعاً يرفضونه.. وكم عايرته
وحاربته بأفكاره التى تسلط على أهل المدينة وضعاً لا يقبلونه.. لقد رأيت تصوراً
كاملاً لكل ماقاله أثناء الحرب وبعدها، ولو كان أهل تلك المدينة تركوا عاداتهم
وتقاليدهم القديمة، واتبعوا بعدها تلك القيم الذى كان دائماً يرددها معى لما كان
حال المدينة هكذا، فعندما سمعت آذان الفجر جهراً كل صباح وزاد عدد
المصلين، وكثر عدد الصالحين بعد الحرب، وكان الناس رغم فقر حياتهم قد بدأوا
يبحثون عن أعمال لهم حتى يأكلوا ويعيشوا، وأنهم لابد أن يقاوموا كل مظاهر
الفقر البشعة، ودقت أجراس الكنائس بعد طلوع الشمس فزادت الناس وهجاً
على وهجهم، وفتح الله على المدينة بعد ذلك بالبطولات التى تحمل البلدة درجة
بعد أخرى نحو سلام دائم وحرية ورخاء.. ولماذا رغم ضخامة وثقل هذا الجو
فوق رأسى.. لماذا لا أعيش حياتى الخاصة كما أعيش تلك الحياة فى ذلك المبنى
المخيف، إن شيئاً كبيراً يغل نفسى ويزيد من كبرياء أعمال اليوم.. هل جئت
لأترهبن حتى أنتصر.. ليس فى ذلك رهبانية ولارهبانية فى دين، أنا بعيدة عن

كل هذا أو ذاك.. لقد أتتنى كارول كما يأتى الرجل إمرأة.. وهل يصح ذلك لرئيسة مدينة، أم أن هذا هو الضعف الإنسانى يأتينا مهما يكن شأننا، أكان يتغير هذا الأمر لو كنت منذ طفولتى متدينة.. وكنت مثل أمى قلباً وقالباً، إن منصبى كرئيسة مدينة جلب لى كارول.. وكارول امرأة لاتقاوم وهى خير معاون لى وكم ساعدتنى.. لا أعرف ماذا أفعل.. أئذا حل السلام عدت إلى بيتى وزوجى.. أم أننى سأظل فى حاجة إلى تلك المرأة بين حين وآخر، إن شيئاً من هذا الخليط يشملنى.. ولكن أمراً واحداً يأخذنى بقوة من هذا الخليط.. إن كل مافى المدينة يشدنى إليه.. فهل كانت تلك البلدة وهذا الخليط جزءاً من حياتى.. إن جاهاً وسلطاناً كبيراً فى مخيلتى يجذبنى إلى آفاق بغير حدود.. هى أقوى من تلك الحياة البسيطة التى تراودنى فى بعض الأحيان إلى زوجى وابنى وأهلى.. إن مشاعرى نحو الطموح والسلطة واللقاء مع كارول هى جميعها أقوى من الحب لرجل وأعز من العطف على ابنى.. إن زوجى يكفل ابنى وهو قادر على ذلك.. وأنا أكفل مدينة بأسرها.. وتمددت فى الفراش وتثاءبت كثيراً وشعرت برأسها المثقلة تتهاوى بين كتفها فاحتضنت فراشها وحاولت أن تذهب فى النوم.. وجاءتها كارول.. ودخلت إلى جانبها تحتضنها فتركتها.. غير أن كارول قالت لها فى تودد:

– أليس من حقى أن يكون لى رجل بعد كل هذا العناء ؟..

وضحكت الرئيسة قائلة:

– أنت رجل ياكارول فكيف لك بهذا !!

وردت عليها وهى محزونة:

– لن يطفئ نارى إلاّ رجل.. ولكن أين هذا الرجل ؟

– ألا تستطيعين أن تجدى رجلاً من هؤلاء العسكر كما فعلت سندس ؟..

– هذا الضابط الذى كان يعشقنى أصيب بمرض شديد.. ولم يعد قادراً على معاشرة أى امرأة..

– هناك عسكر كثيرون..

– أنفر منهم جميعاً.. ولم يكن هناك غيره يروقنى..

– ابحثى فى المدينة عن رجل..

– هناك رجل قوى فى الجماعة ولكنه فى حاجة إلى تلميع وتنظيف..

– من هو ؟..

– ثروت المناديلى..

– أعرف أباه.. كان أبوه رجلاً صالحاً يدعى حداد الحاج على.. ولكن فرق كبير بين الابن وأبيه.. إنه يبيع المش بدوده بأسعار غاليه فى السوق ويستغل حاجة الناس..

– أليس ثروت واحداً من جماعة الفدائيين ؟.. إنهم جميعاً أبطال..

– أبطال ولكن.. إننا نرى فيهم أعمالهم البطولية.. لكنهم جميعاً يزنون ويدخنون الحشيش..

– ومن منا لايزنى ولايفسق.. إننا جميعاً نقوم بأعمال بطولية من أجل المدينة ولكننا مع ذلك نقوم بأعمال يستحى لها الجبين..

– لاتثقلى رأسى بأحزان أخرى.. ليتنى أكون كأى إمرأة فقيرة عارية ولا أحمل ذلك الحمل الذى يجثم على صدرى..

– دعينا من كل هؤلاء الرجال.. وتعالى نتذكر أيامنا الأولى..

– أنت هزيمتى ياكارول..

وخلعت نيروز ثيابها دون أن تدرى.. وكأن كارول تسلط عليها سحراً لاتستطيع مقاومته.. وراحت الرئيسة ترقص فى فراشها.. ثورة.. جسد ثائر قوى وصدر بارز يقوده.. ورأسها التى راحت تفكر بعيداً لما كانت طالبة فى الجامعة وتذهب إليها لتسكن عواطفها الحارة، إن جسدها أجزاء حارة شابة متماسكة عنيفة.. وتلك الأجزاء ترتبط برباط سحرى أخاذ ناهم متوحش فى رأسها وشعرها وعينيها.. وأخذت تقترب وتتسلق وتحنو فى اضطرام غريب مرتعش،

واحمرت الوجنتان. لكن ليس فى خجل، وشعرت برعدة تسرى فى جسدها كأنها تصعق، وتأوهت كارول والتهبت وتنازلت الرئيسة عن كل شئ.. إن الرئيسة امرأة من الغجر وليست من السادة.. أليست هذه المرأة التى مازالت تهزم الجيش الغازى، وشنقت المرأة التى قتلت دحروج.. وأخرجت القائد من سجنه.. وأنها وهى فى طريقها للنصر الكبير والسلام.. إنها وهى فى طريقها إلى ذلك أكثر من غانية.. وياليتها مع رجل.. إنها مع امرأة ضيعت عندها كل معانى الرجال، امرأة اخترقت كل الحواجز الخفية التى جعلتها كلما التقت بزوجها قالت له.. افعل ماشئت إلا صدرى.. لاتثرنى.. لاتثرنى فأنا جثة هامدة.. أنا جثة هامدة معك حتى تنتهى الحرب.. وهكذا ضلت النساء.. وكانت كارول تعنفها بقولها.. ألسنا بشراً ؟.. بعد كل هذا العناء لابد أن نسرى عن أنفسنا، لابد أن تكون لنا حياتنا الخاصة.. وكانت المدينة فى ليلة أمس أشد من أى ليلة فى الفسق والانحلال.. وكلما ازدادوا شبعاً بعد جوع الحرب ازدادوا انحرافاً ولم يتجهوا إلى المساجد ليعمروها وإلى الكنائس ليزوروها.. ونامت المدينة فى هذا النهار حتى بعد الظهر.. ولم تسع البلدة فى رزقها إلا بعد أن قامت الرئيسة من أحضان كارولين لتستحم وتستعد لجولة جديدة فى المدينة.. فهل يسعى الناس الأحرار والذين يعرفون الله.. هل يسعون إلى أرزاقهم بعد الظهر ؟.. وكان كركور وعبده أبو حتة كوز وبرهوم وعصام عطية وحداد الصاوى وعبدالحميد القطان - هؤلاء فقط رجال طيبون - يذهبون إلى المسجد الكبير فى الفجر، ويسعون إليه فى الظلمات مسبحين الله.. وكان الله يسمع تسبيحهم ودعاءهم.. وكان يمهل المدينة عسى أن يزداد عدد الصالحين.. وكان يصلى بهم شيخ يدعى محمد أبو على.. وبعد الصلاة يقرأون من كتاب الله حتى تطلع الشمس.. ثم يخرجون من مسجدهم ليجلسوا قليلاً على درج باب الجامع.. يتحادثون قليلاً ثم ينصرفون إلى السوق ليشتروا قليلاً من الجبن والخبز الذى جمعته النساء من أكوام الزبالة.. ويوم يمر ليطويه يوم آخر والصالحون فى المدينة هؤلاء فقط.. وفى القصر القديم كانت

السيدة الكبيرة مازالت تمسك زمام الدين فيه، ولكن المرض الشديد قد أقعدها تماماً عن أية حركة، وكانت تتحسر على كل مايدور حولها فى القصص ولاتستطيع أن تقوِّمه حتى بكلمةً. فهذه سميرة ابنتها مازالت تتعرى وتتبجح بجسدها امام سلامة وبرهوم ولاحياء، ولاتستطيع أن تعيد زواج ريما وبرهوم، وسعدية بنت منصور العبدة تتصرف فى كل الطعام والمؤن التى تصل القصر كما تشاء، فيذهب كل شئ حسو الهوى.؟ وكان كثير من الجائعين والسائلين الذين يأتون إلى القصر يعودون كما جاءوا دون بلغة واحدة من طعام تسد رمقهم.. وكانت العبدة تشتمهم وتبصق فى وجوهم.. وكانوا يبكون وهم ينصرفون متسائلين.. أين السيدة الكبيرة.. وكانوا يعرفون أنها مريضة ولكنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا إليها.. لأن العبدة تقف حائلاً حتى لاتصل أى شكوى إلى سيدتها.. وكان سلامة مشغولاً مع الفدائيين، وريما جن جنونها تريد أن توقع بسلامة وتبحث عن الحيل التى توصلها إلى ذلك.. أما بسنت الصغيرة والتى بلغت الخامسة عشرة.؟ هى التى تسهر على رعاية أمها. وهى الوحُة من نساء القصر التى تصلى وتقرأ فى كتاب الله وتسمعها السَّيدة الكبيرة فى تبتل وخشوع.. وكانت تمسك بيدها الصغيرة وتقبلها.. أما محمد الصغير فكان دائماً يلعب فى فناء القصر بالكرة.. وتراه مرات أخرى يدخل إلى حظيرة الجياد خلف سعدية ليضربها بالسياط حين يراها تمسك بجسد الفرس.. فتجرى خلفه محاولة إخراجه من الحظيرة.. وتقفل الباب عليها حتى تهنأ مع الفرس قنطار..

وأخذت ريما تتزين وترتدى ملابس شفافة وتقترب من الصغير محمد تشبعه تقبيلاً، وأحياناً تلعب معه الكرة فى الفناء لتسعد سلامة، وكانت تأخذه كثيرا لينام معها، وفى ليلة ذهبت إلى غرفة سلامة لتأخذ محمد من بين أحضان أبيه قائلة وهى تطرق الباب:

– سلامة.. اعطنى محمد.. إن النوم لن يأتينى بدونه..

وقام من نومه مندهشا لاهتمامها بمحمد إلى هذا الحد وقال:

- إنه نائم ياسيدتى ريما.. ياسيدة القصر إنه يغط فى نومه..

ودفعت الباب ودخلت إليه قائلة فى ود بالغ:

- منتهى الأدب ياسلامة.. أنت تدهشنى باحترامك حينما تدعونى بسيدة القصر.. إن القصر له سيدة واحدة..

لكن سلامة استغرق فى مجاملتها قائلاً:

- أنت سيدة أى قصر.. فالملكة ملكة..

وكان سلامة يحاول أن يستدرجها ولما كانت تتمنى ذلك.. جلست بقميصها الذى يكشف عن مفاتن جسدها على حافة السرير قائلة:

- هل هو نائم حقاً.. ومدت ذراعها إلى جسد الصغير لتتأكد من ذلك فالتقى جسدها بجسد سلامة وهى تنحنى على محمد للحظات.. ولما عادت إلى جلستها الأولى كانت تتمنى ألا تعود، وتمنت لو ظلت منحنية على الصغير أبداً.. وقعد فى فراشه ووضع رأسه على كف يده، وشعرت بأنه يبتعد عنها قليلاً فشعرت بقليل من الحياء وقالت:

- هل تذكر أيام العاصمة ؟.. أيام هند وذكرياتنا.. هل تعتقد أن هند مازالت باقية فى الحياة ؟..

- أذكر كل شئ.. أعتقد أنها لم تمت.. ليتنى أراها ثانية.. وامتعض ثم سكت قليلاً وقال:

- أنا أعيش محنة ولا أعرف متى تنتهى..

- أى محنة.. وكيف يكون هذا حالك ولا تفاتحنى فى الأمر..

- إن محنتى هى المحنة التى يعيشها كل الناس منذ الحرب، ولكن زيادة على الناس أن زوجتى رئيسة المدينة.. ولم يعد لى زوجة من هذا اليوم الذى انقلبت فيه إلى رئيسة..

- لامكان لهذا الحرمان فى قصرنا.. وكيف يجوع رجل والمدينة كلها نساء.. وتنهدت ملء صدرها ثم استرسلت قائلة:

– لماذا لاتطلبها تأتيك أو تذهب أنت إليها..

– جاءتنى جثة هامدة.. تقول لى افعل ما شئت ولكنى لاتثرنى.. أعطتنى جسداً بارداً هامداً..

– تزوج ياسلامة.. تزوج..

– وهل يستطيع زوج مثلى أن يتزوج.. إن بطش الرئيسة سيكون شديداً وتذكرى دائماً أننى رجل غريب.. والرئيسة عادت امرأة حرب ولها بأس شديد.. إن الطريق إلى ذلك ليس سهلاً..

واعتدلت فى جلستها واقتربت منه وقالت فى لطف:

– أنا الوحيدة التى تجرؤ على الزواج منك..

وشعر بسحر جسدها يلامس قدميه.. ولكنه حاول أن يظهر برودة فقال:

– أنا أعتبرك شقيقة لى.. فكيف..

وضربته على صدره بيدها وزعقت قائلة:

– أنت فى الأصل لى أنا.. ولكن حظى.. حظ كل واحدة تذهب إلى طريق غير طبيعى.. الزار والنساء والرجال الكبار.. حتى زواجى من برهوم.. كل هذا كان تخبطاً ورغبات جامحة غير عادية، فكان مصيرى فى النهاية امرأة مازالت تبحث عن زوج فى مدينة أصبح للعبيد فيها ثمن وقيمة، والله لو كان هذا الرجل محافظاً حقيقياً ويحب بلده فلينشئ بنكاً للنساء.. تجد فيه المرأة ضالتها..

وضحك سلامة ملء فيه وأمسك بكف يدها وقبله وقال:

– والله أنت مثل العسل النحل.. كلامك فى منتهى اللذة.. تقصدين إذ كان عمى المحافظ يحب بلده حقاً يستورد رجالاً من الخارج..

– وما الخطأ فى ذلك.. وأكون أنا مديرة لهذا البنك حتى أختار أفضل رجل يصل فى أول رسالة..

– حال هذه الإنسانية مزر فهذه البلدة تعانى من قلة الرجال، إلى درجة جعلت إمرأة مثلك من سلالة العائلات الكبيرة تفكر فى بنك بجلب الرجال، وقبل

سفرى من بلادى إلى تلك البلاد.. جاءنى صديق فى يوم وهو آسف على حظه مع زوجته وقال لى:

تصور أن امرأتى تقول لى تزوجنى من جديد، ولما قلت لها كيف.. قالت.. لن أعطيك نفسى ماحييت إلا إذا دفعت لى مهراً لايقل عن عشرة آلاف جنيه، فقلت لها.. ولماذا هذا الشئ العجيب وبعد خمسة عشرة عاماً فى الزواج أنجبنا خلالها ثلاثة أبناء.. قالت.. أنت لم تعطنى مهراً عندما تزوجتنى.. فقال.. لم يكن لدى مال وقبل أهلك بذلك وليس فى هذا عيب إذا كان هذا حال الشباب.. وتزوج الكثيرون بهذا الحال الذى يقول رزقى ورزقك على الله.. ولما فتح الله علينا تفترين علىّ.. فقالت له.. هذه شروطى.. فقال هذا كفر.. إن معنى هذا أنك تمنعين حلال الله على.. وأنا لا أستطيع الآن أن أبحث عن حلال آخر فكل همى تربية أولادى.. وظل صديقى على ذلك الحال صائماً عن النساء لأن زوجته منعته عن نفسها بهذا الانحطاط، لكنه فى يوم قال لها.. سوف أكتب لك هذا المبلغ فى إيصال وكل عام أسدد منه جزءاً.. فوافقت بعد حوار مؤلم، ولما تهيأ لها ليأتيها.. رفض مافيه من رجولة أن يأتيها ولم ينتصب.. لقد كرهتها نفسه إلى الأبد.. وصام عنها وعن كل النساء وعوضه الله عنها بأشياء أخرى أكبر بكثير من هذه المتعة الحسية..

وقامت ريما مندهشة تضرب كفاً بالأخرى وتقول:

– يالها من إمرأة خسيسة ومن معدن رخيص حقاً.. حتى ولو أن إمرأة كرهت زوجها لأى سبب فلا يجب عليها أن تفعل هذا وتضع شروطاً لكى يعاشرها.. إنها حكاية طويلة ومريرة وعلى صديقك أن يطلقها أبداً..

– لقد فوض أمره لله ولم يعد الآن يبكى على أى امرأة.. وهو الآن يتحمل خطاياها من أجل أبنائه..

– اذهب إلى بلادك ياسلامة وأتنى بصديقك..

– وأولاده.. إنه لايستطيع أن يفارقهم وهم هناك فى مدارس، وحال المدينة الآن لايسمح بتشجيع أحد أن يهاجر إليها..

– هكذا بلغت أخلاق الرجال فى بلادكم..

– إن هناك عشرات الآلاف من الأزواج فى بلادى.. لولا الأبناء لطلقوا نسائهم بعد عامين من الزواج.. إن كثيراً من النساء فى بلادى أصبحن سافلات وحقيرات..

– ولماذا ينخدع الرجال بهن ؟.. ألا يستطيع الشاب أن يعرف معدن التى يتزوجها..

– قبل الزواج تمثل كائنها فى منتهى الرومانسية والأخلاق.. وبعد أيام قليلة تخلع هذا الثوب لترتدى ثوباً آخر قبيحاً..

وقامت إلى النافذة وفتحتها وتكلمت وكأنها تحادث رحاب السماء..

– حال النساء فى كل البلاد قريب.. أليست هذه زوجتك.. وماذا تعنى رئاسة المدينة.. أن تكون مثلاً للناس جميعاً.. لقد ألقيت بك وكأنك لست شيئاً فى حياتها..

وقام إليها ورأت له تلك الرحاب والآفاق الواسعة فى تلك السماء المرفوعة عالياً فوق ذنوب البشر.. وقال وكأنه يعتذر لها..

– ياسيدتى إن فضلك علىّ كثير.. لكن فضل الله علينا جميعاً مثل تلك السماء فهى مازالت مرفوعة فوق جرائمنا التى نقترفها فى النهار والليل، والغيث ينزل منها والنور يسطع فيها وفى كل وقت.. ونحن البشر نعبث ونسرق ونكذب ونزنى.. لقد عاد الزنا كأنه كهف نلوذ به لأنه ليست لدينا بيوت.. رغم أن بيوتنا جميعاً واسعة ومريحة.. ولكننا جميعاً قد ركب رؤوسنا الشيطان ومازلنا نبرر تلك الأعمال السيئة التى تقترف تحت قبة هذه السماء.. بأننا بشر مخطئون والله يغفر.. يالها من حماقة.. إننا جميعاً ياسيدتى نعيش فى تلك الأرض التى أسأنا السير فوق ترابها الخصب، إننا لانستطيع أن ننظر إلى السماء.. ولو تأملنا قليلاً منها لدخل قلب كل منا قليل من الود والرحمة.. ياسيدتى إن تراب كل هذه الأرض لايسد رمق نفوسنا الضعيفة..

وأمسكته من ذراعه وضغطت عليها بأصابعها وقالت له فى رجاء:

– قبلنى.. خذنى إلى أحضانك..

– كيف أقول هذا وآخذك إلى أحضانى.. تعالى ياسيدتى نذهب جميعاً ولو قليلاً إلى أحضان تلك السماء.. أرجوك ياسيدتى تأملى قليلاً هذه السماء.. ولكنها تشبثت به واحتضنت جسده بيديها، وخيم شعرها الأسود الفاحم على وجهها وارتمى بعض منه على صدره.. وتهدجت أنفاسها بقوة وتلاصقت بوجهه.. وارتمت تلك الأنفاس مرة واحدة على شفتيه وقالت فى رقة بالغة فى عنفها:

– أنا الوحيدة التى تجرؤ على الزواج منك..

– فى الدين لايحق لرجل أن يجمع بين أختين..

– سأقتلها كى أتزوجك..

– لا تستطيعين إن هناك كثيرا من الحرس.. عودى إلى برهوم..

– إنه قاتل ولن أستطيع الارتباط بعبد طيلة حياتى، أنا فى حاجة إلى رجل أرقى من العبيد.. إنهم من طينة وأنا من طينة أخرى..

– ولماذا تزوجتيه..

– لقد شدنى بإيمانه وكان ذلك جديداً علىّ وكنت تواقة لأعرف الإيمان فى رجل..

– وهل وجدتيه ؟

– وجدت أشياء أخرى غمرتنى فى الحياة لم أكن أعرفها من قبل..

– ماهى ؟..

– عرفت قوة الرجل الحقيقية فيه.. إنه ثور فى صورة عبد..

– وماذا تريدين بعد ؟..

– أعتقد أنك تجمع بين الأثنين..

– أنا لست من سلالة العبيد.. وكل مافى الأمر أننى جئت إلى بلادكم لأبحث عن الحياة فيها.. لأن مدينتى بعد حروب طويلة كانت تعيش معاناة

شديدة.. ولماذا هذه المعانى الضيقة.. ألسنا جميعاً عبيد الله..

– تذكر الله كثيراً وتخيفنى..

– يجب علينا أن نخافه..

– أنت حالة وسطى بين العبيد والسادة.. ورجل قريب من الثور..

– لست هذا وذاك..

– لو لم تكن ثوراً ماقاتلت نيروز كل العائلة لتتخذك رجلاً..

– ربما حاولت أن أكون فناناً فى حبها.. لأننى أعشق حياة القصور رغم عبوديتها.. وأعشق أكثر رؤية الأميرات.. فما بالك وقتها كنت أحب أميرة.. وتلك الأميرة الناعمة تضحى بكل شئ من أجلى.. أليس هذا كنزاً من السماء نزل على.. لقد تأملت السماء وقتاً طويلاً فى بلادى..

– لقد تهالكت قواى.. ولم أعد احتاج إلى الثور.. أنا فى حاجة إلى رجل يأخذنى فى أحضانه برفق شديد ويربت على ظهرى ويقبل رأسى حتى أنام..

– أرجوك أتركينى.. إن الصغير قد يستقيظ ويرانا..

– لقد ذهبت كل الغانيات والعاهرات إلى الملاهى.. لأنه ليس فى بيوتهن رجال.. ولكن فى بيتى رجل يكفى أكثر من امرأتين..

– لايمكن الزواج بشقيقتين ويجمعهما رجل فى بيت..

– تزوجنى سراً..

– هذا زنا..

– إعشقنى..

– أيضاً زنا..

– كل الناس تعشق.. (وسكتت هنيهة ثم قالت:

سوف تظل فى البيت قابعاً ولن تكون لك زوجة.. إن كارولين تغنى أى إمرأة عن الرجال..

وفغر فاه وأمسك بكتفيها ودفعها عنه قليلاً وقال:

ـ أهى إمرأة شاذة ؟!!..

– لاتوجد امرأة أو فتاة فى قصور المدينة قبل الحرب إلاَّ وذهبت إليها.. لقد قامت بدور هائل جداً للنساء اللائى يفتقدن الرجال.. ولم يكن أمام هؤلاء النساء جميعاً غير كارولين.. وكانت تستعين ببعض الفتيات اللائى يقمن بالعمل معها فى أوقات تدفق الطلب عليها لأنها كانت تتعب من كثرة ممارساتها..

– إن الدين يعاقب على مثل هذه الأفعال بجزاء بالغ..

وتقدمت إليه بشدة واحتضنته بيديها.. كان كفاها مقبضين من حديد.. وراق لها أكثر لما وجدته بين أحضانها يتهاوى، وكان عليها أن تلصق بتهم أخرى على زوجته، حتى يمل منها ويضجر ويستسلم.. فقالت له وكأنها تخبره بأن زوجته قد ضلت طريقها وعليه أن يفيق من غفلته:

– لقد سمعت أن الرئاسة فى العاصمة قد تصدر قرارا خطيرا ومفاجئاً..

– خطيراً.. أخاف من قرارات الرئاسة فى تلك العاصمة الظالمة..

– وسوف أخبرك حتى تعرف وترى الغد.. إن غداً لن يكون فى صالحك أبداً..

– أرجوك أخبرينى..

– سوف يتم تعيين نيروز رئيسة للمنطقة الشمالية جميعها..

– إن رأسى سوف يتهاوى.. ماهذا الذى يحدث ولماذا ؟

– رئيس هذه البلاد المترامية الأطراف يحب النساء الجميلات.. لدرجة أنه يرسل بمندوب دائم إلى كل بلاد العالم ليجلب له فتيات ونساءً..

– وما علاقة هذا بالقرار ؟..

– استطعت أن أستحوذ على ود فتاة تدعى نهى سراج الدين تعمل فى بلاط المحافظ.. إنها تأتينى بأى أخبار مهمة هناك.. حيث أخبرتنى منذ أسبوع.. بأن الرئيس فى العاصمة سيوافق على إنشاء بنك فى المدينة مقابل أن تكون نيروز واحدة من نسائه.. حتى يضمن ولاء البلدة له.. وحاول أن يتماسك ويتلقى

كل مافى جعبة ريما بهدوء فقال:

– ألم يعرف أنها متزوجة ؟..

– إنه لن يتزوجها.. ستكون واحدة من نسائه.. ألا تفهم ؟..

– عشيقة ؟..

– نعم.. أخيراً فهمت..

– وماذا كان رد المحافظ ؟..

– لقد أرسل فى طلب نيرون وعرض عليها الأمر..

– وافقت بالطبع..

– مازالت تفكر..

– ولماذا تتردد ؟.. عليها أن توافق من أجل صالح المدينة.. حتى يشبع الناس بعد جوع..

وكان سلامة يرمى إلى استدراج ريما.. وأنه رجل يحب الفقراء والمساكين فليفعل الناس جميعاً من أجل البلدة مهما كانت التضحية..

– وهل توافق على أن تصبح امرأتك عاشقة ؟...

– وقتها ستكون الدائرة حولى أكبر منى.. سوف أحمل ابنى على كتفى وأعود إلى بلادى..

– ولماذا تعود إلى شقاء آخر.. لم لا تكون واقعياً.. إن الرئيسة لن توافق على صغيرها أن يرحل معك..

– سوف أرحل وحدى..

– وكان لابد له من حيلة حتى يتخلص منها فى هدوء فقال كمن يعدها:

– ولماذا لا أرحل إلى قصرك.. أما كان يجب أن أكون زوجاً لك منذ قدومنا إلى المدينة..

وأمسكته بكفى يديها وجهه وكأنها لاتصدق:

– هكذا نلتقى.. فلنصحح ماوقع فى الماضى من أخطاء..

- أستأذنك كى أذهب إلى الصلاة فى المسجد.. لقد اقترب وقت أذان الفجر..

- هذا وعد حتى ألقاك فى الغد.. سوف آتيك كل ليلة.. إننى لا أستطيع فراقك..

وربت على كتفها محاولاً التودد إليها وقال:

- وأنا أيضا..

ولم تستطع الرئيسة الوفاء بوعدها مع القائد الجديد.. فأرسل لها رسالة يخبرها بأنه يبحث عن الجماعة التى أخرجت القائد القديم من السجن، ولم تكن تستطيع أن تمهله.. وأخبرته.. أن يفعل مايروق له، أما عن القائد الهارب وجماعة سيد أبوعاطف فقد أصابهم جميعاً بؤس شديد.. ضلوا طريقهم واشتبكوا بالسونكى مع أحد الحرس عند الأسلاك الشائكة، وأصيب زميلهم عادل خطاب بجرح عميق فى صدره، وكان شغلهم الشاغل أن يحملوا زميلهم على أكتافهم.. ويفروا به إلى أقرب مركز إسعاف.. وهناك لفظ أنفاسه الأخيرة.. وكانت زوجته القديمة أشد حزناً عليه، تمشى فى المدينة وتطرق باب كل بيت وتنادى عليه قائلة.. عادل تعال ياعادل.. فلا يرد عليها أحد، وأصابها خبل شديد وتورمت قدماها الحافيتان من كثرة المشى فى الشوارع المكتظة بالحفر والحجارة، وحاول عصام عطية أحد الرجال الطيبين أن يثنيها عن شرودها وآلامها، وأخبرها بأنه يريدها زوجة وأنه سيكفلها وأولادها.. ولكنها كانت لاتستطيع أن تعى مايقوله، وشعرت الجماعة بأن خيوطاً قد انقطعت وأن الله لايبارك أعمالهم، وجاءهم سلامة فى ليلة وقال لهم:

- لقد بدأنا نفسق جميعاً.. نريد أن نحرر المدينة فكيف نحررها ونحن عبيد ؟

ورد عليه ثروت المناديلى قائلاً:

- نحن لسنا عبيداً.. لقد قمنا بعمل كبير من قبل..

ورد عليه سلامة فى هدوء وكان ينظر فى وجوه باقى الجماعة ويحملق:

– إننا لن نفعل شيئاً بعد.. طالما أننا جميعاً سنتغنى بالماضى.. أفتح يا أبوعاطف الباب وأخرج تلك المرأة..

وتعجب أبوعاطف من قراره المفاجئ، واندهشوا من حدته وقسوته عليها فقال فتحى حسنى محاولاً تهدئته:

– إننى سعيد بهذه المرأة، لقد تعبنا حتى أتينا بها.. وهى امرأة جديدة فكيف تأتى إلينا ونقلق مضاجعنا.. إننا ياسيد سلامة نحاول أن ننفض الأحزان كاهلنا وتنهيأ لتنفيذ هذه المهمة من جديد..

– إذا كنا جماعة مجاهدة حقاً فعلينا أن ننطلق من طهر حتى نتنهى إلى صبر حقيقى.. لقد أصبحنا فى أعمالنا هذه نحن والعسكر سواسية.. إن الله لا ينصرنا عليهم أبداً.. لابد أن نكون أفضل منهم فى أخلاقنا حتى ننتصر عليهم.

وهز ثروت المانديلى رأسه قائلا وكأنه يسخر:

– أنت ياسيدى ترتع فى حياة الترف، وفى قصرك أنواع النساء كما تهوى، وهل أنت ياسيدى تنطلق من طهر.. إن كل المدينة تعيش وتهنأ بالحياة وتضحك ملء أشداقها تفعل كما يفعلون، لماذا تضيق علينا حياتنا..

وشعر سلامة بضيق يكاد يخنقه وقال وهو محزون:

– منذ أن جاءت الحرب وذهبت عنى زوجتى وأنا صائم عن النساء حتى عن زوجتى.. يشغلنا جميعاً الهم الكبير، وعلينا أن نصبر ونعمل حتى ننصر المدينة، لقد اقتربنا من اهدافنا.. فكيف وقد قربت خطانا من إزاحة هذا الكابوس من فوق صدورنا.. يصيبنا الغرور وتقترف الآثام..

وفجأة رفع عبدالرحمن منزلة يده فى وجه كل فرد فى الجماعة وقال فى حماس شديد:

– أنا مع السيد سلامة.. أخرج المرأة ياثروت..

وحملق ثروت فى وجه كل واحد منهم كأنه يقرأ وجومهم وجمودهم وقال:

- هل أخرج المرأة ؟.. هل تستطيعون الحياة بدون امرأة ؟..

وهز سيد أبوعاطف رأسه بالموافقة وقال كلمة واحدة:

- أخرجها..

وقام ثروت وفتح باب الغرفة فوجدها عارية تنتظره، وقفل الباب خلفه وتقدم نحوها وهو يلهث.. ولكن نقر الباب القوى قد أربكه.. وقطع عليه إندفاعه نحو المرأة.. فانقلب وفتح الباب فإذا السيد أبوعاطف يقول له فى حدة:

- لماذا قفلت الباب ؟..

- هل ترى هذه المرأة ؟.. إنها الحياة.. يخرب بيت سلامة وأبيه..

- ولما نظر سيد أبوعاطف إليها كاد أن يسيل لعابه هو الآخر.. ولكنه قال وهو يحاول أن يتماسك:

- قومى يخرب بيت أمك.. البسى هدومك دلوقت.. بعدين هانيجى ناخدك.. لا نحرق المدينة.. سلامة قال كده.. يخرب بيتك وبيت سلامة كمان..

وقامت وارتدت ملابسها.. وضربت ثروت على صدره، وضحكت ضحكة رنانة عالية مثيرة.. وقالت وهى تحمل حقيبة يدها وتنصرف من الغرفة نحو الجماعة فى وسط البيت:

- لا تيقوا رجاله تيجوا لسلطانة مافيش راجل فى البلد أد سلطانة.. وقام عبد الرحمن منزلة يريد أن يضربها على وجهها ولكنها أشاحت ذراعه عنها.. قائلة:

- إوعه يخرب بيت أبوك.. بقيت شيخ دلوقتى.. وساد الصمت بينهم.. وقلّب سلامه أوراقًا أخرجها من جيبه وقال:

- نحن نستطيع الآن الاستيلاء على الذخيرة..

ولم ينبس أحد منهم بكلمة، فقام سلامة وصافحهم بقوة كأنه يوقع عهداً معهم وقال:

- سوف آتى غداً فى نفس الموعد لنتفق على كل شئ..

وقال ثروت وكأنه يطلب تعويضاً عما فقده:

– نحن فى حاجة إلى بعض المال.. نريد أن نتهيأ لهذا العمل.. وبيوتنا فى حاجة إلى طعام.. وسعد سلامة بما قاله بما قاله ثروت، وابتسم قائلاً:

– هذا حق لكم جميعاً.. فى الغد سأحضر لكم ماتريدون.. ولكن اتركوا النساء حتى.. وأكمل عبدالرحمن قائلاً:

– نترك النساء حتى يبارك الله أعمالنا.. المفروض ياسيدى أن نترك النساء أبداً.. حتى بعد أن تتحرر المدينة.. وعلى الرجل بدارة.. لينزل الندى والخير على البيوت وفوق النبات فى الحقول.. إن مشكلة هذه المدينة أن أهلها لايعرفون الحد الفاصل بين بركة السماء وأعمال الشياطين..

وربت سلامة على ظهره وقال له:

– لم أكن أعرف أنك حكيم.. وسوف أطلب لك مكافأة من الرئيسة على أخلاقك الكريمة..

– لا أريد شيئاً ياسيدى.. يكفينى كلماتك الطيبة..

وانصرف سلامة إلى القصر ليجد هناك خبراً مفزعاً.. فعند الباب الكبير وجد برهوم واقفاً حزيناً ينتظره، ولما قال له.. منذ متى وأنت واقف هكذا كالشجرة.. قال برهوم..

– لقد هدم القائد الجديد شارعاً بأكمله..

وتسمرت قدماه وكاد جسده يتهاوى.. فأمسك الباب بيده وقال:

– وما أسباب الهدم.. هل يساعدنا فى هدم شارع يعمل فى البغاء؟.. ممكن أن يصبح بين يوم وليلة له قلب يرحم أهل البلدة.. قل يابرهوم لماذا هدمه؟

– المقصود من هدم الشارع.. دار اللص الشريف وصديقه نبيل محمود.. ولما كان حجم اللودر كبيراً.. وكان هذان البيتان فى آخر الحارة الضيقة، قام الجندى سائق اللودر بهدم كل بيت يقف عثرة فى طريقه حتى وصل إلى بيت اللص وبيت نبيل..

- وهل تشاور مع الرئيسة فى هذا الأمر قبل أن يقوم بعمله الشنيع ؟..

- حسب معلوماتى أن المهلة انتهت.. المهلة التى أعطاها للرئيسة حتى تعثر على القائد القديم ومن قام بتهريبه..

- ولما فرغ صبره وجاءته معلومات بأنه لايوجد غير اللص.. قام بعمله هذا..

- هذا بالضبط ياسيدى.. ولكن المصيبة أكثر من هدم البيوت.. لقد دفن كثيرون تحت أنقاض البيوت فى مثل هذه الساعة من الليل، وبلغت بالقائد ورجاله الوحشية أنهم هدموا البيوت فوق رأس أهلها..

وتهالكت قدماه وقعد على الأرض يمسك رأسه بين كفيه.. وأكمل برهوم حديثه قائلاً:

ياسيدى.. إن الجميع هناك حتى السيدة الكبيرة تحاملت على نفسها وركبت فرسها دون أن يرافقها أحد وذهبت لترى المصيبة، وعلمت أن الرئيسة وكارول وربما أهل المدينة جميعاً هناك.. فقال سلامة فى حسرة وهو يقف:

- وأهل البلدة جميعاً فى نوم عميق وضلال بعيد.. وضرب سلامة رأسه بقبضة يده وقفز على فرسه وقال وهو ينطلق.. اتبعنى يابرهوم..

وكانت الشموع ولمبات الجاز فى أيدى الأطفال والنساء، والحفارون من الرجال يحفرون بمعاولهم بحثاً عن الجثث، وعربات النقل التى أرسلها المحافظ تحمل من كان حياً إلى مراكز الإسعاف، وناقلات أخرى تنقل جثثاً إلى الجبل حيث تقبع المقابر، لتجد حفارين آخرين يحفرون مقابر جماعية لدفن القتلى، وتساءل سلامة أين اللص الشريف ؟ ورد عليه صوت باك صاحبه قعد يرثى زوجته التى مازالت تحت الأنقاض.. نقلوه إلى الجبل ياسيدى.. وتحشرج صوت سلامة لما قال.. يعنى مات.. وجاءه الصوت ثانية.. مات فى داهية.. لقد هدم بيوتنا وقتل الناس جميعاً.. وكان على سلامة أن يسكت قليلاً حتى لايلعن الرجل أحد آخر.. مجموعات من الرجال واقفة هنا وهناك، وحاكى المدينة الأول سعيد

عبدالعزيزيرتدى جلبابه الواسع وحوله جماعته تسمعه وهو ينوح.. ياما قلت لنبيل بن عمتى ماتروحشى عند اللص.. لكن عمره.. كان صديقه.. ابن عمتى كان بيحب الستات.. آخرتها راح فيها.. عمر الستات ماتنفع راجل.. لكن جماعة من الناس كانوا يريدون أن يضربوه فالتفوا حوله وقال أحدهم له وهو يمسك بخناقه.. ألم تقل لنا أن السلام قد حل.. فين السلام ده.. يخرب بيت دماغك اللى عامل زى الإبريق.. وحياة أمك لو شفتك تانى قاعد فى الدكاكين وبتحكى لأقتلك.. ولم يخلص سعيد الذى كان سيفطس من قبضة الرجل غير ابن خالته مجدى محروس.. الذى ضربه على رأسه قائلاً.. أتحاسب أحداً على قوله.. وكان مجدى يحمل فى يده عصاً غليظة يلوح بها فى الهواء.. وكانت السيدة الكبيرة وريدة يقفان عند المقابر تشرفان على دفن الموتى.. ورغم أن الأضواء باهتة غير أن الدفانين كانوا يراعون الرفق والرحمة بالأموات، فلقد كانت قلوبهم وسواعدهم ترى جيداً ظلمة قاع القبر الموحشة.. وكانت السيدة الكبيرة حميدة فودة تقول من حين لآخر:

– لايوجد أكثر من هذا ذلاً ومهانة.. لاينفع ياسلامة هذا الأسلوب الركيك فى معاملة هؤلاء الحقراء.. إن على المدينة جميعها أن تقاتلهم فى عز النهار حتى آخر قطرة دماء.. يجب علينا ألاّ ننتظر.. إن بيوتنا جميعاً ستهدم ولما نصل إلى هذا الحد ان نجد من يدفننا.. كفانا خزياً وعاراً.. أين سلامة.. أين سيد أبو ساطف.. أين ثروت المناديلى تاجر الحرب ؟.. وزعقت.. بأعلى صوتها.. أين الرجال بعد هذا الموت.. لايوجد رجال.. ورب العزة وبحق هذا الموت.. لأجعل النساء من النساء يفعلن مالم يفعله الرجال.. ولما انتهى هذا الليل الحزين بدفن الموتى.. ساقت السيدة الكبيرة كل الناس نساءً ورجالاً وأطفالاً إلى المساجد والكنائس كى يقيموا الصلاة.. وكانت المدينة بأهلها جميعاً تطيع أمر سيدتها عن رؤية واقتناع.. كانوا جميعاً يمشون فى خطى ثابتة إلى دور العبادة.. وهناك قالوا مافى قلوبهم من ألم وأمل.. ولما بدأوا ينصرفون إلى ديارهم.. كانت

أجراسٌ الكنائس تقرع بقوة لم يسمعها الناس من قبل.. ورغم مافى قلوبهم من حزن على الموتى.. كان هناك شئ أقوى من الأحزان يجمعهم جميعاً..

وفى ظهر اليوم التالى كان هناك رجل يدعى محمود مصطفى يملك فندقاً عند مشارف المدينة، ولما علم من الناس أن السيدة الكبيرة تريد تأهيل البغايا من النساء للقيام بعمل فدائى، اختمرت الفكرة فى رأسه، وهداه كركور إلى القصر وهناك قرع الجرس. وأقبلت سعدية ففتحت الباب صاحبة فى يدها طفلها.. وقال محمود:

– سيدة القصر هنا..

وأومات برأسها.. نعم هنا..

– هل أستطيع مقابلتها ؟..

– من أنت حتى تقابلها !!

– أنا واحد من الناس.. جئت إليها فى أمر هام..

وأشارت إليه بيدها بأن ينتظر قليلاً..

وكانت السيدة قد قامت مبكراً كعادتها.. ومنذ وقت طويل وهى تتحدث إلى سلامة وريما فى كيفية أن تقوم المدينة كلها قومة رجل واحد وتهجم على معسكر الأعداء وتقضى على كل شئ فيه.. ولما دخل الرجل القصر تبع سعدية حتى كانت السيدة الكبيرة تجلس مع أهلها.. وقابله سلامة مرحباً.. وكان الرجل له وجه أحمر وشعر أصفر لكنه يرتدى نظارة طبية على عينيه بديناً متوسط الطول.. ولما صافح سلامة قال له:

– أنا محمود مصطفى صاحب فندق المجدول.. هو ذلك الفندق الصغير عند مدخل المدينة.. وتقدم به سلامة نحو السيدة الكبيرة.. فقامت نصف قومة ورحبت به.. وأشارت إليه بالجلوس.. ولما التقط أنفاسه قال:

– ماجئت به ياسيدتى أمر يخص تأهيل عاهرات المدينة للقيام بعمل فدائى.. وهزت رأسها وابتسمت وقالت مشجعة:

– هات ماعندك.. ألديك مساعدة فى ذلك ؟..

– أريد من سعادتك تكليفى بهذا الموضوع.. أنا خير من يتعامل معهن وانتبهوا إليه وأخذوا ينصتون إلى ماجاء به.. غير أن السيدة قالت له ثانية:

– هات كل ماعندك.. إن المدينة أمنُا جميعاً وعلينا أن نعمل من أجلها بقوة وبسرعة.. ولن نعتمد على جماعة سيد أبوعاطف وحدها..

واعتدل فى جلسته.. وجاءت سعدية بالشاى ووضعته أمامه.. وقال فى تؤدة:

– أريد قراراً من المحافظ بقفل ملاهى المدينة.. إن العسكر يذهبون إلى هناك كل ليلة.. وآخرون يذهبون إلى البيوت التى مازالت مفتوحة.. وقليل منهم يمشى فى الشوارع ليلتقط امرأة ويأخذها إلى معسكره..

وكانت السيدة تنصت باهتمام شديد.. ولما سكت قليلاً قالت:

– وماذا بعد..

– سوف يتأثر معسكر الأعداء بجنوده وضباطه كافة.. لأن الملاهى هى المتنفس الوحيد لهم.. سيكون شوقهم إلى النساء كبيراً..

وقال سلامة:

– وأى شئ ستفعله بعد ذلك..

– قبل انتصاف ليلة ما.. سأشحن أكثر من مائة وخمسين امرأة أعرفهن جميعاً.. فى أتوبيسين.. وسندخل إلى المعسكر..

سلامة.. وكيف تدخل بالنساء..

– سأبلغ الحرس بأننى رجل سلام.. وأترك معهم امرأة واحدة حتى أدخل المعسكر..

سلامة – وكيف تدخل النساء إلى الخيام والخنادق..

– ستدخل كل واحدة منهن إلى الخيام راقصة متبرجة.. عارية وهن يعلمن ماهو واجب عليهن.. وهل يوصى أحد امرأة ملاهى كيف تغرى أو تخدع رجلاً.. إنها

كتيبة مؤهلة تعرف كيف تغزو كتيبة من الجنود..

وكانت السيدة تشعر بحياء شديد عندما يندمج سلامة ومحمود فى الحديث عن مهمة النساء غير أن ريما قالت له:

– وعندما تنتهى النساء من المهمة.. سيعود الجنود إلى حالتهم.. أين القضاء عليهم نهائياً ؟..

– كل امرأة سأصرف لها شريط حبوب مخدرة تخفيه فى صدرها، وفى الوقت المناسب تستخدمه..

– وقال سلامة منبهراً:

– ولماذا تنوى تخديرهم ؟.

– حتى تدخل الكتيبة الأخرى.. أليس لديكم جماعة سيد أبوعاطف ؟.. فلتتقدم هذه الجماعة عندما يهدأ كل شئ فى الخيام ويخمد.. أليس الهدف الاساسى الاستيلاء على مخازن الذخيرة والمعدات..

وقامت السيدة ومشت إليه خطوتين وشوحت بيدها قائلة:

– وأين كنت يامحمود ؟.. إنها أفكار رائعة يابنى.. ولكن..

وأمسك محمود بيدها ليقبلها.. ولكنها منعته بلطف فقال وهو يجلس:

– يجب أن تكون هناك كتيبة أخرى تحرق كل خيامهم وعرباتهم ودباباتهم..

ولكن السيدة انزعجت قائلة:

– حرق الخيام معناه موت نسائنا..

وقال محمود ضاحكا:

– إن النساء قبل القيام بالحريق.. ستكون كل واحدة منهن قد أنهت مهمتها وخرجت من الخيمة.. وأردف قائلاً مرة أخرى بعد أن سادت لحظات من الصمت:

– إفترضى ياسيدتى أن هؤلاء النسوة قد متن جميعاً بأسباب متعددة

مالا يهمنا.. ألا تريدين أن تتخلصى منهن ؟..

وكان سلامة وريما وبرهوم الذى يقف عند باب القاعة ينظرون إليه فى ذهول.. ويسمعونه وهم مندهشون لأفكاره.. وأمسك سلامة رأسه بكف يده وقال لـــــه:

– وهل يقوم النساء بهذا العمل دون مقابل.. خاصة وأنهن غاضبات وجيوبهن خاوية من النقود لإغلاق مصدر رزقهن..

محمود – هذه الفكرة راودتنى كثيراً.. على السيدة الفاضلة أن تزودنى ببعض المال حتى أعطى كل واحدة منهن مبلغاً..

ورفعت السيدة يدها نحوه وقالت تطمئنه:

– هذا الموضوع لاتحمل له هماً.. ولكنى سوف أحاسبك على النتائج..

– مفهوم ياسيدتى..

وهمت السيدة بالوقوف ولكنها سقطت على المقعد.. وجرى إليها برهوم ليأخذ بيدها.. وأمسكت بذراعه حتى دخلت غرفة الخزينة.. لكنها وهى تجلس قالت لبرهوم:

ارسل سلامة حالاً.

ولما جاءها سلامة وجدها تمسك بكيس من القماش محشواً بالأوراق النقدية وألقت الكيس بين يديه وقالت:

– خذ منه عشرين ألف درهم..

– كثير ياسيدتى..

– لا.. خذ منى مائة ألف درهم وتخلصنى من هؤلاء..

– ومن يضمن ياسيدتى.. قد يأخذ المال ولايفعل شيئاً..

– لا.. لا أعتقد على العموم اذهب معه حتى داره وافعل ماتراه يؤمن جانبنا.. وناولته السيدة كيساً فارغاً ليضع المبلغ فيه وقالت:

– خذ عليه إيصالاً يابنى.. وتوكل على الله.. أنا تعبة.. لن أستطيع أن آت

معك إلىّ الرجل.. سأستريح هنا قليلاً..

وهناك وجد الرجل يتكلم مع ريما عن مكافأته التى يجب أن تمنحها له السيدة بعد نجاحه فى العملية.. وطمأنته ريما على هذا الموضوع.. غير أن سلامة توجس من أمر الرجل.. فأعطى الكيس لريما.. وعاد إلى السيدة ليخبرها عما يطلبه الرجل فقالت له:

– أخبره بأننى سأمنحه أرضاً ليقيم عليها فندقاً جديداً، ومكافأة مالية كبيرة.. عليه فقط أن ينجح فى مهمته.. وأن يخبرنا أولاً بأول عن الموضوع.. وأردفت وهو عند الباب:

– لاتندهش ياسلامة.. إنه يتعامل معنا بحكم عمله تاجر، وهو أحد المرابين فى المدينة..

– وكتب سلامة إيصالاً ووقع محمود مصطفى باستلامه عشرين ألف درهم بصفة أمانة..

واتفق مع سلامة على أن يتم إغلاق الملاهى فى خلال يومين، ووعده بأنه سيبذل قصارى جهده مع المحافظ والرئيسة، ورافقه حتى وصل إلى بيته..

وعرج سلامة على دار سندس فلم يجدها، وأبلغته إيناس بأنها غادرت البيت منذ أيام هى والقائد القديم إلى بيتها الريفى البعيد عن البلدة.. ولما سألها هل تقيم هناك بصفة دائمة أخبرته بأنها ستأتى بعد أسبوع.. وترك معها رسالة إلى سندس وزوجها تفيد بعودتهما حالاً إلى المدينة لأمر هام، وبعد انصراف سلامة.. كانت إيناس تركب فرسها برشاقة قاصدة بيت سندس الريفى.. وكانت تطير.. كالعصفور الذى يسرع إلى عشه قبل غروب الشمس.. ولما دخل القصر كانت السيدة تعانى من ألم شديد فى رأسها، واقترب منها ليأخذ يدها ويقبلها داعياً لها بالشفاء.. وأخذها النوم.. ونامت بجوارها بسنت وشد سلامة الغطاء عليهما.. وكانت سميرة حتى هذا الوقت تجوب أنحاء المدينة بفرسها وبرهوم يحرسها ويتبعها أينما ذهبت.. واندهش سلامة وهو يخرج من غرفة سيدته لما

وثبت ريما أمامه فى خفة ودلال وقالت له.. احملنى.. احملنى بين يديك إلى غرفتى.. فقال لها بصوت خفيض وكأنه يرجوها.. ليس الآن.. إن اعصاب الجميع مشدودة والبلدة جميعها تتحفز لعمل خطير.. ألم أقل لك من قبل بأننى زوج رئيسة المدينة وجميع أهلها حولى.. ألا تدركين مدى إنك شقيقة زوجتى.. عودى إلى زوجك.. أنه عبد قوى وتحت إمرتك.. لقد دعوت الناس أن يتطهروا.. فكيف تقترب من شئ دعوت الناس ألا يقترفوه.. وضربته على صدره بقبضة يدها.. فأخذها وانصرف إلى غرفته.. وهناك ضربته ثانية بيديها على ظهره فاستدار إليها وأمسك بها حتى تكف عن ضربه بهذا العنف، ولفت ذراعيها حول جسده وأخذته إليها بقوة كأنها تعتصره.. وتهدجت أنفاسها وقالت:

– لقد تركتك كل هذا الوقت.. أنت لى منذ أن أتيت بك إلى هذه البلاد.. ولكنى كنت فى غفلة.. وحاول أن يثنيها عن نوبتها فأمسك بكتفها يرجوها:

– أنا زوج أختك.. وأن مغبة قربك منى أمر لايحمد عقباه.. إن كل أهل القصر حولى وأنا ضيفهم ويجب علىّ أن أكون أميناً معهم لأنهم أسبغوا علىّ كرمهم..

– أنا التى أتيت بك ولولاى لكنت ذليلاً فى المدينة الحافية، تغسل الصحون فى المطاعم كحال أهل بلدك.. إن الفضل كله لى.. ولو فكرت قليلاً لكنت تفعل ما آمرك به وأنت ممتن وراكع تحت قدمى.. هل نسيت من أنت ؟.. هل تذكر يوم جاءت بك هند لأحسن إليك بمحل من محلاتى فى العاصمة ؟.. كنت وقتها لا شئ يذكر.. والآن كلما اقتربت منك.. تقول.. أنك زوج رئيسة المدينة . هل أنت رجل وقح ؟..

وفك ذراعها من حوله وابتعد قليلاً وقال:

– إلى هذا الحد أصبحت وقحاً.. إننى أحافظ على نعمة الله علىّ ويجب عليك أن تساعدينى على ذلك.. اعتبرينى أخاً لك ولاتعايرينى بفضل، إن الفضل لله وليس لبشر فضل على بشر..

- أنت لاتعرف شذوذ نيروز الآن.. لقد ذهبت مع كارولين إلى حد بعيد.. لاتستطيع الآن أن تكون لك زوجة كما كانت..

وكأنها ضربته بحجر فى رأسه.. وتهالك على مقعد قرب النافذة وقال وهو شديد الحزن:

- نيروز ذهبت مع كارول إلى هذا الحد.. إلى هذا.. وتلعثم قليلاً وقال:

- أليس من أجل المدينة فعلت نيروز.. ألا تستطيع أن تقول عن ذلك بأنه تضحية.. تضحية الرئيسة من أجل مدينتها.. وهى لازالت مستورة لأنها لم تفعل ذلك مع رجل.. ولقد سمعت أن كارول هذه.. لاتوجد امرأة تستطيع مقاومتها.. أليس فى مقدورى أن أعالج هذا الأمر مع نيروز فيما بعد.. إننى مازلت أعتقد أن فعل نيروز هذا ماكان يحدث طواعية منها، ولكنه شئ اعتراها فى غيبة من الوعى.. خاصة وأن كارول ترافقها مرافقة شديدة.. لماذا لانعتبر أن هذا أمر لايستحق أن يكون عائقاً بينى وبين زوجتى.. لماذا لايكون هذا من قبيل التضحية بالنفس.. أو أنه عبء نفسى تحملته وهى فى سبيل إدارتها للمدينة فى هذا المكان..

وطوت ركبتيها تحت ذقنها وطوقت بذراعيها تلك الساقين.. وتعرت وكأنها لاتقصد أن تتعرى.. وتطلعت إليه فى تفرس تتحداه، وقالت وهى تجلس على كنبة قرب الفراش:

- فى هذه الأيام شئ يسحب عقلى وقلبى نحوك لا أستطيع أن أقاومه، إن كل مافى داخلى مهما ذهب بعيداً عنك، فإنه يعود ثانية وينجذب نحوك.. لا أستطيع أن أقاوم هذا السحر الذى يشدنى إليك.. وللأسف أنت أكبر رجل ممكن أن أتخيله وأحبه وأعشقه، لكن شديد أسفى أنك رجل أكذوبة.. فمازلت تتغنى بالمبادئ والقيم، والبلدة كلها تسبح فى غرائزها وحياتها دون هذا التروى وهذه اليقظة التى تصحو دائماً فيك.. إنك لست نبياً حتى تتعالى عن حاجات البشر..

وكان جسدها يرتعش فاهتزت خصلة شعرها وانسكبت دموعها، وبكت

بكاءً شديداً كأنه سيل ينهمر.. فرق قلبه وأخذ رأسها بين يديه فارتمت على صدره.. وقالت.. احملنى إلى غرفتى.. إن الصغير قد يصحو.. احملنى إلى فراشى.. وكانت تطير كالفراشة بين ذراعيه، حتى وضعها برفق فى فراشها. وشدته فى شوق من قميصه فاقترب منها، وكانت تصرخ فى صوت خفيض والدمع يملأ وجهها تبكى وتنتحب كأنها قطة تنام..

وانجلى صوتها رقيقاً يقول فى رجاء راق له:

– اقفل الباب.. اقفل.. وتعال..

واستيقظت قليلاً وأفاقت من غيبوبتها لما اطمأنت لسكونه إليها وقالت فى ود شديد:

– أيلذ لك أن تعذبنى.. كن لى رفيقاً.. ادخل بجوارى وخذنى فى أحضانك.. أنت قدرى.. كنت لى أولاً وألقاك أخيراً.. لاتكلمنى عن الدين الآن ولاعن الأختين.. ملعون كل الأخوات فى هذا العالم.. أنا لست أميرة ولكنك رجل أكذوبة.. إنك لن تكون حتى داعية.. خذنى إليك بقوة كما يأخذ الأسد اللبؤة.. وأخذها فأعطته ونسى كل ماحوله.. وكانت تقول له وتتغنى.. أنا هى المرأة.. أنا كل العالم.. أنا المرأة الوحيدة فى هذا الكون التى مازالت تعى ماتفعله.. وأنت الآفاق الرحبة فى ظلمة ليل.. الآن صفت السماء من الغيوم وسطعت صفحتها الزرقاء وانجلى الضباب..

ولما دخل محمود مصطفى صاحب فندق المجدول إلى داره أيقظ زوجته التى ساعدته فى وضع كل مائة درهم فى ظرف ورقى، ثم وضع كل خمسين درهما فى ظروف أخرى.. وكان عدد الغانيات مائة وخمسين وعدد أصحاب الملاهى عشرين، وعقد اجتماعاً فى ظهر اليوم التالى مع الراقصات والغانيات وأصحاب الملاهى فى بهو فندقه، ولم يتخلف أحد عن لقائه لأنه معروف فى المدينة بعلاقاته مع الناس وأصحاب النفوذ قبل الحرب، وكانوا يعتقدون جميعاً أن وراء دعوته منفعة أكيدة – وجلس وسطهم إلى منضدة دائرية وبجواره وسام سكرتيرة

الفندق».

وتطلع إليهن فى أبهة وقال فى صوت عال:

– أيتها السيدات المحترمات.. من هذه الليلة سيتم قفل الملاهى، وكذلك ملاهى الفنادق لأننا سنحاول تحرير المدينة، ولن تحرر المدينة إلا بكم.. (وضحكت امرأة ضحكة جلجلت بالفندق.. قائلة.. نحررها بإيه يامحمود.. أحررها بـ.. قول كلام عدل.. وحياة أمك..)

وبحلق فيها شذراً.. لكن وسام قالت لها:

هاقولك إيه.. إنت فاكرة إحنا الستات مانقدرش.. إحنا عندنا سلاح وحيلة أحسن من الرجالة بكثير.. الراجل بيحارب بسلاحه وبندقيته.. لكن سلاح الست رصاصة أقوى بكثير.. أسكتى بلاش خيبة..

وردت أخرى قائلة وهى تكاد تنفجر من الضحك:

– خلاص فهمنا.. اسكتى يامتنيلة.. هانعمل .. هايحصل.. بس قبل ماتكمل.. أنت عارف إن أرزاقنا من سلاحنا.. مافيش داعى أفسر أكثر من كده.. هات فلوس من الرئيسة والمحافظ بعد كدة مافيش مشكلة..

ورد محمود وهو يرفع الظرف فى يده:

– هذه نقود لكل واحدة منكن.. أنا عملت إللى علىَّ.. زى ما أنتم عايزين..

وقامت ثالثة ترفع يدها لأعلى وقالت:

– تريدون منا تحرير المدينة.. ونحن نريد من السادة تحرير النساء..

محمود – تحرير النساء..

– ألا تفهم كيف تحرر النساء.. نريد رجالاً.. إذا حررت المدينة حقاً فلابد أن يكون لكل امرأة عمل شريف ودار وزوج، ويشرف المحافظ بنفسه وهذه الرئيسة الجميلة على تحقيق ذلك.. لسنا مأجورات نأخذ حفنة من النقود.. وبعد أن يجلو العسكر، تأخذ جماعة النفوذ البطة لتأكلها وترمى لنا بالمصارين، ونقف عليها نحن النساء والفقراء طوابير ليأخذ كل منا مصراناً.. ثم نقول هذه هى

العدالة.. إن كل واحد من الناس يأخذ حصته العادلة من الثروة.. نحن نريد دو- ومدينة لاتتاجر فى الناس باسم العدالة..

.. وقام محمود من جلسته وأخذ يشير إليها راجياً أن تجلس وقال:

– ياسيدتى.. لقد فتحت علىَّ فتحة أكبر منى.. سوف يكون كل هذا.. هر أنت زعيمة للنساء ؟.. من أين أتيت ومن أنت ؟.. ولم تقعد المرأة ولكنها أردفت قائلة بصوت كله مرارة:

– لايهم من أنا.. أنا من طين هذه المدينة الذى تعفن.. ومن قال لك إن واحدة من هؤلاء النساء المساكين راضية بعملها.. كل مافى الموضوع أننا لانستطيع أن نتسول.. ومن هذا الذى نتسول منه ومن أى قصر ؟ لقد عاد الجميع فقراء.. ولأننا جميلات ذهبنا إلى الملاهى لنجعل من الطين اللزج والقذر رزاقاً، ولكن برب العرش إنها جميعاً أرزاق عفنه.. هل تعرف الآن كيف تحرر المرأة.. ارفع قسوة الزمن عن النساء والأطفال والفقراء حتى يكون تحرير الإنسان من العبودية حقيقة كالنور.. كنور الشمس فى الصباح.. لكن من أين ستى هذا النور.. إذا كانت شمس هؤلاء تنور بيوتهم فقط.. ثم تضل لأن نورها لايسطع للناس جميعاً..

وكاد محمود مصطفى يشق قميصه غير أن وسام قالت له.. تذرع بالصبر.. اسمع من الجميع.. إن من هؤلاء النساء تستطيع أن تعرف مطالب المدينة ومواجعها.. وحاول أن يعمل بنصيحة سكرتيرته فجلس على الكرسى يرجوهن الهدوء قائلاً:

– لم أكن أعرف أنكن فلاسفة.. سوف أت برجل من الحكم يناقشكن ويفهمكن، وعلى أى حال سوف أحقق لكم حلم البيت والعمل الحر بعد تحرير البلدة..

وقامت نفس المرأة التى تكلمت عن الشمس والنور وقالت فى رجاء:

– المشكلة فى بلادى أن كل واحد يعمل لنفسه، أنهم جميعاً متيمون

بأنفسهم أنانيون يحبون ذاتهم فقط.. ومن ضعفهم أنهم يطلبون الوحدة مع دول أخرى.. إنهم فى منتهى الضعف لأنهم لايستطيعون التوحد.. مع شعوبهم وأهليهم.. إنهم يريدون أن يعيشوا وحدهم وباقى الناس عندهم زبالة.. ليس هذا حكم المدينة.. إننا لسنا أعداءً للحاكم.. ولكنه بهذا الفكر الردئ يصنع أعداءه.. إن على حاكم كل مدينة أن يدرك أن هؤلاء الناس جزءاً من أهله، ولكنه لن يستطيع أبداً لأنه لايعرف كيف يكون الحب والعدل للناس جميعاً..

وفجأة قبل أن تقعد هذه المرأة وتنتهى من كلامها.. قامت أخرى بعصبية قائلة:

– أنت لن تفهمنا يامحمود.. هات لنا واحداً كبيراً..

وانتفض محمود وزعق فى وجوههن صارخاً:

– هو أنا مش كبير.. أنا لابس بدلة صوف ماحدش لابسها.. طول عمرى صاحب فندق وأد الدنيا.. جرى إيه يابنت الشرمو..

وردت عليه فى ثقة وثبات:

– عايزين واحد بيعرف يفكر ويرد علينا.. واحد مخه كبير.. إنت تاجر يامحمود وطول عمرك وسيط.. ومن أدرانا أنك لن تتاجر فى اجتماعنا هذا..

– أشكرك ياهالة.. شكراً لكم جميعاً.. سوف أمنح كل واحدة منكن مائة درهم مقابل سبعة أيام تقفل فيها الملاهى..

وردوا عليه فى صوت واحد:

– ستفتح الملاهى بعد أسبوع..

– إن السيدة الكبيرة وعدتنى بإقامة ملاه جديدة لكن.. ليس هذا فقط.. هل تعرفون أن المستقبل سيكون لكن.. وفى أول يوم بعد التحرير سوف توزع الرئيسة عليكن قطعة أرض عند مدخل المدينة يطلق عليها اسم الزهور..

وقام واحد من أصحاب الملاهى العشرين قائلاً:

– ونحن أصحاب الملاهى..

– ستقيم لكم الرئيسة ملاه فى داخل فنادق.. فنادق جديدة.. وعلب ليل على أحدث طراز..

وقامت راقصة وهى تهتز يمنة ويسرة وكأنها تستعد للنزول إلى حلبة رقص وقالت:

– لا.. لانريد مدينة للملاهى ولاشئ من هذا.. أنت مجنون يامحمود..

– أنا مخبول..

– أنت توافقنا على كل شئ.. وتبيع لنا كلاماً معسولاً ووعوداً بغير حدود.. ألم تقل لك زميلة لنا منذ قليل.. نريد تحرير المرأة.. كل امرأة من هؤلاء النساء تريد رجلاً وداراً وعملاً طبيعياً فى معمل أو مصنع.. وإذا اختارت المرأة بعد ذلك أن تكون راقصة أو غانية فهى حرة.. عليكم أن توفروا الحياة الكريمة والطبيعية لكل النساء أولا.. ومن يختار بعد ذلك عملاً آخر.. فتلك حرية أخرى خاصة بعد عدل شمل النساء جميعاً..

– دعونا ندخل فى خطة التحرير.. بلاش فلسفة داهية تخيبكم.. باين عليكم اتجننتم كل واحدة أصبحت فيلسوفة وحرة.. حركات بتعملوها علىَّ.. أنا مش أهبل يا..... وقالت النساء فى صوت واحد:

– تكلم وإلا سنترك الفندق..

– هل أنتن مخلصات لبلادكن.. ألا توجد واحدة منكن جاسوسة..

وقامت المرأة التى تكلمت عن الشمس والنور وقالت فى تحد:

– نحن أخلص طبقة فى المدينة.. وأخاف أن تكون أنت جاسوساً.. هات ماعندك دون الحديث فى أى شئ آخر.. وإذا التويت فى حديثك مرة أخرى.. سوف نغادر هذا المكان فوراً..

– حاضر.. حاضر ياستى.. اجلسى..

– سوف تنمن فى نندقى هذه الليلة.. وبعد منتصف الليل ستصل عربتان كبيرتان لنقل الركاب.. كل أدواتكن حبوب مخدرة.. حتى بعد أن تنتهوا من

مهمتكن تقوم كل واحدة منكن بتخدير كل من حولها من الجنود والضباط..

وقامت امرأة قائلة:

– كم خيمة فى المعسكر ؟ وهل سندخل عليهم مجموعة بعد أخرى..

– ثلاثون خيمة تقريباً.. وهناك عدد من الخنادق..

– إننا تقريباً مائة وخمسون امرأة..

وقامت امرأة أخرى قائلة:

– يابن الهبلة يامحمود.. المفروض ألا نقتحم المعسكر عليهم فجأة وفى مثل هذا الوقت من الليل.. ولكن الصحيح أن تصلهم منا رسالة تفيد.. بأن النساء يضربن على قفل الملاهى.. وأول شكل لرفض هذا القرار.. أن النساء بعد منتصف هذه الليلة سيكن ضيوفاً عليكم.. إنهن يصلن إليكم فى مظاهرة صامتة ليعربن عن رفضهن لهذا القرار وأنهن فى عملهن هذا يردن أن يرسلن رسالة حادة إلى النظام حتى يفتح أبواب أرزاقهن..

وصفّقت النساء للمرأة قائلات فى صوت واحد:

– برافوا عليك ياهالة.. هذه حيلة بارعة..

وكان عدد من رجال المدينة قد دخلوا إلى قاعة الاجتماع.. رجال مخلصون مثل عصام عطية ومحمد أبوعلى والدرويش كركور.. وجلسوا فى مقاعد خلف أصحاب الملاهى..

وقام عصام عطية قائلاً فى ثبات:

– فكرة هذه السيدة هائلة:

وقامت راقصة مشهورة تدعى رسمية دهلوك قائلة:

– ألم نقل لك أنك تعبان.. كنا عايزين واحد مخه كبير.. إنت تاجر وبياع ومش شاطر إلا فى الهمبكة.. إنت أفاق يامحمود.. صدقنى إنت واخد قلوس فى العملية دى أد كل الستات دى..

وقام محمود يزعق بصوت عال:

– شوفوا بتعمل أيه.. قولوا لها عيب ياناس..

وقامت واحدة ترقص بوسطها يمنة ويسرة وتقول:

– يعنى أنت ماتمشيش فى موضوع زى كدة إلا لما تكون واخد شوية وشويات.. ماتعملش بقه بطل وتروح للمحافظ وتقول أنا عملت كل حاجة..

وقام عصام عطية ثانية يحاول تهدئة ثورة النساء على محمود:

– مش كده اهدوا.. أنا هاوصل ماحدث فى الاجتماع لكل أركان النظام.. المهم اتفقوا..

وقام محمود ينظر نحوه فى ذهول.. غير أن محمد أبو على قام وقال:

– أكمل يامحمود.. أكمل..

ومشى عصام بين المقاعد حتى وصل إلى محمود.. وربت على ظهره قائلاً:

– رغم كل ماقالوه فأنت كل شئ.. هى فكرتك.. لايهمك من هؤلاء النساء..

وضحكن جميعاً.. غير أن رجلاً من أصحاب الملاهى قاطعهن قائلاً:

– دعونا ننهى هذه المسخرة.. أنا الرجل الذى سَيذهب إلى المعسكر حاملاً رسالة النساء..

وضرب محمود بيده على المنضدة بقوة فى محاولة لإنهاء الاجتماع وكأنه بطل:

– موافقين.. خلاص..

وأشار عصام لهن بأن يوافقن.. وكانت هناك أخريات من النساء يردن أن ينلن من محمود.. غير أن عصام منعهن وقال لمحمود بصوت عال:

– اعط لكل واحدة حقها.. ولاتنسى أصحاب الملاهى..

وأخرج محمود النقود من حقيبة بين قدميه وقال:

– خذ ياعصام وزع عليهم.. عوضى على الله فى اللى عملوه معايه..

ودخلت كل مجموعة من النساء غرفة فى فندق المجدول.. وتناولن طعاماً

شهياً أرسلته لهن السيدة الكبيرة.. وأخذت كل واحدة منهن تستعد أو تستريح من تعب اليوم.. كل منهن تتأهب بطريقتها.. حتى تصل الساعة بعد منتصف الليل..

– وفى أول الليل غادر الرجل حامل الرسالة الفندق، وتوجه إلى المعسكر وهو يمتطى ظهر أحد الجياد، ولما اقترب من المعسكر.. رفع راية بيضاء إلى أعلى.. وفتح له أحد جنود البوابة.. فدخل وهو على ظهر فرسه يحمل رسالة السلام.. ويتقدمه جنديان يرشدانه إلى خيمة القائد.. ولما دخل إلى الخيمة الكبيرة، رحب به القائد لما عرف أنه صاحب ملهى، وقبل أن يتكلم الرجل بشئ، بادره الضابط قائلاً:

– هل أتيت لتخبرنى بشكوى من الجند ؟..

– لا.. بل بشكوى من المحافظ..

– قل ماعندك..

– صدر قرار بإغلاق الملاهى ابتداءً من هذه الليلة.. وأنتم تعرفون أنها مصدر أرزاقنا..

– وماذا يوسعى أن أفعل.. إنه محافظ بلادكم.. (وفكر قليلاً ثم قال:

– وأين سيذهب جنودى..

– إن الراقصات والغانيات جئن إلى بصفتى أكبر صاحب ملهى فى المدينة، تحمل كل واحدة منهن اقتراحاً، إن أغلبهن ياسيدى يعتزمن الذهاب إلى الجند فى خيامهم تعبيراً عن الاحتجاج على القرار.

– أوافق على هذا العرض بشرطين..

– قل ياسيدى (لم يصدق الرجل أن يوافق بهذه السرعة)

– أن تصل النساء إلى الجنود بعد منتصف الليل.. وأن يصلنى فى خيمتى ثلاثة نساء كل ليلة لأختار منهن واحدة..

فقام الرجل وانحنى أمامه وهو يقول:

– سوف أحضر لكم بنفسى الثلاثة.. وأجملهن ياسيدى.. ولكن من سيدفع أرزاقنا..

– أدفع أنا لك بعدد النساء، ولن يقل أجرهن عما كان فى الملاهى.. وبدورى سوف أخصم من مرتبات الجند كل شهر..

وقام الرجل وشد على يد الضابط وانحنى قليلاً وقال:

– إن نساء مدينتى يعشقن جنودكم ياسيدى..

– الآن عرفت كم أن جنودى رجال..

– سنبدأ من الليلة ياسيدى..

– هلا.. هلا بيك.. وبنفس الشروط..

وانصرف الرجل وهو لايصدق أنه نجح فى مهمته إلى هذا الحد.. ولكنه قبل أن يصل إلى فندق المجدول ليبلغ محمود والنساء بما حدث بينه وبين القائد.. وجد رجلاً يمتطى فرساً يخرج إليه من بيت فى الحى الفقير ويقول له بلهجة شديدة:

– أين كنت يارجل ؟..

فتلعثم الرجل وقال:

– ومن أنت حتى أجيبك..

– أنا مجاهد.. وصلت توا من الجبل..

وتوقف صاحب الملهى وشد لجام فرسه إليه حتى يتفحص الرجل، ولما أحاطه الرجل بنظرة صبور ثابتة.. اضطرب صاحب الملهى وقال:

أتركنى أذهب.. فانا لست فى حاجة للتعرف على مجاهدين.. كنا نسمع أن هناك مجاهدين فى الجبل.. وكنا نظن أنهم سيدخلون المدينة ليدافعوا عنها.. ولكن لم يحدث أنهم فعلوا اى شئ.. وكأن هؤلاء المجاهدين حكاية يتعود بها الناس وليس لها اى أساس من الحقيقة..

وزعق الرجل فيه وقال وهو يرفع السوط فى وجهه:

- اخرس ياقذر ياربيب المواخير.. أنت وأمثالك خرَّبوا بيوتنا..

- وهل أنت من المدينة ياسيدى ؟..

- ماذا فعلت فى المعسكر.. هل لاقى اقتراحك البطولى ترحيباً من هؤلاء العسكر..

- إذا كنت ياسيدى من المدينة أقول لك كل شئ ؟..

- أنا من المدينة..

- والدليل ياسيدى..

وشد الرجل الملابس عن ذراعه وقال:

- هل ترى.. ألا يكفيك هذا الوشم ؟..

- إنه الوشم القديم ياسيدى.. من صنع أم الرزق درويش.. هذا ختمها..

- اقرأ اسمى..

- إبراهيم الهوارى.. أنت من أسرة الهوارى إذن..

- ماذا تريد بعد حتى تعرف أنى من المدينة.. قل وإلاَّ قتلتك.. ورفع السوط فى وجهه كرَّة أخرى..

- لا.. لا.. سأقول لك كل شئ.. لقد رحب القائد وأوصانى بأجمل النساء.. وأنه سيرحب براقصات وغانيات المدينة هو وجنوده..

- وهل ترضى أن تحرر النساء المدينة بأعراضهن.. وأن تكون مدينتك حُبلى..

وطأطأ الرجل رأسه وقال وهو يشعر ببعض الخجل:

- ومن أنا حتى أقرر شيئاً من هذا.. تعالى معى ياسيدى إلى فندق المجدول حتى تقابل صاحبه محمود مصطفى.. إنه مقاول العملية، لقد قابل السيدة الكبيرة وأعطته المال اللازم و...

- حتى لانضيع الوقت تعال إلى الفندق..

وانطلق فرس الرجل وخلفه يتبعه فرس المجاهد، حتى وصلا إلى فندق

الجدول.. وأسرع صاحب الملهى بالدخول إلى محمود ليبلغه بما حدث له فى طريق العودة، ولم يكن محمود يهمه من العملية إلا المال.. فهرول إلى اليدروم ليخبئ الحقيبة المحشوة بالنقود.. ولما عاد إلى الطابق الأول أخذ صاحب الملهى من يده وخرجا إلى المجاهد.. فوجدا امرأة تمتطى فرساً وتقف بجواره فى شجاعة، وتقدم محمود إلى الرجل.. وانحنى حتى كادت رأسه تصطدم برأس الفرس وقال وهو ينصب قامته:

– ياسيدى.. أنا لم أقدم على هذا العمل إلا بأمر السيدة الكبيرة..

– حتى تجنى المال.. من أجل أن تقيم ماخوراً جديداً للفسق والفساد.. تتاجر فى أعراض النساء.. والظاهر أنكم تحررون المدينة.. لاشك أنها حيلة.. ولكنها حيلة دنيئة، ومن يرضى هذا على بلده.. هل تدرك أن البلدة بعد ذلك تظل مدينة حُبلى لن تلد إلا سفاحاً..

– ياسيدى.. فى ليلة دفن جثث الموتى فى الجبل.. حزنت السيدة الكبيرة، وقالت وهى تسخر من رجال المدينة.. سوف أجعل من النساء العاهرات رجالاً يحررون المدينة.. فجاءتنى هذه الفكرة.. فذهبت إليها لأعرض تنفيذى لها.. ولاشئ أكثر من هذا..

– إذا تركنا النساء تفعل هذا.. فأين الشرف والكرامة والقوة.. تلك الصفات التى تكون تاج كل مدينة محررة.. واذا تركنا التجار يحررون مدينة فإنهم سيتاجرون بها.. بعد تحريرها.. وقد يبيعونها بأبخس الأثمان.. إننا لن نغفل شيئاً فى الحالتين..

– كل هذا لا أعرفه ياسيدى.. افعل ماشئت.. اذهب إلى السيدة الكبيرة وأبلغها بأنك ستحرر المدينة برجالك.. حتى أصبح خالياً من مسئوليتى أمامها..

والتفت المجاهد إلى إيناس وقال:

– أين السيدة الكبيرة ؟..

– تعال نذهب إلى قصرها..

- هل هو بعيد.. إننا يجب أن نعود بسرعة إلى زملائنا عند الحدود حتى لايظنوا أننا ضللنا الطريق..

- سوف أوصلك إلى القصر.. وأعود بأسرع مايمكن إليهم..

وكان باب القصر مفتوحاً.. فدخل الرجل وإيناس فوق ظهرى جواديهما.. وخرجت إليهم السيدة الكبيرة تطل عليهم من الشرفة.. وهى تستند بيدها على ذراع سلامة.. حيث بلغها المرض الشديد.. وقالت وهى تحاول أن ترى وجه الرجل وتتبينه:

- من أنت ؟.. ومن أين أتيت ؟..

- أنا إبراهيم الهوارى.. من المدينة ياسيدتى..

وكانت السيدة تحاول بين الفينة والأخرى أن تعرف وجه هذه الفتاة التى ترافقه، وهمس سلامة فى اذنها.. هذه إيناس.. إيناس التى تعيش فى بيت سندس.. التى قامت مؤخراً بأعمال طيبة..

- فعلاً.. لقد رأيتها من قبل.. ولكن ماعلاقتها بالرجل ؟..

- المهم أن نعرف ماذا يريد الرجل أولاً..

ورفع الرجل يده إلى أعلى.. حتى يقول للسيدة ماجاء من أجله.. فقالت له:

- قل ماذا تريد.

- إن المجاهدين يقفون عند حدود المدينة..

- من أين هؤلاء المجاهدين.. من قبل الحرب وصلتنا أخبار بأنهم ماتوا جميعاً، ولما جاءت الحرب وحتى اليوم.. لم يدخل المدينة مجاهد ليدافع عن بلده، فتأكدت بأنهم جميعاً ماتوا وهم يحاربون جيش النظام فى الجبل..

- لما جاءت الحرب كنا قد ذهبنا جميعاً نقاتل معسكرات النظام فى جبال بعيدة.. وهناك قضى على معظم مجاهدى البلدة.. غير أنى ومعى بعض زملائى فررنا عبر الحدود لنلتقى بمجاهدينا وزملائنا فى الدول المجاورة.. ومنذ أكثر من

عامين ونحن هناك.. وكانت تصلنا أخبار المدينة، وكان هناك كثير من الوقت يلزم حتى أقنع زملائى المجاهدين من دول أخرى ليأتوا معى ونحرر المدينة.. ومنذ أيام قليلة.. جاءتنا هذه المرأة المجاهدة.. وأشار إلى إيناس.. جاءتنا لتخبرنا بأن حال المدينة قد تردى إلى أبعد الحدود.. ولما جئنا معها جميعاً.. انتظر زملائى عند الحدود.. ودخلت معها وحدى حتى تتكشف الأمور.. ومنذ أن دخلت المدينة.. كان كل واحد فى المدينة قد أخبرنا بحكاية الراقصات اللائى سيحررن المدينة الليلة.. فهل يرضيك هذا ياسيدتى..

– أنا لايرضينى أى أمر معوج، ولكن إذا كان الرجال لايستطيعون.. وهم قلة.. وقلة فاسقة.. ومن أسنى على المدينة التى أصبحت أشلاء.. سخرت من الرجال.. وقلت بأننى سأجعل من العاهرات أبطالاً يحررن المدينة.. إنها قلة الحيلة والسخط والأسف وأشياء كثيرة معاً جعلتنى ألقى بهذا القول.. ولكن إذا جاء البديل الصحيح يابنى.. فلن يصح إلا الصحيح.. وإن الفكرة كانت فكرة خاطر أو مرابى من أهل المدينة، وماذا أفعل إذاً جاءنى رجل مثل هذا.. حتى إذا كان من الجن وطلب منى مالاً مقابل تخليص المدينة مِنْ هؤلاء العسكر الذين يداهموننا كل يوم بالموت.. ويأتون نساءنا علناً وبلا استحياء ؟.. ماذا كنت أفعل وليس بيدى حيلة ؟.. ولا أخفيك بأننى تمنيت بينى وبين نفسى أن تموت هؤلاء النساء فى هذه العملية مع الجند، وفكرت أيضاً فى أننى أستطيع بعد قيامهن بهذه العملية أن أحاكمهن جميعاً أو أقضى عليهم حتى تبرأ المدينة وتطهر من كل نجس..

– لاشك ياسيدتى أننى أشعر بسعادة بالغة وأنا أصغى إلى موقفك.. ومنذ زمن بعيد وأنا أعرف أنك سيدة كبيرة فى أخلاقك، باسم الله.. ثم.. ثم ببركة سيدة مثلك.. ثم بتدعيم عائلة الخالدى لنا نحن المجاهدين.. أطلب منك الآن.. إبطال حركة النساء هذه فوراً وبأن أذهب الآن ياسيدتى إلى الحدود لآتى بالمجاهدين،

.. وكانت إيناس تريد أن تعود إلى الحدود قبل أن ينتهى الهوارى من حديثه مع السيدة، ولكنه أثناها عن عودتها إلى المجاهدين خوفاً عليها.. لأنها ستقطع شوطاً كبيراً فى جبل موحش.. وتشاورت السيدة مع سلامة وربما وبرهوم.. وكان أهل القصر جميعاً قد التفوا حولها فى الشرفة حتى سميرة وبسنت وسعدية بنت منصور.. وانتهز الهوارى فرصة إنشغالها مع أهلها وتكلم قليلاً مع إيناس.. وقالت له السيدة بصوت قوى عال:

– كم معك من المجاهدين ؟

– أكثر من ثلثمائة فارس..

– هل يركبون جميعاً جيادهم ؟..

– بل هناك جياد أخرى تتبعنا.. تجرى بين الأفراس..

– ومن أين أتيتم بهذا العدد من الجياد ؟..

– من ثلاث دول.. إنها غنائم المجاهدين من ثلاث دول.. وهؤلاء المجاهدون يعشقون الحرب على الأفراس..

– وهل أنتم قادرون على مداهمة جند مسلحين ؟..

– فليمت منا مائة.. إننا قادرون على أكثر من هذا..

– لايهمكم الموت.. ولاتحسبون له حساباً..

– إنه الموت الشريف من أجل الحق..

– وماذا تطلبون منى بعد ذلك يابنى ؟..

– لن نطلب شيئاً.. إننا نعمل من أجل وجه الله الكريم.. إنهم سيعودون جميعاً إلى بلادهم..

– وإذا كانت المدينة تحتاج إلى الرجال، ورجال مثل هؤلاء..

– ان هؤلاء الرجال لايستطيعون الحياة فى مدينة تحكمها امرأة..

واحمر وجهها وقالت فى احترام شديد للرجل:

– إنك رجل غريب حقاً.. عد الآن إلى ابطالك فلن يحرر مدينتى إلا أنتم..

وثق يابنى بأننى سأكون خلفكم بكل ما أملك.. وسوف أدعوكم بعد ذلك للتشاور فى أمر مدينتى..

ورفع يديه إليها بالشكر وانقلب بفرسه ومن خلفه إيناس بجوادها.. اخترقا باب القصر فى لحظة.. وكان الفارسان يشقان ظلام المدينة الدامس.. كأنهما سهمان مارقان فى لحم طرى.. ولم يمض من الوقت ساعة.. حتى انتصف الليل.. وتجمعت السيدة وأهل قصرها وجماعة سيد أبو عاطف، وجماعات أخرى مثل جماعة عصام عطية، ولما أبلغت سيدة القصر رئيسة المدينة بتلك الأخبار المفاجئة.. كانت رئيسة المدينة وكارول.. قد غادرتا مبنى المدينة متجهتين إلى بيت سندس وزوجها.. ليحملاهما فى عربة جيب معهما.. إلى حيث تلك السيدة الكبيرة وأهل المدينة.. وكان بعض الناس تبكى .. والآخرون يرفعون أيديهم إلى السماء.. ورئيسة المدينة ورفاقها يقفون مع سلامة ويرهوم وكل الجماعات المخلصة فى البلدة.. وكان هناك كثير من النساء الطاعنات فى السن والأطفال الصغار هنا وهناك تمتلئ بهم كل الشوارع المحيطة بالقصر القديم.. لقد كان هذا الطريق هو الممر الوحيد إلى معسكر الأعداء.. إنهم جميعاً فى شوق شديد وتلهف لاستقبال كتيبة الفرسان القادمة.. غير أن المحافظ كان هناك قرب المعسكر يعد مركبات نقل كبيرة بسائقيها حتى يساعد الجنود الذين يسلمون أنفسهم ليحملهم فى تلك العربات إلى الحدود بأمتعتهم وخيامهم.. هكذا كان فكر المحافظ.. وقامت الرئيسة بتسليم المفاتيح لسلامة.. وكتلة أخرى أعطتها لسيد أبو عاطف، وأخذ القائد القديم يشرح لهم كيف سيدخلون إلى المخازن للاستيلاء عليها، وكان رأى الجميع بأن يتم الاستيلاء على الذخيرة والعتاد.. أثناء اشتباك الفرسان مع جيوب العسكر.. ومضى قليل من الوقت، وفتحت المدينة قلبها وصدرها ليدخل إليها رجال وجياد.. فرسان يجاهدون من أجل إحقاق الحق.. وكان ضمن هؤلاء الفرسان أكثر من خمسين نصرانياً.. إن الجهاد الحقيقى يدخله كل أبناء الأوطان من أجل إثبات أن السلام والتحرير والحب هو آية. من

آيات الله فى جميع الرسالات التى بعثها فى الأرض..

كانوا يتهيأون لاستقبال النساء فى خيامهم.. فجاءتهم جهنم من كل ناحية، وماكانت نار الفرسان إلاَّ سيوفاً ماضية قوية هى سلاح المقاتل القديم، لقد بعث هذا الفارس الذى كان فى الزمن البعيد مرة أخرى.. وتهاوى كل جبان وسقط واحد بعد آخر.. قتيلاً أو هارباً أو أسيراً، ولم يقاتل الفرسان قتالا شرساً أو صعباً ولكن شجاعتهم جعلتهم جميعاً يتساقطون على العدو كالنسور.. وكان هناك خمسة فرسان قد ذهبوا إلى مبنى المدينة ليضربوا الحرس هناك ضربة واحدة ويقبضوا على قائد الحملة الجديد.. وتم ذلك فى سهولة ويسر ودون أدنى مقاومة.. وتم وضعهم جميعاً سجن المبنى.. وقام واحد منهم بحراسة المبنى.. وقبل أن يغادروا المبنى.. صعد منهم اثنان ليقفلا جناح الرئيسة حتى لاتعود إليه.. فى اعتقاد منهم بأن أى امرأة فى المدينة يجب أن تعود إلى بيتها، ولن تكون هناك رئيسة للمدينة بعد اليوم.. وكانت إيناس قد نقلت للمجاهدين عبر الحدودكل مايحدث فى المدينة وأهمها أحداث الرئيسة وكارول وسندس والضابط.. حتى أنهم عندما دخلوا ليحرروا المدينة من الأجانب.. كانوا يعتزمون أيضاً تحرير المدينة من نسائها.. وفى احترام شديد قام المجاهدون فى نفس الليلة بدفن جثث أعدائهم، ولم يكن هناك بينهم قتيل واحد، وعدد الجرحى كان عشرة تم علاجهم فى مركز الاسعاف دون أدنى خطورة على صحتهم، وكان رأى المحافظ أن تحمل العربات الجنود والضباط الأسرى إلى أبعد نقطة فى الحدود ليعودوا إلى بلادهم.. ولكن رأى المجاهدين كان أبعد من ذلك بكثير.. إن النساء العاهرات جميعاً فى فندق المجدول.. فليدخل هؤلاء الزانون معهن. وتطهر المدينة مرة واحدة من الرجس، ويتم تفجير الفندق بمن فيه وحتى يكون ذلك عبرة لمن يعتبر.. ولما كانت الكلمة العليا لهم.. قال لهم المحافظ وهم مجتمعون فى ميدان القصر القديم:

– إفعلوا ماشئتم.. ولكن ألم يطلق الرسول سراح الأسرى ؟..

ورد المتحدث باسمهم بصوت عال ويدعى ضياء بن على:

– إن هؤلاء ياسيدى لم يعتدوا على المدينة بسلاحهم فقط.. لقد هتكوا شرفها..

– ولكن كان هذا دون اغتصاب.. فالنساء قد احترفن هذا العمل فى الملاهى..

– إنهم بكل المقاييس خربوا البلدة.. وإنهم زانون اينما ذهبوا.. تعودوا على هذا العمل الشائن.. إن ذلك سيطهر الأرض جميعها من دنسهم..

غير أن السيدة الكبيرة أشارت بيدها لأعلى فصمت الجميع وقالت:

– إن الله يغفر يأبنائى.. وأعتقد أن النساء لن تجد مجالاً بعد ذلك لأن تقترف مثل هذه الذنوب.. ثم أننى رأيت جنوداً وضباطاً مستسلمين استسلاماً دون أدنى مقاومة.. لماذا لا يكون هناك إصلاح للأسرى ولهؤلاء النساء ؟.. دعونا نسأل الأسرى..

وقال ضياء بن على:

– نسأل الأسرى عن ماذا ؟.. أتأخذنا بهم رحمة بعد كل هذه الآثام ؟!..

– فليتزوجوا هؤلاء النساء يابنى.. لن نفرض عليهم النساء.. يابنى يا أبنائى.. إن هؤلاء الجند جميعاً ممكن أن يتغيروا ويصبحوا أداة صالحة فى بلادنا.. خاصة أنهم جميعاً أصحاب حرف فى بلدهم.. منهم النجارون والبنائون والميكانيكية.. دعونى أتحدث معهم وهم بزواجهم من النساء اللاتى اقترفن معهم الآثام يبدأون جميعاً طريق الإصلاح.. إننا إذا قتلناهم جميعاً ودمرنا فندق المجدول عليهم فإننا سنقتل أكثر من خمسمائة نفس، وقد تكون هذه النفوس جميعاً بعد هذه الأحداث قابلة لأن تتوب..

وقام ضياء بن على من على ظهر فرسه وقال:

– هل توافقون على رأى السيدة أو على رأيى ؟..

وهتف أهل المدينة جميعاً..

عاشت السيدة الكبيرة.. عاشت..

ولكن المجاهدين.. رفعوا سيوفهم لأعلى وقال بعضهم:

– فلنرجئ الأمر لوقت آخر..

وقال المحافظ:

– سندخلهم فى سجن المحافظة وحتى يستقر الأمر عليهم..

– الأمر فى النهاية لكم.. لقد أدينا واجبنا واسمحوا لنا بالعودة..

وقال المحافظ فى نخوة:

– كيف تعودون بلا ضيافة.. إننا لم نقدم لكم أى شئ..

– لابد أن نعود الآن حتى نصل الحدود عند أول ضوء.. وسوف نترك لكم خمسين رجلاً منا حتى تحافظوا على مخازن العتاد من أى طارئ.. لقد عاد الآن كل شئ.. والمدينة لاينقصها إلاَّ إصلاحات الأمن والغذاء.. فالعاهرات والأسرى وإقامة حياة كريمة لكل إنسان هى أمور تخصكم ومانحن إلا ضيوف عليكم ونحن فى خدمتكم ماحيينا.. وهاهى إيناس تعيش بينكم إذا كان هناك أمر يستدعى وجودنا سنكون عندكم فى طرفة عين.. وأشار إليها بيده.. إنها تعرف الطريق إلينا..

وقامت السيدة الكبيرة عن ظهر فرسها وزعقت قائلة:

– كيف تذهبون دون أن نكافئكم على هذا العمل الجليل.. ألم أقل لك يابنى.. وأشارت باصبعها نحو ابراهيم الهوارى.. ألم أقل لك أننى أريد رجالاً مثلكم ليتزوجوا نساءنا..

وابتسم الهوارى ابتسامة عريضة وقال وهو يهز رأسه:

– إن المدينة ليس فيها نساء بعد هؤلاء النساء فى فندق المجدول.. أتريدين ياسيدتى من شباب مثلنا أن نتزوج نساء المدينة الخردة.. لاياسيدتى.. إننا لن نقبل إلا الجميلات.. وغص الجمع الكبير بصيحات ضاحكة ومازحة.. غير

ن ريما قالت كمن تدعوهم للبقاء:

– إن فتيات القصور الجميلات سيعدن.. لقد عاد السلام وستمتلئ المدينة فى أيام بكل ماهو جميل..

وسادت لحظات سكون.. واعتلت رئيسة المدينة فرس برهوم.. ولما أشارت بيدها إلى الجماهير.. صاحوا جميعاً فى صوت واحد.. : فلنسمع ماتقوله الرئيسة وكانت موجات من الود والحب تهتف : عاشت الرئيسة.. عاشت ابنة الخالدى.. عاشت.. وسعدت الرئيسة بذلك مما جعلها تقدم على مفاجأة وتقول:

أيها الناس.. أنتم تعرفون أننى أحبكم جميعاً.. وهؤلاء المجاهدون الافاضل لهم منى جزيل الشكر والامتنان.. وإننى أدعوهم لأن يبقوا فى بلادنا. وسكتت قليلا.. وترقرقت الدموع فى عينيها غير أنها تماسكت ثم أردفت تقول: وأنتم جميعاً تعرفون أننى لم أنصب نفسى رئيسة، ولكن بأمر من العاصمة وجدت نفسى.. وفى خلال الأعوام الماضية عملت مافى وسعى كامرأة من أجل المدينة.. وأقول.. أنه لو كان هناك رجل لفعل أكثر.. وإذا كانت الجماعة الباسلة التى دخلت مدينتى لتحررها.. وتريد أن تعود إلى بلادها فتلك أخلاق نبيلة بلا شك لم نر مثل هؤلاء الرجال من قبل.. إن مدينتى لكى تعمر فى حاجة إلى مثل هؤلاء.. وكانت صيحات الناس تعلو قائلة «نعم ياسيدتى إنهم رجال لم نرهم من قبل.. لم نرهم من قبل.. إن المدينة فى حاجة إليهم ياسيدتى» وهزت رأسها وأكملت كلمتها فى صوت أكثر حماسة: لقد عينتنى العاصمة رئيسة عندما نشبت الحرب.. وأعتقد أننى الآن لم أعد صالحة لهذا المنصب.. وسوف يرسل المحافظ رسالة إليهم تفيد بأننى غير راغبة فى ذلك.. إن بيتى وإبنى وزوجى فى حاجة إلىّ.. لم أخلق لأقوم بهذا العمل الشاق.. لقد كنت ضعيفة.. وفى كثير من الوقت كنت أتلوى من هذا الضعف.. لقد بلغتنى رسالتكم التى أبلغها الفارس إبراهيم الهوارى لأمى عندما دخل المدينة ليستأذن فى دخولكم لتحريرها.. الرسالة ياسادتى.. أن هؤلاء الفرسان لايستطيعون أن يبقوا فى مدينة تحكمها امرأة..

وأنا أقول لكم.. أنا لا أصلح لهذا الذى كان غير طبيعى وغير مقبول لإمرأة.. ولكنى قبلته مرغمة ربما كان من وجهة نظر الرئاسة صحيحاً.. أيها الرجال النبلاء إننى أمام أهل المدينة.. لن أكون لها رئيسة بعد هذه الساعة حتى ولو أدى ذلك إلى محاكمتى.. والرسالة الأخيرة التى أقولها لكم ولن أتفوه بعدها بكلمة.. إن الأمر الآن أصبح فى يد المحافظ وفى أيديكم.. فلتبقوا أيها الرجال.. إن أى مدينة فى حاجة إليكم.. إننى لا أصلح لأن أكون رئيسة لمدينة أهلها جميعاً من النساء..

وسكتت الرئيسة.. واقتربت منها كارول تحتضنها وراحت تبكى، وأقبل عليها سلامة وهو يمسك بيد ولده.. وأخذ يدها يقبلها.. وتعلق الصغير بقدمها فقبلها، ومد سلامة ذراعيه لها.. فتهالكت إليه.. وحملها من فوق ظهر الفرس إلى صدره.. فاحتضنته.. وتشبثت ذراعاها بعنقه.. وقالت له وهى تعتصره وتكاد أظافرها تنشب فى ظهره:

– خذنى إلى البيت.. احمل ولدى ليكون معى فى أحضانك.. خذنا إلى البيت الآن واترك كل هؤلاء.. ألا تستطيع حملنا ياسلامة..

– والناس.. إن المدينة كلها ستلومنى.. من أجل خاطر هؤلاء الفرسان.. دعينى قليلاً حتى ينتهى كل شئ.. وسوف آخذك حملاً على ظهرى حتى غرفتك القديمة وفراشك الدفئ..

واقتربت منها كارول لتأخذها.. ولكنها تشبثت بعنقه أكثر وقالت وهى تهمس فى أذنه:

– لاتتركنى بين يدى كارول.. أرجوك.. إنها صديقتى ولكنها أيضا عدوتى.. أتوسل إليك..

– لقد كنت أعرف كل شئ..

– ولماذا لم تأت لتأخذنى من بين أحضانها الشرسة ؟..

– كنت أدرك تماماً أنها نزوات نساء.. وأنك سوف تعودين.. وكانت المدينة

معلقة.. كما أن كل شئ حولنا كان مبتوراً وناقصاً..

وأنزلها برفق إلى الأرض فاحتضنها ولده..

وكانت الجموع الحاشدة قد بدأت تنصرف.. واتفق المحافظ مع الفرسان أن يعودوا مرة أخرى.. إن المدينة تريدهم.. من كان متزوجاً فليأت بأهله وليضف إلى زوجته ثلاثاً أخريات، ومن كان أعزباً فليعد ألينا وليبدأ بواحدة.. ثم يتم تربعاً في خلال عام.. وكان هذا اقتراح السيدة الكبيرة وأيدتها ريما.. وكان الفرسان يضحكون من هذا الاقتراح.. سعداء به.. وذهبت جماعة مع عربة الأسرى ليتم حبسها في سجن المحافظ.. على أن يتم عودة جماعة من المجاهدين إلى المدينة في خلال أيام قليلة حتى يحسموا أمر هؤلاء الأسرى وأموراً أخرى كثيرة.. وكان قد بقي عدد منهم لحراسة مخازن الذخيرة والعتاد، وكانت جماعة سيد أبوعاطف تريد أن تعود إلى المخازن لتكون برفقة زملائهم الفرسان، لكن المحافظ رفض قائلاً لهم:

– إنهم جديرون بالأمانة.. تعالوا معي إلى مبنى المحافظة لتحملوا لهم الطعام والفراش..

وكانت جموع من شعب المدينة تريد أن تنقض على مهمات وأدوات معسكرات الأعداء.. فمنعهم المحافظ بشدة.. وقام كل من عصام عطية وكركور ومحمد أبو علي بمساعدة جماعة سيد أبو عاطف في حراسة تلك الغنائم حتى توزع على الناس جميعاً بالعدل.. وانطلق برهوم بفرسه إلى مبنى المدينة وتبعته عربة من القصر القديم ليحمل كل مايخص الرئيسة ويعود به إلى بيتها.. ولحقت به كارول ومعها مفاتيح كل شئ.. وهناك ساعدت برهوم في تعبئة كل مايخص الرئيسة، ثم ساعدها برهوم في جمع حاجياتها، وكان هناك بعض الجنود الغلابة يحرسون مبنى المدينة.. هم الباقون من الحملة ومازالوا أحراراً بتوصية رئيسة المدينة.. حملوا كل شئ إلى عربتين .. انصرفت عربة منهم إلى بيت كارول تحملها وتحمل مالها من المبنى إلى بيتها.. لتعيش وحيدة مرة أخرى.. لكنها هذه

المرة ستوف تقوم بدور اجتماعى كبير كما وعدتها الرئيسة.. ولما دخلت العربة باب القصر كانت السيدة الكبيرة وسميرة وبسنت يقفن فى شرفة الطابق الثانى لتتأكد كل منهن أن الرئيسة لن تعود ثانية إلى ذلك المبنى.. وكان الصغير قد نام فى حضن أمه.. نام نوماً عميقاً لم ينمه من قبل.. تشبثت يداه بعنقها كما تشبثت يداها بعنق زوجها من قبل.. ولم تستطع نيروز تلك الليلة أن تفر من بين أحضانه لتذهب إلى أحضان أبيه..

– وفى اليوم التالى أرسلت نيروز رسالة إلى كارولين تقول فيها:

– قلت لى مرة أن الأرمن ليس لهم كنيسة يقيمون فيها صلواتهم وتكون مقراً لأعيادهم وحفلاتهم.. وأنا أدعوك اليوم.. بأن تكونى مديرة لهذه الدار.. ارسلى إلى بالرد مع إيناس.. وسوف أحصل لك على زوج.. جاءت به الحملة.. أقصد حملة الفرسان.. زوج من مازالوا فى المدينة.. أحد الفرسان الذين يحرسون مخازن الذخيرة.. أنا لم أره.. ولكن إيناس هى التى اختارته لك.. إنه فارس نصرانى.. من حق النصارى أن تفخر به.. إننى أحبك ياكارول.. وأتمنى أن أسعدك وسوف أجلب لك كل ماهو طيب..

وجاءتها إيناس بالرد فى كلمات قصيرة:

– كان حلمى القديم أن يكون هناك كنيسة للأرمن.. ويأتى اليوم الذى أكون فيه مديرة لها.. هذا شئ كبير جداً.. أما حكاية الزوج.. أتمنى أن يكون لى زوج.. رجل يكسرنى ويحتوينى ويكون أقوى من جنونى.. جنونى الذى تعرفينه.. لن آمن إلا برجل.. إذا تحقق كل ذلك.. فسوف أهتف من كل كيانى.. بأن المدينة قد تحررت حقاً..

وكانت نيروز تحمل مفاتيح لبيوت كثيرة مقفلة.. وقبل غروب الشمس كان سلامة وبرهوم يشرفان على تجهيز أحد البيوت ليكون داراً للعبادة.. وقالت كارول وهى تتجول فيه:

– لقد صبر الأرمن كثيراً كما صبرت أنا.. وجالت بناظريها حولها وقالت

فى جرأة لسلامة:

– تل لحبيبتى نيروز.. أين النصرانى ؟..

– أى نصرانى ؟..

– النصرانى الذى وعدتنى به نيروز..

– لا أعرف شيئاً..

– دى تعرف ياسيد سلامة.. قل لها بالحرف.. حتى تكون مديرة لبيت دين.. فمن حقها أن يكون لها زوج.. وحتى لاتجن كما كانت مجنونة.. إن فرسان النصارى كثيرون هناك عند المخازن.. ماسم هذا الفارس النصرانى.وأسرع سلامة ماستطاع ليخبر زوجته بمطالب كارول، كان يريد لها أن تتزوج حتى لاتعود إلى نيروز مرة أخرى، وفى اليوم التالى كانت كارولين تتزوج من هذا المجاهد النصرانى، وعقد قرانهم القس مليكة، وكان عرساً يليق بكارول وماقدمته للمدينة من خدمات كبيرة..... وأخذ المحافظ يعمل على إغراق المدينة بالسلع الغذائية، ودخلت البلدة قطعان من البقر والجاموس والأغنام، وبواسطة ثروت المناديلى.. أصبح كل فلاح يملك بقرة ونعجة وجاموسة تدر اللبن لأبنائه.. وأخذ الفلاحون يحرثون أراضيهم بمحاريث قديمة وبدأت السواقى والنواعير تدور لتخرج الماء العكر من بئر كل ناعورة.. حتى حل مكانه ماء رائق صاف.. وارتوت الأرض العطش، وتعلم الناطلون والتنابلة كيف يحرثون ويعزقون ثم يحصدون، وثروت المناديلى يوفر لهم كل مايحتاجونه من أدوات وحبوب.. حتى النقود جلبها لهم من المحافظ.. ولم يكن هناك مواطن واحد فى القرية إلاّ وقد وقع على كمبيالة بالدين للمحافظ يقوم بتسديدها على أقساط بآجال طويلة.. وكان الضامن فيها جميعاً ثروت المناديلى.. واستورد الرجل بعد ذلك جرارات حديثة والات زراعية.. وأدوات وعدد حديثة لمعامل الألبان التى بدأت تعمل وتصنع الجبن والزبد والقشطة، وبدأ أصحاب القصور يعودون ليصلحوا قصورهم ويعمروها، وكان ثروت المناديلى يقف إلى جانب كل صاحب قصر.. يقدّم تسهيلات قروض ومعها

كمبيالات يوقعون عليها، وبدأ المحافظ يخرج أجولة العملة الوطنية وأجولة أخرى بالدولارات والفرنك... وأغرق المدينة بحركة إقتصادية لم تحدث من قبل، وهو فى النهاية رجل تاجر.. أصبح يملك المدينة بما عليها.. والناس جميعاً تعرف.. ولكنهم راضون بكل مايحدث.. فليس هناك بديل.. وبدأت حياة المدينة مرة أخرى.. حاكم واحد.. ومالك واحد.. ورأس مال واحد.. ومرت أيام وشهور فيها تزوج الأسرى بالغانيات وأقاموا لهن دوراً ومعاشاً.. وأمنت كل امرأة فى بيتها بزوجها وطعامها.. وأخذت كل حبلى تراجع مستشفى البلدة.. واقترب المخاض من كل بيت وصراخ الأطفال آت لامحالة.. إن بسماتهم ستملأ الدنيا.. ولن تبكى أمهاتهم مرة أخرى.. إن الأرض واسعة تتسع لبلدة أخرى عليها.. والمعامل والورش تبحث عن كل عاطل لتعلمه كيف يتقن حرفته.. حتى أن هناك عدداً كبيراً من الأسرى لم يجد من يتزوجه من النساء.. فتزوجوا نساءً فوق الخمسين والستين فى العمر، والبعض منهم أخذ ينتظر أى فتاة تبلغ السادسة عشرة.. وفى جوانب المدينة المختلفة شيدت الفنادق.. ولم يستطع المحافظ منع كل صاحب فندق من إقامة ملهى.. فلقد أقاموا جميعاً ملاه.. كانت الملاهى فى شكل آخر.. بدأوا يطلقون عليها بأنها ملاه غير فاضحة، ولم يكن حاكم المدينة يستطيع مرة واحدة أن يمنع الناس عن اللهو.. كان الرجل تاجراً وشريكاً لكل صاحب فندق وكل مالك ملهى.. وكان يريد لتجارته أن تربح.. واعتمرت المدينة أيضاً بكل مظاهر الدين.. فأقيمت مساجد وكنائس جديدة، ودور أخرى لرعاية اليتامى وكبار السن.. ازدهرت المدينة بكل مظاهر الحياة كأى مدينة.. وكان فى رأى الحاكم أنه لايستطيع أن يدخل شيخاً فى كل بيت لكى يصلحه.. أو يدخل قسيساً فى كل شارع حتى يقرع أجراس تعاليمه.. وربما دخل رجال الدين البيوت والشوارع فيزيدونها فساداً على فساد.. إن كل مايهم الرجل الاقتصاد والتجارة.. وأن تعيش البلدة فى رخاء لاينتهى.. وكان سلامة ونيروز والسيدة الكبيرة يقومون بنشاط اجتماعى وإصلاحى بين الناس، فيزوجون الأسرى

بالنساء، ويقيمون الشعائر ودوائر للذكر فى الميادين والشوارع الكبيرة، ويزوجون العبيد من أهل المدينة، ويحاولون اقناع إيناس بالزواج من أسير، وأن تقلع سندس عن الذهاب إلى ملاهى الفنادق وتعالج زوجها صريع المرض.. فلم يستطيعوا جميعاً.. وكانت وفود المجاهدين تصل المدينة من حين لآخر.. وينزلون ضيوفاً عند المحافظ، أو فى القصر القديم.. وكانوا يصرون على تنصيب رجل شاب رئيساً للمدينة يعاون المحافظ فى أعماله، وفى إحدى الزيارات قال لهم:

– ليس لدينا إلا ولى للعهد.. وهو ابن سلامة الكانى.. محمد سلامة ابن فيروز ابنتى..

ورد رئيس الوفد قائلاً:

– ولماذا لايكون سلامة..

– إنه كانى.. وليس من عائلة الخالدى..

– إمنحه جنسية البلدة.. إنه من عائلة القطران.. لايهم العائلة ياسيدى المحافظ.. نحن نختار الرجل الصالح.. حتى ولو كان من عائلة أبو عوف الذى عاش طول الموتى.. ثم لماذا زوجته ابنتك..

– إن عائلة الخالدى لها تاريخ كبير.. وكل هؤلاء العائلات شرائح.. ولابد أن يكون الحاكم من أصل عريق حتى لايتدنى.. ويكون فى يوم سفيهاً فى حكمه.. إن الأصل يغلب ياسادتى الكرام..

– أنت تدخلنا فى قضايا ومواضيع لانحب الدخول فى تفاصيلها.. نحن لن نتدخل فى شئون البلدة الداخلية.. مهمتنا ياسيدى قد انتهت.. فنحن نحرر البلاد.. أى بلاد من العدوان الخارجى.. وكل بلدة بعد تحريرها تفعل ماتشاء.. ونحن حريصون على أن تكون البلاد قوية من داخلها.. كل البلاد التى تهمنا..

– سوف أفكر فى منح سلامة جنسية البلاد.. ولكن مارأيكم إذا قمت بتنصيب ابن ابنتى محمد سلامة ولياً للعهد..

– ذلك الصغير.. نحن نريد رجلاً يساعدك فى كل أمور البلاد، وحتى يأتى

*لا يأتى يوم تصعد إلى البلاد إمرأة تحكمها مرة ثانية.. ولماذا تنصَّب ياسيدى ولياً للعهد؟.. هل أنت ملك ؟!!..

– ولماذا لا أكون ملكاً.. ألست أملك كل هذه البلاد.. ولماذا لاتسعدون بذلك.. إن هناك بالفعل اتصالات مع الرئاسة فى العاصمة لأكون ملك المنطقة الشمالية بأكملها..

– ألا تعرف ياسيدى.. أن هذه الرئاسة قتلت مجاهديكم جميعاً فى مناطق الجبال الوعرة.. كانوا يضربوهم بالنابالم.. ألم تأت هذه الحرب التى عانيتم منها سنوات بتخطيط من تلك الرئاسة.. أتعتقد أنهم ينصبونك ملكاً.. ألن تكون تابعاً.. أكيد أنهم إن فعلوا ذلك فإنك ستكون لهم.. ويكون الملك الذى ينصبوه جزء من نظامهم.. ولكن تحت مسميات أخرى.. إن هدفهم النهائى هو صهر قومية هذا الشعب، وتلاشى كل معالم وجوده وتنتهى كما يذهب ضوء النهار مع قدوم الليل.. سيكون هذا بداية ظلام آخر..

– سوف أفكر فى كل الأمور.. وأبلغكم بكل ماهو جديد..

وانصرف وفد المجاهدين وهم يشعرون بحزن شديد.. وبدأ المحافظ يشعر أنهم يتدخلون فى كل شئ، وأنه يجب عليه أن يخفى عنهم أموراً كثيرة.. وفى نفس الوقت يحتفظ بولائهم..

وفى صباح أحد الأيام وقبل طلوع الشمس بقليل.. كان سلامة يقف أمام النافذة.. يتأمل الجزء الظاهر من المدينة، ولكنه ماكاد يتأمل إلا قليلاً سمع باب الحظيرة يفتح.. وصوت الخيل يصهل بقوة.. فأسرع ينزل الدرج الخلفى المؤدى للحديقة، وطلع على كومة من الطوب ودفع شباكاً صغيراً بيده فوجدها تسبقى الخيل، ولما انتهت قعدت على دكة خشبية وأمسكت مرآة.. وتطلعت إلى وجهها وبأصابع يدها الأخرى أخذت تمسح عينيها بكحل.. ومشطت شعرها وأمسكت صدرها بكلتا يديها.. وتقدمت نحو الفرس قنطار فى دلال وميوعة وكأنها تقبل على رجل.. وقبلته فى رأسه وهى تنحنى على رقبته وأخذت تدلك رأسه وتمسك

بغمه وتهدجت.. ورجعت إلى الخلف تمسح على ظهره.. ثم أمسكت بفخذيه.. وسللت أصابعها إلى قدمه القصيرة التى اندلعت بين ساقيه.. فى رقه متناهية مدت يدها وفى شوق شديد أخذت تمسح بأصابعها عليها.. كانت القدم فى يدها كعود القصب وراحت فى غيبوبة وهى تمسك بيديها القدم الطرية.. تتلوى بين أصابع كفيها الشرسة، وتهالكت إلى رأس القدم تسحبها إلى جسدها العارى.. وأخذت تعتصر العود كما تعتصر الماكينة أعواد القصب بين راحتيها فى ديناميكية تدربت عليها.. ونزل سلامة من فوق كومة الطوب، وهرول إلى باب الحظيرة ودخل وهو يسعل.. فلم تدر، وسعل بقوة فانتبهت قليلاً.. ثم رأته يقبل عليها فأفاقت من غيبوبتها وغطت ساقيها وانصرفت قدم الفرس تنكمش وتهرب إلى بطنه.. وكانت تريد أن تجرى فأمسكها من كتفها وقال يؤنبها:

– يخرب بيتك بتعملى إيه..

– زى ماشفت ياسيدى..

– كل يوم كده..

– كل الستات اتجوزت من أسير أو فارس.. إلا أنا..

– بس كده حرام..

– أنا أقل واحدة فى البلد بتعمل حرام..

– ياريت كل زوجة تعمل لجوزها اللى بتعمليه..

– هاتحسدنى على الفرس ياسيدى.. دانا غلبانه..

– إذا جوِّزتك من أسير.. هاترجعى للحصان..

– من قلة الرجالة باجى للحصان.. الحصان حلو أوى ياسيدى..

بل ريق أحسن من مافيش.. كفاية ياسيدى ماتكسفنيش.

وتركها وانصرف مطأطئ الرأس، ولما دخل إلى الفراش بجوار زوجته لم ينم، ولكنه راح يفكر، وأيقن فى نفسه أن المدينة تغرق فى الشذوذ، وأن على النساء أن تتزوج.. وعلى الرجل الزواج من عدة نساء.. وحتى لاتخرج امرأة إلى

شارع أو ملهى أو حظيرة للجياد.. وفى المساء طرح على نيروز الموضوع، واقترح أن يقدم للمحافظ مشروع قانون بعدم تربية الجياد فى البيوت فقالت له فى حزم شديد:

– إن الفرس منذ القدم رمز للعزة.. والحصان فى كل قصر أو بيت جدار أمان يحجز كثيرا من النساء عن الملاهى والشوارع حين تفتقد تلك النساء الرجل.. ولماذا نحرم ذلك الحيوان من تلك المتعة ؟.. إن بلادنا مازالت تفتقر إلى الرجال.. وستظل الجياد حيوانات وفية.. إنها أكثر من العبيد فى وفائها..

– الفرق كبير بين الحرب والسلام، ورغم أن المدينة كانت تعيش فى فقر وبؤس شديدين.. فإنها لم تع نعم الله عليها لما حل السلام..

– أنت تبحث عن شئ لاتبحث عنه المدينة.. إن الناس تريد أن تعيش فى سلام بعد أن ذاقوا مرارة الحرب..

– إننى لم آت بشئ مستحيل، ألا يحق للناس أن يتخلصوا من كل عاداتهم وتقاليدهم القديمة..

– وأين الخلاص الآخر الذى يذهب الناس إليه..

– قليل من حب الله..

– إن حب الله يأتى شيئاً فشيئاً.. إننا جميعاً نزعم أننا نحب الله.. حتى ونحن نقترف ذنوبنا.. ولايوجد شخص واحد فى هذا العالم.. إلا وقال لك أنا أعرف الله.. ولكنه فى نفس الوقت يقترف كل ذنوب البشر، وهذا دليل على أننا بشر غير قادرين على حب الله الكبير..

– إن هناك ناساً كثيرين يعيشون بحب الله فقط..

– وهناك ناس كثيرون أيضاً ليسوا ملائكة..

– وكيف ننشئ ابننا محمد وسط هذا الجو..

– إن هذا مناخ كل مدينة فى العالم..

وأنفقا وقتا طويلاً مر على نحو ثقيل، نام بعدها سلامة والهم جاثم على

صدره، ولكنه قام قبل طلوع الشمس وصلى وقرأ من كتاب الله، ثم هداه سبيله بعد ذلك لأن يتسلل إلى البدروم، وهناك طرق الباب وفتحت له بنت منصور فقال لها:

– جئتك فى أمر هام..

وقالت وهى تشد ضلفة الباب الضخمة:

– لا تخجلنى ياسيدى إذا حاولت أن تمنعنى عن حظيرة الجياد..

– أنا دائماً لى قاسم مشترك مع العبيد.. وأنت تعلمين أنه لم يعد فى القصر غيرك وبرهوم ويهمنى أمركما..

– ماذا تعنى ياسيدى ؟..

– أريد تزويجك..

– من برهوم..

– لا.. من أى رجل من الأسرى أو فارس من الفرسان..

– أنا أعلى درجة من أى أسير ولايمكن أن اتزوج أحداً منهم.. وإذا كنت تعتبرهم من درجتى فلك ماشئت، ولقد رأيت كل الفرسان.. وجميعهم قصير القامة..

– إذاً أنت تضربين عن الزواج من رجل رغم وفرتهم..

– أنا ياسيدى فى حاجة إلى رجل قوى له سواعد مفتولة.. إننى عبدة ياسيدى وسأظل كذلك.. ولكن لاتنسى أننى عبدة أكبر قوم فى المدينة.. ولكنى امرأة.. صدقنى أنا امرأة جديرة بأن تلاعب أسياد الرجال.. وإذا كنت ترغب فى تزويجى حقاً فأت لى برجل مكين..

وكان يندهش من حديثها الجرئ إليه.. وفى نفس الوقت يريدها أن تقول مايعتمل فى نفسها..

ولما سكتت قال لها:

– ألا يوجد رجل يعجبك فى البلدة كلها ؟..

ونظرت إليه فى تحد وقالت فى تؤده:

– وهل تستطيع أن تزوجنى من هذا الرجل ؟..

– قولى من هذا الرجل..

– إنه برهوم.. برهوم ياسيدى..

وكان سلامة يريد أن يضحك بصوت عال، لكنه حاول أن يمسك بأساريره وابتسم وقال:

– هذا أمر سهل وفى مقدورى..

وامتعضت وقالت فى تبرم شديد:

– إنك لن تستطيع أبداً.. وسكتت هنيهة ثم أردفت قائلة:

– لم تسألنى كيف رأيت الفرسان والأسرى.. لقد ذهبت مع سيدتى ريما إلى هناك كى ترى كل الرجال عسى أن يعجبها رجل منهم.. ولكنها رجعت ممتعضة..

وفوجئ سلامة مرة أخرى بأخبار لم يعلمها من قبل وقال:

– وما علاقة هذا بما تحدثتنا عنه ؟..

– لقد أخبرتنى سيدتى فى طريق العودة بأنه لايوجد رجل مثل برهوم بين هؤلاء الرجال.. وعندما قلت لها لقد طلقتيه ياسيدتى لأنه قاتل وسافك دماء.. تابعت قائلة.. أستطيع تطهيره من الدنس..

– إذاً هى مقبلة على الزواج منه ؟..

– أعتقد ياسيدى..

ورجع خطوتين إلى الخلف حتى أصبح واقفاً فى فتحة الباب، وقبل أن ينقلب إلى حيث جاء أمسكت بذراعه راجية:

– أرجوك ياسيدى لاتمنعنى عن إطعام الجياد..

– ألا يجب أن تعودى لصوابك وتتوبى ؟..

– إنك ياسيدى لن تستطيع أن تمنعنى عن الفرس.. ولن تقدر أنت

ولاغيرك أن تجعل أحداً من الناس يتوب.. لابد أن تكون التوبة من نفسى.. ولما يكون هناك رجال يملأون عيون النساء فعند ذلك ياسيدى تستطيع أن تحاسبنى.. وضربها على رأسها بكف يده وقال:

– هذا رأى الفاجرات مثلك.. حقيقة أنك عبدة ولن تتحررى.. وسوف أقدم تقريراً عن حالتك وعن حالات كل النساء الفاجرات اللائى لايعجبهن رجل قصير أو أسير.. ألا يعجبك أيتها العبدة فارس من الفرسان الذين حرروا المدينة ؟..

وقالت ودموعها تنفجر من عينيها:

– قد يستطيع الفرسان تحرير مدينة، ولكن الفرسان جميعاً قد يكونون غير قادرين على تحرير نساء تلك المدينة..

– لا أعتقد أن كل النساء سافلات مثلك يابنت منصور.. (وبصق نحوها).

ولما طلع إلى غرفته أيقظ زوجته بصعوبة من نومها العميق، وأخبرها بكل ماجرى بينه وبين العبدة، وقامت نيروز من جواره وجلست على أريكة فى مواجهته وتنهدت كثيراً ثم قالت وقلبها يمتلئ بالشجون:

– إنك لم تستفد من أيام الحرب.. ولن تستطيع أن تفهم كيف يكون السلام فى مدينتى.. إنك لست رسولاً بعثت لتحرر نفوس البشر، حرر نفسك أولاً.. وإذا تحررت فلن تستطيع أن تحرر نفوس الآخرين.. إن الآخرين وحدهم هم القادرون على تحرير أنفسهم..

وقام إليها منزعجاً ولما جلس بجانبها.. قامت إلى دولابها لتأخذ قطعاً من ملابسها وتذهب إلى الحمام لتستحم، وكانت تريد أن تغسل جسدها من عرق الليل وأن تنفض عن رأسها أخبار النهار الركيكة..

وشعر سلامة بحزن يعتصره فذهب إلى السيدة الكبيرة وحكى لها فقالت له:

– ليت ريما تتزوج برهوم.. إنها قد تغادرنا فى خلال يومين إلى قصرها.. أتمنى أن يكون لها زوج يسرى عنها وحدتها.. إننى سأطمئن عليها مع عبدنا..

- وأمر بنت منصور ياسيدتى..

- لاتمنعها عن القيام بأعمالها.. سوف تتوب من نفسها يابنى.. إننا لن نستطيع الآن أن نوفر للناس كل أسباب الحياة، وعندما نستطيع ذلك سوف نحاسبهم حساباً عسيراً.. وأعتقد أنه لو حاسب كل إنسان نفسه لكان أفضل..

(وهزت رأسها ونصحته بأن يذهب إلى المحافظ كى يعلمه بما يريد)

وترك السيدة مندفعاً حتى كاد يسقط من فوق الدرج مغشياً عليه.. ودخل حظيرة الجياد وركب فرسه، ولما كان يخرج من باب الحظيرة معتلياً ظهر جواده.. قابلته سعدية فى ممر ضيق وهى تحمل علف الجياد فوق ذراعيها.. فلكز بطن جواده بقدميه.. وهرع إلى محافظ المدينة.. وهناك دخل المبنى الكبير راكباً جواده.. وشق الحصان طريقه إلى الاسطبل، وربطه صاحبه فى حلقة حديدية.. ولما أخذ يصعد الدرج إلى مكتب المحافظ.. كانت سيدة جميلة تلاحقه قائلة:

- سيد سلامة.. سلامة..

فلما التفت خلفه رأى امرأة لم يرها من قبل فقال لها:

- ماذا تريدين ؟..

- إذا كنت تريد المحافظ فهو ليس هنا..

وتوقف حتى أصبح يقف بجانبها وقال بأنفاس متهدجة:

- وأين هو ؟..

- لقد ذهب إلى الرئاسة بالعاصمة..

- هل حدث شئ ؟..

- إن سعادة المحافظ عندما يعود من العاصمة سوف يكون رئيساً للمنطقة الشمالية بأكملها..

- ومن سيشغل منصب المحافظ ؟..

وابتسمت المرأة ابتسامة عريضة ومدت له يدها مهنئة:

– إن السيدة التى كانت رئيسة للمدينة لجديرة بهذا المنصب..

وتهاوت ذراعه فى كف يدها.. ولكنه تماسك قليلاً وسحب يده من قبضتها وقال وهو ينصرف:

– سوف أذهب لأهنئ المحافظ..

– واجب ياسيدى..

وترك فرسه فى الاسطبل.. ويبدو أنه نسى كيف أتى.. وخرج من باب المبنى تائهاً لايدرى إلى أين ؟.. كان يمشى والناس تمشى خلفه.. كانوا مندهشين.. كيف يسير على الأرض رجل من علية القوم..

انتهت بحمد الله وتوفيقه،،

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٧/١٠٨٩٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-19 - 4324-3

مطبعة الزهور- اسباتس- الهرم